

إعداد

عبد الرحمن يوسف الفرحان

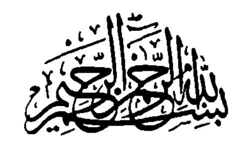
إنَّ التَّشاغُلَ بالدَّفاترِ والمحا   برِ والكتابةِ والدِّراسةِ
أصلُ التَّعبُّدِ والتزَ   هُّدِ والرِّئاسةِ والسِّياسةِ



الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
e-mail:
bashaer@cyberia.net.lb


عشاق الكتب



غـداً أصير كتابـاً يـا هناءَ غـدي | مقلَّـبـاً بيـن أنفـاسٍ وأبصـارِ
محبّـة سمحة الأكنـان تمنحني | في كـل ثانيـةٍ آلافَ أعمـار

[توفيق يوسف عواد]

كلمة شكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله.

وبعد: فاسم هذا الكتاب والحاثّ على جمعه، هو بإشارة من الأخ الشيخ مُحمَّد بنِ ناصر العجمي.

أشــرتَ إلــيَّ فــي تصنيــف هــذا ... فيــا حســن الإشــارة مــن همــام
لعلمــي أنَّ ظنــك فــيَّ صــدق ... وأنــك بــي حفــيّ ذو اهتمــام
فــلا زالــت تــدوم لــك العطايــا ... علــى رغــم الأخِسَّــاء اللئــام

والشيخ محمد هو من عشاق الكتب، قراءة وجمعاً وتأليفاً وتحقيقاً، وهو يحرص أن يفيد إخوانه بالكتب والمخطوطات.

قال الشيخ المحقق العلاّمة شعيب الأرناؤوط محقق كتاب «الآداب الشرعية ـ لابن مفلح»[1]: ولا بدَّ لنا من تقديم خالص الشكر وأوفاه إلى الأستاذ الفاضل محمد بن ناصر العجمي، المعروفِ في الأوساط العلمية بخدمة السنَّة النبوية، فإنه حفظه الله ورعاه لَمَّا ترامى إليه نبأُ قيامِنا بتحقيق هذا الكتاب، سارعَ إلى تصوير ما تَجَمَّع لديه من النسخ الخطية ـ وأهلُ العلم وحدَهم يعلمـون كـم يعاني الباحـث مـن صعوبـاتِ مُضْنيـةٍ في الاهتداء إلى

(١) الآداب الشرعية لمحمد بن مفلح المقدسي ص ٢٥، بيروت ـ مؤسسة الرسالة، ط (٢)، ١٩٩٦م.

أماكن وجود النسخ الخطية!، ثم في كيفيةِ الحصول عليها! ــ وأرسلها إلينا هديةً خالصةً، إسهاماً منه في خدمة العلم وأهله، فنسألُ المولى سبحانه أن يوفِّقَهُ لما يحبُّهُ ويرضاه، وأن يُجزِلَ له الأجرَ والثواب في الدنيا والآخرة. اهـ.

وقال الشيخ رمزي سعد الدين دمشقية: محقق كتاب «الفانيد في حلاوةِ الأسانيد ــ للسيوطي»[١]:

بحمد الله تعالى أولاً ثم بفضل سعي الأخ المحب الشيخ محمد بن ناصر العجمي تحصَّل لهذه الرسالة أربع نسخ مخطوطة.

ثم قال في الهامش: وهذه عادته وفّقه الله لما يحبه ويرضاه وجزاه عن العلم وأهله خيراً، يحرص أن يفيد إخوانه أو من يسمع أنه يقوم بتحقيق كتاب ما بإتحافه بما تيسّر عنده من مخطوطات ذلك الكتاب، حسبة لوجه الله تعالى، وقد يتجشّم لذلك الصّعاب ويتكلف ما لا يطيق غيره تكلفه، فالله يكافئه على حسن صنيعه، ويجعله يوم القيامة في صحائفه. اهـ.

وقال الدكتور موفق بن عبد الله بن عبد القادر: محقق كتاب «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني»[٢]:

لم أقف لكتاب المنتخب إلاَّ على نُسخة فريدَة في مكتبة أحمد الثالث في استانبول. ولا يفوتني في هذا المقام، أن أتقدم بجزيل الشكر إلى صديقي العزيز محمد بن ناصر العجمي الذي تكرَّم بإرسال مصورته من المخطوطة عندما عَلِمَ برغبتي في تحقيق هذا الكتاب.

---

(١) ص ٧ من ضمن مجموعة: «لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام» الأولى، بيروت ــ دار البشائر الإسلامية، ط (١)، ١٩٩٩م.

(٢) ص ٩٩، الرياض ــ دار عالم الكتب، ط (١)، ١٩٩٦م.

وقال الدكتور علي أبو زيد محقق كتاب «أعيان العصر وأعوان النصر ــ للصفدي»[1]:

ولا يفوتني في هذا المقام أن أسجّل الشكر والامتنان للأخ الفاضل محمد بن ناصر العجمي، الذي قدّم لي بكل نفس رضيّة عدداً من الأجزاء المخطوطة للكتاب كانت في مكتبته، أثابه الله عنا كل خير.

فذاكَ أَلْسُنُهُمْ لسانٌ واحِدٌ يُثْنِي بِما خَوَّلْتَ والدُّنْيا فَمُ

وكتبه

عَبْدُ الرَّحْمٰن يُوسُف الفَرحَان

(١) ص ١٦، دمشق ــ دار الفكر، بيروت ــ دار الفكر المعاصر، ط (١)، ١٩٩٨م.

المقـــدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل الكتاب وأمر به، فقال جلّ ذكره: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]. ووضع القلم في المكان الرفيع ونوّه بذكره وأقسم به، فقال جلّ ذكره: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١].

والصلاة والسلام على الرسول الأميّ الذي أوّلُ تكليف تلقّاه من ربّه هو القراءة، وأوّل كلمة ألقيت عليه هي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١].

وبعد، فإن عظمة الأمم تعتبر بأفكارها التي يبدعها أبناؤها، وعلمها الذي يتسلسل في أجيالها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

وما الحضارة إلاَّ مظهراً حيًّا وترجماناً عمليًّا لهذه العظمة ونتائج مباشرة للأفكار والقيم، فإذا انطلقت الأفكار والقيم والمعاني من منهج خلقي قويم، وسلوك نظيف مستقيم، شمخت عند الأمة وقتها حضارة عالية أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها.

وإن الكتاب والقلم لأعظمُ عامل في حفظ الأفكار ونقلها من السلف إلى الخلف، ومن أمة إلى أخرى عبر العصور والأجيال.

فإذا ضعفت الأمة وخَفَتَ نجمها، وبزّها في ميدان المجد والعظمة غيرها، بقيت الكتب والأسفار أعظم مورد وأصدق شاهد على سابق الأمة وماضيها.

وإن الأمة الإسلامية التي بقي لها من زاهر حضارتها، وشامخ مجدها رصيد من الثروة الهائلة، ومن المعاني والقيم والأفكار بحيث نستطيع أن نجزم معه على أن أمة غيرها لم توازيها أو تقاربها في ذلك الميدان الرحب الذي ضاق عنه غيرها.

وفي هذه الصفحات سنرى من أخبارهم في عشقهم للكتب وما بذلوه من النفيس والغالي من عمرهم ووقتهم وأسبابهم فيه، وتعبهم وما عانوه من المشاق والسفر لأجله، وعزلتهم وأنسهم بمجالسته ومنادمتهم له عوضاً عن الأهل والزوجة والأولاد والأصحاب، وحزنهم وغمّهم وموتهم بسببه.

وأغرق العقل في لجٍّ من الكتب	في الدّين والعلم والتاريخ والأدب
ملازماً كتب الماضين يسألها	ما أنتجت من فنون أمّة العرب

وما جمعت في هذا الكتاب إلاَّ ما اجتناهُ مَنْ عقلُهُ أكبرُ من عَقْلي، واختيارُه أبلغ من اختياري، ونقدُهُ أحسن من نَقْدي، وذَيْله في التجارب أطولُ من ذيلي.

وفي نظرائي وأشكالي مَنْ فهمُهُ أَثْبَتُ من فهمي، وذهنه أنفذ من ذهني، وحفظه أغزر من حفظي، وقلبه أذكى من قلبي، لكني آثرت أن يكون لي فيمن دوني أثر، كما كان لمن فوقي عندي أثر.

وأهل الفضل كنفس واحدة، تستنسخ الفضائل على الزمان في ذوي الأرواح الطاهرة، والجواهر النيِّرة، والطبائع المشحوذة، والعقول السليمة.

وهذا الكتاب تلقَّطته من أقوالهم بعد التحرير والتقرير، وما لي منهُ إلاَّ

حَظُّ الرواية إن وقعت موقعها منك، وحلَّت محلَّها عندك، وإن تكُنِ الأخرى فما أَقْدَرَكَ على رَدِّ ما أروي، وإفسادِ ما أقولُ، حتى يصيرَ ما جمعتُهُ ونقلتُهُ، وكددتُ نفسي فيه، خامِلاً في عينك، وَمَهينَ القَدْرِ بحُكْمك، وغيرُ هذا أجملُ بمطبوعٍ على الخير، ومغذوٍّ بالأدب، وناشيءٍ مع البِرِّ، وجارٍ على طُرُقِ الطهارة.

ولا أقول إنَّ ما يمرُّ بك ها هنا لا تُصيبه في الكتب، ولا تجدهُ عند الشيوخ، ولكن كم بَيْنَ مَنْ يَسْتَقْبِلُ كفايةَ غيره، وبينَ مَنْ يستأنفُ كفايةَ نفسه، أَنْصِفْ وَأَحسِنْ، وانظرْ إليَّ بعينِ الرضا، ثم اقتحمْ بي جَمْرَ الغضا، ومهما أثبتَّ فاقصد به تأديبي وتهذيبي، لتكونَ لائمتُكَ عن غير حَسَد، وإنكارُك خارجاً عن التنافُس، فإنّي أخافُ أنْ يَقْلِيَنا قالٍ، وَيَشْبِكَ حالنا شابك، فأستحي لك من جنايتكَ عليَّ بِرَدِّ ما أَثْبَتَّهُ، وتزييفِ ما نقدتَه، والسلامُ عليك شُبْتَ أو خَلَصْتَ، وزدتَ في إحساني أو نَقَصْتَ، ورحمةُ الله وبركاتُه.

عبد الرحمن يوسف الفرحان

١ ـ فصل في
فضيلة علم الأخبار

قال أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ[١] :

قَالُوا: لَوْلاَ تَقْيِيدُ الْعُلَمَاء على الدهر خَوَاطِرَهُمْ بِالأَخْبَارِ، وكَتْبِهِمْ لِلآثَارِ، لَبَطَلَ أَوَّلُ الْعِلْمِ، وَضَاعَ آخِرُهُ.

إِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ الأَخْبَارِ يُسْتَخْرَجُ، وكُلُّ حِكْمَةٍ مِنْهَا تُسْتَنْبَطُ، والفقه منها يستثار وَالْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ، وَأَصْحَابُ الْقِيَاس عَلَيْهَا يَبْنُونَ، وَأَهْلُ الْمَقَالاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ، وَمَعْرِفَةُ النَّاس مِنْهَا تُؤْخَذُ، وَأَمْثَالُ الْحُكَمَاء فِيهَا تُوجَدُ، ومَكَارِمُ الأَخْلاَقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ، وآدَابُ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ وَالْحَزْمِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ؛ فَكُلُّ غَرِيبَةٍ بِهَا تُعْرَفُ، وكُلُّ عَجِيبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ.

وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ الْعَالِمُ والجاهل، وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ الأَحْمَقُ وَالْعَاقِلُ، ويَأْنَسُ بمَكَانه، وَيَنْزِعُ إِلَيْهُ الخَاصِّيُّ وَالْعَامِّيُّ، وَيَمِيلُ إِلَى رِوَايَتِهِ الْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ.

«وَبَعْدُ» فَإِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كل كلام، وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ، وَيُتَجَمَّلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ، وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ.

فَفَضِيلَةُ عِلْمِ الأَخْبَارِ تَبِيهُ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ، وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ، فَلاَ يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ، وَيُتْقِنُ مَا فِيهِ مِنْ إِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ، إِلاَّ إِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ، وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ، وَٱسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ، وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ.

وَقَدِيماً قِيلَ: إِنَّ عِلْمَ النَّسَبِ وَالأَخْبَارِ مِنْ عُلُومِ ٱلْمُلُوكِ وَذَوِي

---

(١) معجم الأدباء ١/ ٩١، وبعضه في مروج الذهب ٢/ ٦٧.

ٱلْأَخْطَارِ، وَلاَ تَسْمُو إِلَيْهِ الاَّ ٱلنُّفُوسُ الشَّرِيفَةُ، وَلاَ يَأْبَاهُ إِلاَّ ٱلْعُقُولُ السَّخِيفَةُ.

* * *

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ[1]:

ٱلْكِتَابُ نِعْمَ ٱلْجَلِيسُ وَالذُّخْرُ، إِنْ شِئْتَ أَلْهَتْكَ بَوَادِرُهُ، وَأَضْحَكَتْكَ نَوَادِرُه، وَإِنْ شِئْتَ أَشجَتْكَ مَوَاعِظُهُ، وَإِنْ شِئْتَ تَعَجَّبْتَ مِنْ غَرَائِبِ فَوائِدِهِ.

وَهُوَ يَجْمَعُ لَكَ ٱلْأَوَّلَ وَٱلآخِرَ، وَالنَاقِصَ وَٱلْوَافِرَ، وَٱلْغَائِبَ وَٱلحَاضِرَ، وَالشَّكْلَ وَخِلاَفَهُ، وَٱلْجِنْسَ وَضِدَّهُ.

وَهُوَ مَيِّتٌ يَنْطِقُ عَنِ ٱلْمَوْتَى، وَيُتَرْجِمُ عَنِ ٱلأَحْيَاءِ، وَهُوَ مُؤْنِسٌ يَنْشَطُ بِنَشَاطِكَ، وَيَنَامُ بِنَوْمِكَ، وَلاَ يَنْطِقُ إِلاَّ بِمَا تَهْوَى.

وَلاَ يُعْلَمُ جَارٌ وَلا خَلِيطٌ أَنْصَفُ، وَلاَ رَفِيقٌ أَطْوَعُ، وَلاَ مُعَلِّمٌ أَخْضَعُ، وَلاَ صَاحِبٌ أَظْهَرُ كِفَايَةً، وَلاَ أَقَلُّ جِنَايَةً، وَلاَ أَبْدَأُ نَفعاً، وَلاَ أَحْمَدُ أَخْلاَقاً، وَلاَ أَدْوَمُ سُرُوراً، وَلاَ أَسْلَمُ غَيْبَةً، وَلاَ أَحْسَنُ مُوَاتَاةً، وَلاَ أَعْجَلُ مُكَافَأَةً، وَلاَ أَخَفُّ مُؤْنَةً مِنْهُ.

إِنْ نَظَرْتَ فِيهِ أَطَالَ إِمْتَاعَكَ، وَشَحَذَ طِبَاعَكَ، وَأَكْثَرَ عِلْمَكَ، وَتَعْرِفُ مِنْهُ فِي شَهْرٍ مَا لا تَعْرِفُ مِنْ أَفْوَاهِ ٱلرِّجَالِ فِي دَهْرٍ، يُغْنِيكَ عَنْ كَدِّ الطَّالِبِ، وَعَنِ ٱلخُضُوعِ إِلَى مَنْ أَنْتَ أَثْبَتُ مِنْهُ أَصْلاً، وَأَرْسَخُ مِنْهُ فَرعاً، وَهُوَ ٱلْمُعَلِّمُ الَّذِي لاَ يَجْفُوكَ، وَإِنْ قَطَعْتَ عَنْهُ ٱلْمَادَّةَ لَمْ يَقْطَعْ عَنْكَ ٱلْفَائِدَةَ.

* * *

* وَكَانَ عُبَيْدُ اللَّه بْنُ مُحَمَّدِ ابْنِ عَائِشَةَ ٱلْقُرَشِيُّ يَقُولُ: ٱلْأَخْبَارُ تَصْلُحُ لِلدِّينِ وَالدُّنيَا، قُلْنَا: الدُّنْيَا قَدْ عَرَفْنَا فَمَا لِلآخِرَةِ؟ قَالَ: فِيهَا ٱلعِبَرُ، يَعْتَبِرُهَا ٱلرَّجُلُ.

---

(١) هذه بعض فقر ممّا قاله الجاحظ وستأتي مبسوطة ص ٢١.

وَقَالَ اللَّهُ تعَالَىٰ مُخْبِراً عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤]، وَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩].

* وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِوَلَدِهِ: عَلَيْكَ بِالأَخْبَارِ، فَإِنَّهَا لاَ تَعْدَمْ كَلِمَةً عَلَى هُدًى، وَأُخْرَى تَنْهَى عَنْ رَدًى.

* وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: أَجِمُّوا هَذِهِ الْقُلُوبَ وَالْتَمِسُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ، فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْدَانُ.

* وكَانَ أَبُو زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ لاَ يَعْدُو النَّحْوَ، فَقَالَ لَهُ خَلَفٌ الأَحْمَرُ: قَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى النَّحْوِ لَمْ تَعْدُهُ، وَلَقَلَّمَا يَنْبُلُ مُتَفَرِّدٌ بِهِ، فَعَلَيْكَ بِالأَخْبَارِ وَالأَشْعَارِ.

* وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ فِي كِتَابِهِ فِي الأَدَبِ: «ثُمَّ انْظُرِ الأَخْبَارَ الرَّائِعَةَ فَتَحَفَّظْ مِنْهَا، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الإِنْسَانِ الْحِرْصَ عَلَى الأَخْبَارِ، وَلاَ سِيَّمَا مَا يَرْتَاحُ لَهُ النَّاسُ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ مَن يُحَدِّثُ بِما يَسْمَعُ، وَلاَ يُبَالِي مِمَّنْ سَمِعَ، وَذَلِكَ مَفْسَدَةٌ لِلصِّدْقِ، وَمَزْرَاةٌ بِالرَّأْيِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ تُخْبِرَ بِشَيْءٍ إِلاَّ وَأَنْتَ بِهِ مُصَدِّقٌ، وَأَلاَّ يَكُونَ تَصْدِيقُكَ إِلاَّ بِبُرْهَانٍ فَافْعَلْ».

* * *

قَالَ الأَخفَشُ عَليُّ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَنْشَدَنِي أَبُو سَعِيدِ السُّكَّرِيُّ:

وَذَكَّرَنِي حُلْوَ الزَّمَانِ وَطِيبَهُ ... مَجَالِسُ قَوْمٍ يَمْلَؤُونَ الْمَجَالِسَا
حَدِيثاً وَأَشْعَاراً وَفِقهاً وَحِكْمَةً ... وَبِرّاً وَمَعْرُوفاً وَإِلْفاً مُؤَانِسَا

* * *

وَقَال ابْنُ عَتَّابٍ: يَكُونُ الرَّجُلُ نَحْوِيًّا عَرُوضِيًّا حَسَنَ الْكِتَابِ، جَيِّدَ

الْحِسَابِ، حَافِظاً لِلْقُرْآنِ، رَاوِيَةً لِلشِّعْرِ، وَهُوَ رَاضٍ بِأَنْ يُعَلِّمَ أَوْلَادَنَا بِسِتِّينَ دِرْهَماً. وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً كَانَ حَسَنَ ٱلْبَيَانِ، حَسَنَ ٱلتَّخْرِيجِ لِلْمَعَانِي، لَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرُ ذَلِكَ لَمْ يَرْضَ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ. لِأَنَّ النَّحْوِيَّ لَيْسَ عِنْدَهُ إِمْتَاعٌ؛ كَالنَّجَّارِ ٱلَّذِي يُدْعَى لِيُغَلِّقَ بَاباً، فَلَوْ كَانَ أَحْذَقَ ٱلنَّاسِ، ثُمَّ فَرَغَ مِنْ تَغْلِيقِ ذَلِكَ ٱلبَابِ، قِيلَ لَهُ ٱنْصَرِفْ، وَصَاحِبُ ٱلإِمْتَاعِ يُرَادُ فِي ٱلحَالاَتِ كُلِّهَا.

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَيْسَ يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَسْتَغْرِقَ شَيْئاً مِنَ ٱلعِلْمِ إِلاَّ عِلْمَ ٱلأَخْبَارِ، فَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ فَالنُّتَفُ وَٱلشُّذُرُ.

* * *

عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ:

كَتَبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ: ٱنْظُرْ لِي رَجُلاً عَالِماً بِالْحَلاَلِ وَٱلْحَرَامِ، عَارِفاً بِأَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا، أَسْتَأْنِسُ بِهِ وَأُصِيبُ عِنْدَهُ مَعْرِفَةً، فَوَجِّهْهُ إِلَيَّ مِنْ قِبَلِكَ. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ ٱلشَّعْبِيَّ، وَكَانَ أَجْمَعَ أَهْلِ زَمَانِهِ.

قَالَ ٱلشَّعْبِيُّ: فَلَمْ أَلْقَ وَالِياً وَلاَ سُوقَةً إِلاَّ وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَيَّ، وَلاَ أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَا خَلاَ عَبْدَ ٱلْمَلِكِ، مَا أَنْشَدْتُهُ شِعْراً، وَلاَ حَدَّثْتُهُ حَدِيثاً، إِلاَّ وَهُوَ يَزِيدُنِي فِيهِ، وَكُنْتُ رُبَّمَا حَدَّثْتُهُ وَفِي يَدِهِ ٱللُّقْمَةُ فَأَمْسَكَهَا، فَأَقُولُ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَسِغْ طَعَامَكَ، فَإِنَّ ٱلْحَدِيثَ مِنْ وَرَائِهِ، فَيَقُولُ: مَا تُحَدِّثُنِي بِهِ أَوْقَعُ بِقَلْبِي مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ، وَأَحْلَى مِنْ كُلِّ فَائِدَةٍ.

وَكَتَبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ إِلَى ٱلحَجَّاجِ: أَنْتَ عِنْدِي كَقِدْحِ ٱبْنِ مُقْبِلٍ، فَلَمْ يَدْرِ ٱلْحَجَّاجُ مَا عَنَى، فَسَأَلَ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ ـ وَكَانَ رَاوِيَةً عَالِماً ـ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: قَدْ مَدَحَكَ، فَإِنَّ ٱبْنَ مُقْبِلٍ نَعَتَ قِدْحَهُ فَقَالَ:

مُفَدًّى مُؤَدًّى بِالْيَدَيْنِ مُلَعَّنٌ ... خَلِيعُ قِدَاحٍ فَائِزٌ مُتَمَنَّحُ
خَرُوجٌ مِنَ ٱلْغُمَّى إِذَا صُكَّ صَكَّةً ... بَدَا وَٱلْعُيُونُ ٱلْمُسْتَكِفَّةُ تَلْمَحُ

قَالَ: فكَانَتْ فِـي نَفْسِ الْحَجَّاجِ حَتَّى وَلاَّهُ خُرَاسَانَ.

* * *

وَقَال مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ الزَّيَّاتُ فِـي رَجُلٍ خِلْوٍ مِنَ ٱلأَدَبِ:

يَـاأَيُّهَـا الْعَـائِبِـي وَلَـمْ تَـرَ بِـي — عَيْبـاً أَلَا تَنْتَهِـي وَتَـزْدَجِـرُ؟

هَـلْ لَـكَ وَتْـرٌ لَـدَيَّ تَطْلُبُـهُ — أَمْ لَسْـتَ مِمَّـا أَتَيْـتَ تَعْتَـذِرُ؟

إِنْ كَـانَ قَسْـمُ الإِلَـهِ فَضَّلَنِـي — وَأَنْـتَ صَلْـدٌ مَـا فِيـكَ مُعْتَصَـرُ

فَـالْحَمْـدُ وَالشُّكْـرُ وَالثَّنَـاءُ لَـهُ — وَلِلْحَسُـودِ التُّـرَابُ وَالْحَجَـرُ

اقْـرَأْ لَنَـا سُـورَةً تُخَـوِّفُنَـا — فَـإِنَّ خَيْـرَ ٱلْمَـوَاعِـظِ ٱلسُّـوَرُ

أَوِ ٱرْوِ فِقْهـاً تُحْيِـي ٱلْقُلُـوبَ بِـهِ — جَـاءَ بِـهِ عَـنْ نَبِيِّنَـا أَثَـرُ

أَوْ هَاتِ مَا ٱلحُكْمُ فِـي فَرَائِضِنَا؟ — مَـا يَسْتَحِـقُّ ٱلإِنَـاثُ وَالـذَّكَـرُ؟

أَوِ ٱرْوِ عَـنْ فَـارِسٍ لَنَـا مَثَـلاً — فَـإِنَّ أَمْثَـال فَـارِس عِبَـرُ

أَوْ مِـنْ أَحَـادِيـثِ جَـاهِلِيَّتِنَـا — فَـإِنَّهَـا عِبْـرَةٌ وَمُعْتَبَـرُ

أَوْ هَاتِ كَيفَ ٱلإِعْرَابُ فِـي الرَّفْعِ وَالخَفْـ — ـضِ وكَيْـفَ التَّصْـرِيـفُ وَالصَّـدَرُ؟

أَوِ ارْوِ شِعْراً أَوْ صِفْ لَنَا غَرَضاً — يُتْلَـى صَحِيـحٌ مِنْـهُ وَمُنْكَسِـرُ

إِذَا جَهِلْـتَ ٱلآدَابَ مُـرْتَغِيـاً — عَنْهَـا وَخِلْـتَ ٱلْعَمَـى هُـوَ ٱلْبَصَـرُ

وَلَـمْ تُعَـوَّضْ مِـنْ ذَاكَ مَيْسَـرةً — عَلَيْـكَ مِنْهَـا لِبَهْجَـةٍ أَثَـرُ

فَغَـنِّ صَـوْتـاً تُلْهِـي ٱلْفُـؤَادَ بِـهِ — وَكُـلُّ مَـا قَـدْ جَهِلْـتَ مُغْتَفَـرُ

تَعِيـشُ فِينَـا وَلَا تُـلَائِمُنَـا — فَـٱذْهَـبْ وَدَعْنَـا حَتَّـامَ تَنْتَظِـرُ

تُغْلِـي عَلَيْنَـا ٱلأَشْعَـارَ أَنْـتَ وَمَـا — عِنْـدَكَ نَفْـعٌ يُـرْجَـى وَلَا ضَـرَرُ

هَمُّـكَ فِـي مَـرْتَـعٍ وَمُغْتَبَـقٍ — كَمَـا يَعِيـشُ ٱلحَمِيـرُ وَٱلبَقَـرُ

❑ ❑ ❑

٢ ـ فصل في
فضيلة الكتب والكتابة للجاحظ

قال العلّامة المتبحّر، ذو الفنون، معلّم العقل والأدب عمرو بن بحر الجاحظ، معرِّفاً العشق والكتب:

قَالَ الْمُبَرِّدُ[١]: سَمِعْتُ الْجَاحِظَ يَقُولُ: كُلُّ عِشْقٍ يُسَمَّى حُبًّا، وَلَيْسَ كُلُّ حُبٍّ يُسَمَّى عِشْقاً، لِأَنَّ الْعِشْقَ اْسْمٌ لِمَا فَضَلَ عَنِ الْمَحَبَّةِ، كَمَا أَنَّ السَّرَفَ اْسْمٌ لِمَا جَاوَزَ الْجُودَ، وَالْبُخْلَ اْسْمٌ لِمَا قَصَرَ عَنِ الِاقْتِصَادِ، وَالْجُبْنَ اْسْمٌ لِمَا فَضَلَ عَنْ شِدَّةِ الاحْتِرَاسِ، وَالْهَوَجَ اْسْمٌ لِمَا فَضَلَ عَنِ الشَّجَاعَةِ.

قال عنه ثابت بن قرّة الصابىء[٢]: مما فضّل الله تعالى به أمّة محمّد ﷺ على غيرها من الأمم: عمر بن الخطاب بسياسته، والحسن البصريّ بعلمه، والجاحظ ببيانه.

وعن عشقه للكتب حدّث أبو هفّان[٣] قال: «لم أر قطُّ ولا سمعتُ مَن أحبّ الكتبَ والعلومَ أكثرَ من الجاحظ، فإنّه لم يقع بيده كتابٌ قطُّ، إلاَّ استوفى قراءَته، كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين، ويبيت فيها للنّظر».

---

(١) معجم الأدباء ١٦/ ٨٨.

(٢) المصدر السابق ١٦/ ١٠١، وسرح العيون ص ٢٤٨.

(٣) انظر تخريجه ص ٨٧.

وعن محمد بن سليمان الجوهري قال[1]: كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل، قال: فخرجنا يوماً لنزهة، فبينا نحن على باب جامع البصرة، ننتظر شيئاً أردناه، إذ عارضتنا امرأة، معها أوراق مقطعة، فعرضت ذلك علينا، فلم نجد فيها طائلاً، فتركناها وانصرفنا، وتخلف معها الجاحظ، ونحن ننتظره، فأطال، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً، وأخذ الأوراق؛ وقال: انتظروني، ومضى بها إلى منزله، فلما عاد أخذنا نهزأ به، ونقول: فزت بقطعة من العلم وافرة، وضحكنا، فقال: أنتم حمقى، والله إن فيها ما لا يوجد إلاَّ فيها، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس.

* * *

وذكر ياقوت خبر أحمد بن علي بن الأخشاد عاشق كتب الجاحظ فقال[2]:

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَمِنْ عَجِيبِ الْحَدِيثِ فِي كُتُبِهِ مَا حَدَّثَنَا بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى النَّحْوِيُّ الشَّيْخُ الصَّالِحُ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الأَخْشَادِ شَيْخَنَا أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ:

ذَكَرَ أَبُو عُثْمَانَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْحَيَوَانِ أَسْمَاءَ كُتُبِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالْفِهْرِسْتِ، وَمَرَّ بِي فِي جُمْلَتِهَا الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّىءِ، وَكِتَابُ دَلاَئِلِ النُّبُوَّةِ، وَقَدْ ذَكَرَهُمَا هَكَذَا عَلَى التَّفْرِقَةِ، وَأَعَادَ ذِكْرَ الْفَرْقِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ لِشَيْءٍ دَعَاهُ إِلَيْهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَرَى الْكِتَابَيْنِ وَلَمْ أَقْدِرْ إِلاَّ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَهُوَ كِتَابُ دَلاَئِلِ النُّبُوَّةِ، وَرُبَّمَا لُقِّبَ بِالْفَرْقِ خَطأً، فَهَمَّنِي ذَلِكَ

---

(١) تقييد العلم ص ١٣٨.

(٢) معجم الأدباء ١٦/ ١٠١، ومقدمة الحيوان ١/ ٨.

وَسَاءَنِي فِي سُوءِ ظَفَرِي بِهِ، فَلَمَّا شَخَصْتُ مِنْ مِصْرَ وَدَخَلْتُ مَكَّةَ ـ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى ـ حَاجًّا، أَقَمْتُ مُنَادِياً بِعَرَفَات يُنَادِي ـ وَالنَّاسُ حُضُورٌ مِنَ الآفَاقِ عَلَى ٱخْتِلاَفِ بُلْدَانِهِمْ وَتَنَازُحِ أَوْطَانِهِمْ، وَتَبَايُنِ قَبَائِلِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَمِنْ مَهَبِّ الشَّمَالِ إِلَى مَهَبِّ الْجَنُوبِ، وَهُوَ الْمَنْظَرُ الَّذِي لاَ يُشَابِهُهُ مَنْظَرٌ ـ : «رَحِمَ اللَّهُ مَنْ دَلَّنَا عَلَى كِتَابِ الْفَرْقِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّىءِ لأَبِي عُثْمَانَ الْجَاحِظِ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ كَانَ».

قَالَ: فَطَافَ الْمُنَادِي فِي تَرَابِيع عَرَفَات وَعَادَ بِالْخَيْبَةِ وَقَالَ: حَجَبَ النَّاسَ مِنِّي وَلَمْ يَعْرِفُوا هَذَا الْكِتَابَ وَلاَ ٱعْتَرَفُوا بِهِ.

قَالَ ٱبْنُ أَخْشَادٍ: وَإِنَّمَا أَرَدْتُ بِهَذَا أَنْ أُبْلِغَ نَفْسِي عُذْرَهَا.

قَالَ يَاقُوت: وَحَسْبُكَ بِهَا فَضِيلَةً لأَبِي عُثْمَانَ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ ٱبْنُ الأَخْشَادِ ـ وَهُوَ هُوَ فِي مَعْرِفَةِ عُلُومِ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ رَأْسٌ عَظِيمٌ مِنْ رُؤُوس الْمُعْتَزِلَة ـ يُسْتَهَامُ بِكُتُبِ الْجَاحِظِ حَتَّى يُنَادِيَ عَلَيْهَا بِعَرَفَات وَالْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَهَذَا الْكِتَابُ مَوْجُودٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ الْيَوْمَ لاَ يَكَادُ تَخْلُو خِزَانَةٌ مِنْهُ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا مِنْهُ نَحْوَ مِائَةِ نُسْخَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

وكان موته رحمه الله سنة ٢٥٥هـ بسقوط مجلَّدات العلم عليه[١].

وله في صدر الجزء الأول من الحيوان، نعتٌ للكتب، يقع منه الدَّليلُ على ما ملأ الله به صدرَ هذا الرَّجل من إيمانٍ بما للعلم والكتاب من شرفٍ وجاه، وما للتفهُّمِ والقراءة من مكانٍ عالٍ، ومنزل كريم.

* * *

(١) شذرات الذهب ٣/ ٢٣٢.

قال الجاحظ رحمه الله فيمن عاب تصنيف الكتب والكتاب[1] :

الكِتَاب نعم الذخر والعقدة هو، ونعم الجليس والعُدَّة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخِيل، ونعم الوزير والنزيل.

والكتاب وعاءٌ مُلِيءَ علماً، وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفاً، وإناءٌ شُحِن مُزَاحاً وجِدًّا؛ إنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَحْبَانِ وائل، وإن شئت كان أعيا من باقِل، وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِهِ[2]، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده، وإن

---

(١) الحيوان (١/٣٨ ـ ٤٨، ٥٠ ـ ٦٢، ٦٨ ـ ٧٣، ٧٥، ٧٩، ٨٤ ـ ٩٠، ٩٣ ـ ١٠٢) (بتصرّف)، وورد مقطّعاً ومختصراً واختلاف في الألفاظ وبتقديم وتأخير في: البيان والتبيين ١/ ٧٩ ـ ٨٠، رسائل الجاحظ ١/ ٣١٥ و٣/ ٢٧ و ٤/ ٢٩٦، والمحاسن والأضداد ص ٥، ومروج الذهب ٢/ ٦٧، والمحاسن والمساوىء ص ٦، وديوان المعاني ص ٥٣٣، والبصائر والذخائر ٥/ ١٤٥، والفصوص ٣/ ٢٩١، واللطائف والظرائف ص ٦٥، وخاص الخاص ص ٩، ولطائف اللّطف ص ٧٨، والإعجاز والإيجاز ص ٧٢، والتمثيل والمحاضرة ص ١٦٠، ولطائف الظرفاء ص ١١٢، وزهر الآداب ١/ ١٨٣، وبهجة المجالس ١/ ٣٥٦، وتقييد العلم ص ١٢١، ومحاضرة الأدباء ١/ ١١٧، وسراج الملوك ص ٥٨٠، وربيع الأبرار ٢/ ٢٣٢ و ٣/ ٢٣٥، والتذكرة الحمدونية ٤/ ٧٠ و ٥/ ٤١٢، ومعجم الأدباء ١/ ٩١، ومحاضرة الأبرار ص ٧ ـ ٩، ونهاية الأرب ٧/ ١١٧، ومطالع البدور ٢/ ١٧٣، والكنز المدفون ص ١٢٨، والمخلاة ص ٦٠ و ١٠٠، وطراز المجالس ص ١٢١، وأنوار الربيع ٢/ ٣٨٦، والكشكول البحراني ١/ ٥، وموسوعة الكنايات ٢/ ٩٠، والأنس ١/ ٤٤٥.

وقال هلال ناجي محقق كتاب «الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه ـ للصفدي ص ٤٧٢»: ونشر صديقنا إبراهيم السامرائي رسالة الجاحظ في «مدح الكتب والحث على جمعها» في مجلّة المجمع العراقي. وأقول أنا: لم أستطع الحصول عليها.

(٢) في تقييد العلم ص ١٢٨ رواية شبيهة: قال بعض العلماء: الكتاب تؤدبك عجايبه، =

شئتَ ألهتْك طرائِفُه، وإن شئتَ أشجَتْك مواعِظُه.

وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتِك، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدٍ حارّ.

ومَنْ لَكَ بطبيب أَعرابـيّ، وَمَنْ لَكَ برُوميٍّ هِنْدِيّ، وبفارسي يُونَانيّ، وبقَدِيمٍ مولَّد، وبميِّتٍ ممتَّع، وَمَنْ لَكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأَوَّلَ والآخِر، والناقص والوافر، والخفيَّ والظاهر، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيع، والغَثَّ والسمين، والشِّكْلَ وخِلافَه، والجِنسَ وضدَّه.

وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحمَل في رُدْن، ورَوضةً تُقَلُّ في حِجْرٍ؛ وناطقاً ينطِق عن الموتَى، ويُترجمُ عن الأحياء[1]؟!

= وتسرك طرايفه، وتضحكك ملحه ونوادره، وهو نزهة الأديب عند لذته، ومتعته عند خلوته، وتحفته عند نشاطه، وأنسه عند انبساطه، ومستراحه من همه، ومسلاته من غمه، وعوضه من جليس السوء، وسخف الأماني، ومستقبح الشهوات؛ وهو روضة مجلسه، وبستان يده، وأنيس يتقلب معه.

(١) ورد في بهجة المجالس ٣/ ٦١، ومحاضرات الأدباء ١/ ٣٣، والتذكرة الحمدونية ٥/ ٤١٣، والكشكول ص ٧٢٢ عن الأصمعي، جمعت بينها:
روى الرّياشي وأبو حاتم عن الأصمعي، قال: ألا أدلك على لباس إن لبسته كان سريّاً، وإن رفعته كان بهيّاً، وإن ذَخَرْته كان طرياً؟ قال: نعم. قال: عليك بالتقوى.
قال: ألا أدلك على خليل إن صحبته زانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن استعنت به أعانك، وإن تَجَرْتَ به أربحك، وإن ترحّلت به حملك؟ قال: نعم، قال: عليك بالأدب.
ثم قال: ألا أدُلّك على بستان يكون في كُمّك، وروضة تكونُ في حِجْرك، وميتٍ يَنْطق، وأخرسَ يتكلم، يحدثك إذا شئت، ويذكرك إذا نسيت، ويُؤنسك إذا استوحشت، ويكفّ عنك إذا سئمت؟ قال: نعم، قال: عليك بالكتاب.

وَمَنْ لك بمؤنس لا ينام إلاَّ بنومك، ولا ينطق إلاَّ بما تهوَى؛ آمَنُ مِنَ الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ، وأحفَظُ للوديعةِ من أرباب الوديعة، وأحفَظ لما استُحفِظَ من الآدميِّين، ومن الأعْرَابِ المعرِبين، بل مِنَ الصِّبيانِ قبلَ اعتراضِ الاشتغال، ومن العُميانِ قبلَ التمتُّع بتمييز الأشخاص، حينَ العنايةُ تامَّةٌ لم تَنْقُص، والأذهانُ فارغةٌ لم تنقَسِم، والإرادةُ وافرةٌ لم تتشعَّب، والطِّينَةُ ليِّنة، فهي أقبلُ ما تكون للطابع، والقضيبُ رطبٌ، فهو أقربُ ما يكون من العُلوق، حينَ هذه الخصالُ لم يَخْلُق جديدُها، ولم يُوهَنْ غَرْبُهَا، ولم تتفرَّق قُواها؛ ومن كلامهم: التعلُّمُ في الصِّغَر كالنقشِ في الحجر.

وقد قالَ ذو الرُّمَّةِ[1] لعيسى بن عمر: اُكتبْ شِعري؛ فالكتابُ أحبُّ إليَّ من الحفظ. لأنّ الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ وقد سهر في طلبها ليلَته، فيضَعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثم يُنشِدها الناسَ، والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبدِّلُ كلاماً بكلام.

وعبتَ الكتابَ، ولا أعلَمُ جاراً أبرَّ[2]، ولا خَليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلِّماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنَايةً، ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراماً، ولا أحفَلَ أخلاقاً، ولا أقلَّ خِلافاً وإجراماً، ولا أقلَّ غِيبةً، ولا أبعدَ من عَضِيهة، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفاً، ولا أقلَّ تصلُّفاً وتكلُّفاً، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أتْرَكَ لشَغَب، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب.

---

(١) وهو في الموشّح ص ٢٣٣، وتقييد العلم ص ١١٨، ونهاية الأرب ٧/ ١٨، والعمدة ٢/ ٩٩٠، وفي حاشية المحقّق ذكر طبقات ابن سلّام ٤٩٢، والشعر والشعراء ص ٤٨١.

(٢) نسبه في مطالع البدور ٢/ ١٧٤ لبديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨هـ.

ولا أعلَمُ قريناً أحسنَ مُوَافاةً[1]، ولا أعجَل مكافأة، ولا أحضَرَ مَعُونةً، ولا أخفَّ مَؤونَة، ولا شجرةً أطولَ عمراً، ولا أجمعَ أمراً، ولا أطيَبَ ثمرةً، ولا أقرَبَ مُجتنى، ولا أسرَعَ إدراكاً، ولا أوجَدَ في كل إبَّانٍ، من كتاب.

ولا أعلَمُ نِتاجاً في حَدَاثةِ سنِّه، وقُرْب ميلادِه، ورُخْص ثمنه، وإمكانِ وُجوده، يجمَعُ من التدابيرِ العجيبَة والعلومِ الغريبة، ومن آثارِ العقولِ الصحيحة، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة، ومِنَ الحِكَم الرفيعة، والمذاهب القوِيمة، والتجارِبِ الحكيمة، ومِنَ الإخبارِ عن القرون الماضية، والبلادِ المتنازِحة، والأمثالِ السائرة، والأمم البائدة، ما يجمَعُ لك الكتابُ.

قال الله عزَّ وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ ﴾ [العلق: ٣، ٤] فَوَصَفَ نَفْسَهُ تبارك وتعالى، بأنْ عَلَّمَ بالقَلم، كما وصف نفسَه بالكرَم، واعتدَّ بذلك في نِعَمه العِظام، وفي أيادِيه الجِسام. وقد قالوا: القَلَمُ أحدُ اللسانَين، وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَف النِّعمةَ في بَيان اللسانِ، كان بفضل النِّعمة في بيانِ القلم أعرَف. ثمَّ جَعَلَ هذا الأمرَ قرآناً، ثمَّ جعلَه في أوَّل التنزيل ومستَفْتَح الكتاب.

كون الاجتماع ضرورياً:

ثمَّ اعلمْ، رحِمَك الله تعالى، أنّ حاجةَ بعض الناس إلى بعضٍ صفةٌ لازمةٌ في طبائِعهم، وخِلقةٌ قائِمةٌ في جواهِرهم، وثابتةٌ لا تُزَايلُهم، ومُحيطةٌ بجماعَتِهم، ومشتملةٌ على أدناهم وأقصاهم، وحاجَتُهُمْ إلى ما غاب عنهم ـ ممَّا يُعِيشُهم ويُحْييهم، ويُمسِك بأرْماقِهم، ويُصلِحُ بالهم، ويَجْمَع

---

(١) نسبه في المصدر السابق إلى الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ.

شملَهم، وإلى التعاوُنِ في دَرْكِ ذلك، والتوازرِ عليه ــ كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما يضرُّهم، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تَغِبْ عنهم، فحاجَةُ الغائبِ مَوصُولةٌ بحاجةِ الشاهد، لاحتياج الأدنَى إلى معرفة الأقصى، واحتياجِ الأقصى إلى معرفَةِ الأدنى، معانٍ متضمنّةٌ، وأسبابٌ متَّصلة، وحبالٌ منعقدة.

وجعل حاجتنَا إلى معرفة أخبارِ مَنْ كان قبلَنا، كحاجةِ من كان قبلنا إلى أخبار مَنْ كان قبلهم، وحاجةِ من يَكُونُ بعدَنا إلى أخبارِنا؛ ولذلك تقدَّمت في كتب الله البِشارات بالرُّسل، ولم يسخِّر لهم جميعَ خلْقه، إلاَّ وهم يحتاجُون إلى الارتفاق بجميع خلْقه.

وجعلَ الحاجَةَ حاجَتَين: إحداهما قِوامٌ وقُوت، والأخرى لَذّةٌ وإمْتاعٌ وازديادٌ في الآلَة، وفي كلِّ ما أجذَلَ النفوس، وجمع لهم العَتاد. وذلكَ المقدارُ مِنْ جميع الصِّنْفَين وفقٌ لكثرةِ حاجاتهم وشَهوَاتهم، وعلى قدْر اتّساعِ معرفتهم وبُعْدِ غَوْرهم، وعلى قَدْرِ احتمال طبع البشريَّة وفِطرةِ الإنسانيَّة.

ثم لم يقطعِ الزيادةَ إلاَّ لعجْزِ خلقِهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجْز، إلاَّ بعدَم الأعيان، إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق، ونعتاً من نُعوتِ العبيد.

لم يخلق الله تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجتِه بنفسه دونَ الاستعانة ببعضِ من سخَّرَ له، فأدناهم مسخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السُّوقة في بابٍ، وأحوَجَ السُّوقَةَ إلى الملوك في باب، وكذلك الغنيُّ والفقير، والعبدُ وسيِّدُه.

ثُمَّ جَعلَ الله تعالى كلَّ شيء للإنسان خَوَلاً، وفي يَدِه مُذَلّلاً مُيَسَّراً، إمّا بالاحتِيالِ له والتلطُّفِ في إراغَتِه واستِمالتِه، وإمّا بالصَّوْلَةِ عليه، والفتكِ به،

وإمّا أَنْ يَأْتِيَهُ سهواً ورهواً. على أَنّ الإنسانَ لولا حاجَتُهُ إليها، لما احتالَ لها، ولا صَالَ عليها، إلاَّ أنّ الحاجةَ تفترِق في الجنس والجهةِ والْجِبِلَّة، وفي الحظِّ والتقدير.

ثمَّ تعبَّدَ الإنسانَ بالتفكُّرِ فيها، والنظرِ في أُمورِها، والاعتبارِ بما يَرَى، ووَصَل بينَ عُقولهم وبَيْنَ معرفةِ تلك الحكَم الشريفة، وتلك الحاجاتِ اللازمة، بالنظرِ والتفكير، وبالتنقيب والتنْقير، والتثبت والتوقُّف؛ ووَصَلَ معارفَهم بموَاقعِ حاجاتِهم إليها، وتشاعُرِهم بمواضع الحكم فيها بالبيانِ عنها.

البيان ضروري للاجتماع:

وهو البيانُ الذي جعلَه الله تعالى سبباً فيما بينَهم، ومعبِّراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرِّفاً لمواضع سدِّ الخَلَّة ورفْع الشبهة، ومداواةِ الحَيرة، ولأنّ أكثرَ الناس عن الناس أفهمُ منهم عن الأَشباحِ الماثلة، والأجسامِ الجامدة، والأجرامِ الساكنة، التي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحكمةِ وكُنوزِ الآداب، وينابيعِ العلم، إلاَّ بالعقلِ الثاقب اللطيف، وبالنظرِ التامِّ النافذ، وبالأداةِ الكاملةِ، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتراس من وُجوه الخُدَع، والتحفُّظِ مِن دواعي الهوى؛ ولأنَّ الشَّكْلَ أفهَمُ عن شِكله، وأسكَنُ إليه وأَصَبُّ به، وذلك موجودٌ في أجناسِ البهائم، وضُروبِ السباع.

والصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُ له، وله آلَفُ وإليه أنزعُ، وكذلك العالِمُ والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ وجلّ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، لأنَّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعَه بطِباعه آنس؛ وعلى قدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه.

ثمَّ لم يرضَ لهم من البيان بصِنفٍ واحد، بل جَمع ذلك ولم يفرِّق، وكثَّر ولم يقلِّل، وأظهَرَ ولم يُخْفِ، وجعَل آلة البيانِ التي بها يتعارَفُون

معانِيَهُم، والتَّرْجُمانَ الذي إليه يرجِعون عند اختلافِهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلةٍ خامسة[1]؛ وإن نقصت في بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تُبدَّل بجنسها الذي وُضِعت له وصُرِفتُ إليه.

وهذه الخصال هي: اللفظ، والخطّ، والإشارة، والعَقْد؛ والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صحَّة الدَّلالةِ، وصدقِ الشهادة، ووُضوحِ البرهان في الأَجْرَامِ الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تَتَبيَّن ولا تحسُّ، ولا تَفهَم ولا تتحرَّك إلَّا بداخلٍ يدخل عليها، أو عندَ مُمْسِكٍ خلِّي عنها، بعد أنْ كان تقييده لها.

ثمَّ قسّم الأقسام ورتّب المحسوسات، وحصَّل الموجوداتِ، فجعل اللفظَ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرَكَ الناظرَ واللامس في معرفة العَقْد، إلَّا بما فضّل الله به نصيبَ الناظرِ في ذلك على قدْرِ نصيبِ اللامس. وجَعَلَ الخطَّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازناً لما لا يأمَن نسيانَه، ممَّا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجَمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشامِّ والذائِق نصيباً.

خطوط الهند:

ولولا خطوطُ الهِندِ لضاع من الحساب الكثيرُ والبسيط، ولبطلت مَعرِفةُ التضاعيف، ولعَدِموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات، ولو أدرَكوا ذلك لما أدْرَكُوه إلَّا بعد أَنْ تغلُظَ المَؤُونة، وتنتَقِضَ المُنّةُ، ولصارُوا في حالِ مَعْجَزَةٍ وحسور، وإلى حالِ مَضيعَةٍ وكَلالِ حدّ، مع التشاغُلِ بأمورٍ لولا فقدُ هذه الدَّلالةِ لكان أربحَ لهم، وأرَدَّ عليهم، أن يُصرَف ذلك الشغل في أبوابِ منافع الدين والدنيا.

---

(١) البيان والتبيين ١/٧٦، وهو من كلام الشافعي في تاريخ دمشق ٥١/٣٥٦، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٢.

نفع الحساب:

ونفع الحساب معلوم، والخَلَّةُ في موضع فقدِه معروفة. قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، ثم قال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥]، وبالبَيَانِ عرَفَ الناسُ القرآنَ.

وقال الله تبارَكَ وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، فأجْرَى الحسابَ مُجرَى البيان بالقرآن. وبحُسْبان منازلِ القمر، عرَفنا حالاتِ المدِّ والجزْر، وكيف تكونُ الزيادةُ في الأهِلَّة وأنصافِ الشهور، وكيف يكونُ النقصانُ في خلال ذلك، وكيف تلك المراتبُ وتلك الأقدار.

فضل الكتابة:

ولولا الكتبُ المدوَّنَة والأخبار المخلَّدة، والحكم المخطوطة التي تُحصِّنُ الحسابَ وغيرَ الحساب، لبَطَل أكثر العلم، ولغلَب سُلطانُ النِّسيانِ سلطانَ الذكْر[١]، ولَمَا كان للناس مفزعٌ إلى موضع استذكار، ولو تمَّ ذلك لحُرِمْنا أكثرَ النفع؛ إذ كنَّا قد علمْنا أنَّ مقدار حفْظَ الناس لعواجل حاجاتهم وأوائلِها، لا يَبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً ولا يُغْنِي فيه غَنَاء محموداً.

ولو كُلِّفَ عامّةُ مَن يطلب العلمَ ويصطَنِع الكتب، ألَّا يزال حافظاً لفهرست كتبه لأَعجزه ذلك، ولكلِّفَ شططاً، ولَشَغله ذلك عن كثيرٍ ممّا هو أولى به. وفهمُك لمعاني كلامِ الناس ينقطع قبل انقطاعِ فهْمِ عين الصوتِ

(١) في الفهرست ص ٣٧ رواية شبيهة: قال مهنود: لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين، لانحل مع النسيان عقود الآخرين.

مجرَّداً، وأَبعَدُ فهمِك لصوتِ صاحبك ومُعامِلك والمعاوِنِ لك، ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمَتاً ونداءً خالصاً، ولا يكون ذلك إلاَّ وهو بعيدٌ من المفاهمة، وعُطْلٌ من الدَّلالة. فجعل اللفظُ لأقرَب الحاجاتِ، والصوتُ لأنفَسَ من ذلك قليلاً، والكتابُ للنازح من الحاجاتِ.

فأمّا الإشارة فأقربُ المفهومِ منها: رَفْعُ الحواجبِ، وكسرُ الأجفان، وليُّ الشِّفاهِ، وتحريك الأعناق، وقبْض جلدةِ الوجه؛ وأبعدُها أن تلوي بثوبٍ على مقطع جبل، تُجاهَ عينِ الناظر، ثمَّ ينقطع عملُها ويدرُس أثرها، ويموت ذكرها، ويصير بعدُ كلُّ شيءٍ فضَلَ عن انتهاء مدَى الصوت ومنتهى الطرف إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوطِ والكتب. فأيُّ نفعٍ أعظمُ، وأيُّ مِرْفَقٍ أعوَنُ من الخطِّ، والحالُ فيه كما ذكرنا! وليس للعَقْد حظُّ الإشارةِ في بُعد الغاية.

فضل القلم:

فلذلك وضع الله عزّ وجلّ القلم في المكان الرفيع، ونوَّه بذِكره في المنصِب الشريف حين قال: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١]، فأقسَمَ بالقَلَم كما أقسمَ بما يُخَطُّ بالقلم، إذ كان اللسانُ لا يتعاطى شأوَه، ولا يشُقُّ غبارَه، ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بُعْدَ غايتِه.

لكنْ لما أَنْ كانت حاجات الناسِ بالحَضْرة أكثرَ مِنْ حاجاتهم في سائر الأماكن، وكانت الحاجَةُ إلى بيانِ اللسَانِ حاجةٌ دائمة واكدة، وراهِنةً ثابتة، وكانت الحاجةُ إلى بَيانِ القلم أمراً يكونُ في الغَيبة وعند النائبة، إلاَّ ما خُصَّت به الدواوين، فإنّ لسانَ القلم هناك أبسَطُ، وأثرَهُ أعَمُّ، فلذلك قدَّموا اللسانَ على القلم: فاللسانُ الآن إنَّما هو في منافع اليدِ والمرافق التي فيها، والحاجاتِ التي تبلُغها.

فضل الكتاب:

والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدِّين، وحسابَ الدواوين. مع خفَّة نقلِه، وصغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغُ ما استنطقته. ومَن[1] لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحْوِجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه. ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبّاً، ووروده خِمْساً، وإن شئت لَزِمَك لزومَ ظلِّك، وكان منك مكانَ بعضِك.

والقلمُ مكتفٍ بنفْسه، لا يحتاج إلى ما عندَ غيرِه؛ ولا بدَّ لبيان اللسانِ من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارةُ لَمَا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل في باب العامّ، إلاَّ أنّه أدنى طبقاته، وليس يكتفى خاصُّ الخاصّ باللفظ عمَّا أدّاه، كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصِّ الخاصّ.

والكتابُ هو الجليس الذي لا يُطريك[2]، والصديق الذي لا يغْريك، والرفيقُ الذي لا يمَلُّكَ، والمستَمِيح الذي لا يستَريثُك، والجارُ الذي

---

(١) في الفهرست ص ٣٨، ونقل عنه طراز المجالس ص ٢٦٥ قال: قال أحمد بن إسماعيل المعروف بنطّاحة: هو المسامر الذي لا يبتدئك في حال شغلك، ولا يدعوك في وقت نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له، والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرَفيق الذي لا يَمَلُّك، والناصح الذي لا يستزيدك.

(٢) في الفخري ص ٦ رواية، قال: قالوا: إنَّ الكِتَابَ هُوَ الجَلِيسُ الَّذِي لا يُنَافِقُ، وَلا يَمَلُّ، وَلا يُعَاتِبُكَ إذا جَفَوْتَهُ، وَلا يُفْشِي سِرَّك.
وفي المصادر الحديثة جعلته من قول محمد بن علي ابن الطقطقي. معجم حكمة العرب ص ٣٣٩، وكنوز الحكمة ص ٥٤٩، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥١١، وقاموس الحكم ص ٥٠٩.

لا يَسْتَبْطيك، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندَك بالمَلَق، ولا يعامِلُك بالمَكر، ولا يخدَعك بالنِّفاق، ولا يحتالُ لك بالكَذِب.

والكتابُ هو الذي إنْ نظرتَ فيه أطال إمتَاعَك، وشحَذَ طباعَك، وبسَط لسانَك، وجوَّدَ بَنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح نفسَك، وَعمَّر صدرك، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقَةَ الملوك، وعَرفتَ به في شهر ما لا تعرفُه من أفواهِ الرجال في دهْر، مع السلامةِ من الغُرم، ومن كدِّ الطلب، ومن الوقوفِ بباب المكتسِب بالتعليم، ومِن الجُلوس بين يدَيْ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقاً، وأكرمُ منه عِرْقاً، ومع السلامةِ من مجالَسَة الْبُغَضاء ومقارنةِ الأغبياء.

والكتابُ هو الذي يُطِيعُك بالليل كطاعتِه بالنهار، ويطيعُك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلُّ بنومٍ، ولا يعترِيه كَلالُ السهرِ. وهو المعلِّمُ الذي إن افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْك، وإن قطعتَ عنه المادَّة لم يقطعْ عنك الفائدة، وإن عُزِلتَ لم يدَعْ طاعتَك، وإن هبَّتْ ريحُ أعادِيك لم ينقلبْ عليك[1]، ومتى كنتَ منه متعلِّقاً بسبب أو معتصماً بأدْنى حبْل، كان لك فيه غنًى من غيره، ولم تَضْطَرَّك معه وحشةُ الوَحدةِ إلى جليس السوء.

ولو لم يكن مِن فضْله عليك، وإحسانِه إليك، إلاَّ منعُه لكَ من الجلوس على بابك، والنظرِ إلى المارَّةِ بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوقِ التي تَلزَم، ومن فُضولِ النظَر، ومن عادةِ الخوض فيما لا يعنيك، ومِن ملابسةِ صغارِ الناس، وحضورِ ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسِدة، وأخلاقهم الرديَّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ثم الغنيمةُ، وإحرازُ الأصل، مع استفادةِ الفرع.

---

(١) زاد في اللطائف والظرائف ص ٦٥: «وإن قلَّ مالك لم يترك زيارتك».

ولو لم يكن في ذلك إلاَّ أنّه يشغَلُك عن سُخْف المُنَى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلِّ ما أشبهَ اللعب، لقد كان على صاحبه أسبَغَ النعمة وأعظَمَ المِنَّة[١].

وقد علمنا أنَّ أفضل ما يقطع به الفُرَّاغ نهارَهم، وأصحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلِهم، الكتاب. وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النيل أثرٌ في ازدِياد تجربةٍ ولا عقلٍ ولا مروءة، ولا في صونِ عرض، ولا في إصلاحِ دِين، ولا في تثمير مال، ولا في رَبِّ صنيعة، ولا في ابتداء إنعام.

أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب:

وقال أبو عبيدة: قال المهلَّب لبنِيه في وصيَّتِه: يا بَنِيَّ لا تقُوموا في الأسواقِ إلاَّ على زَرَّادٍ أو وَرَّاق[٢].

وحدَّثني صديقٌ لي قال: قرأتُ على شيخٍ شاميٍّ كتاباً فيه مِن مآثر غطفان فقال: ذهبَ المكارمُ إلاَّ من الكتب[٣].

---

(١) في ربيع الأبرار ٣/ ٢٣٥ زيادة، قال: ولعهدي بي وقد خرجت من الدار، وذلك في عصر الشيبة، فلقيني أعرابي كانت به لوثة، فشغلني ببعض الحديث، وقد حانت من بعض شيوخي حاجة إلى حضوري فلم أصادف، فلما حضرته سألني عن سبب لبثي، ثم قال: العجب ممن يؤثر على مجالسات هؤلاء ــ وعدَّد جماعة من كبار المصنفين ــ مجالسة مجنون. وصحيح ما قال؛ فإن مطالعة كتبهم هي مجالستهم على الحقيقة.

(٢) ورد في الفخري ص ٦، والعقد الفريد ٢/ ٢١٠، و ٤/ ١٩٩، ونظمه بعضهم في تقييد العلم ص ١٢٥، وخطط المقريزي ٢/ ٤٧٣.

مجالسة السوق مذمومة ... وفيها مجالس قد تستحب
فلا تقصدن غير سوق الدواب ... وسوق السلاح وسوق الكتب
فتلك مجالس أهل الهوى ... وهذي مجالس أهل الأدب

(٣) المحاسن والأضداد ص ٦، والمحاسن والمساوىء ص ١١، واللطائف =

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول: غَبرت أربعين عاماً ما قِلْتُ ولا بِتُّ ولا اتكأت إلاَّ والكتابُ موضوعٌ على صدري[١].

وقال علي بن الجهْم[٢]: إذا غشِيَني النعاس في غير وقتِ نوم ــ وبئس الشيءُ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة ــ قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتاباً من كتب الحِكَم، فأجدُ اهتزازي للفوائِد، والأريحيَّة التي تعتريني عند الظفَر ببعض الحاجة، والذي يغشَى قلْبي من سرور الاستبانة وعزِّ التبيين أشدُّ إيقاظاً مِن نَهيق الحمير وهَدَّةِ الهدْم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتُه، ورجوتُ منه الفائدة ورأيتُ ذلك فيه ــ فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم بقي من ورقِهِ مخافةَ استنفاده، وانقطاعِ المادَّة من قِبَلِهِ، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثير الورق، كثير العددَ ــ فقد تَمَّ عيشي وكَمُل سروري.

وذكر العتبي[٣] كتاباً لبعض القدماء فقال: لولا طولُه وكثرةُ ورقه لنسختُه. فقال ابن الجهم: لكنِّي ما رغَّبني فيه إلاَّ الذي زهَّدك فيه؛ وما قرأتُ قطُّ كتاباً كبيراً فأخْلاني من فائدة، وما أُحصِي كم قرأتُ من صغارِ الكتب فخرجتُ منها كما دخلت.

وقال العتبي ذاتَ يومٍ لابن الجهم: ألا تتعجَّبُ من فلانٍ!! نظَر في

= والظرائف ص ٦٦، وربيع الأبرار ٣/ ٦٨٠، والغيث المسجم ١/ ١٢، وقطر الغيث ص ٦.

(١) اللطائف والظرائف ص ٦٦، وجامع بيان العلم ص ٥٨٣، ومطالع البدور ٢/ ١٧٤، وكنوز الحكمة ص ٤٦٠، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٩.

(٢) المحاسن والأضداد ص ٥، والمحاسن والمساوىء ص ١٤، وموسوعة الكنايات ٢/ ٩١.

(٣) وهو محمد بن عبد الله، وورد في المحاسن والمساوىء ص ١٤.

كتابِ الإِقليدس مع جارية سَلْمَويه في يومٍ واحد، وساعة واحدة، فقد فرغتِ الجاريةُ من الكتابِ، وهو بعدُ لم يُحكِم مقالةً واحدة، على أنّه حُرٌّ مخيَّر، وتلك أمَةٌ مقصورة، وهو أحرصُ على قراءةِ الكتاب مِن سَلْمَوَيهِ على تعليمِ جارية.

قال ابن الجهم: قد كنت أظنُّ أنّه لم يفهم منه شكلاً واحداً، وأُرَاكَ تَزعم أنّه قد فرغ من مقالة!!

قال العتبـي: وكيف ظننتَ به هذا الظنَّ، وهو رجلٌ ذو لسانٍ وأدب؟

قال: لأنِّي سمعتُه يقول لابنِه: كم أنفقتَ على كتابِ كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا، قال: إنَّما رَغّبَني في العلم أنّي ظننتُ أنّي أنفق عليه قليلاً وأكتسِب كثيراً، فأمّا إذ صرتُ أنفِق الكثيرَ، وليس في يدي إلاَّ المواعيدُ، فإنِّي لا أريد العلمَ بشيء!!

السماع والكتابة:

فالإِنسان لا يعلمُ حتى يكثُرَ سماعُه، ولا بُدَّ من أن تكون كتبُه أكثرَ من سَمَاعِه. ولا يعلمُ، ولا يجمع العلم، ولا يُخْتَلَف إليه، حتى يكون الإِنفاقُ عليه من ماله ألذَّ عندَه من الإِنفاق من مال عدوِّه. ومَن لم تكن نفقتُه التي تخرج في الكتب ألذَّ عنده مِن إنفاق عُشَّاق القيان، والمستهتَرين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيّاً. وليس يَنتفِـع بإنفاقه، حتَّى يؤْثِر اتِّخاذَ الكتبِ إيثارَ الأعرابـي فرسَه باللبن على عياله، وحتَّى يؤَمِّل في العلم ما يؤَمِّلُ الأعرابـي في فرسه.

حرص الزنادقة على تحسين كتبهم:

وقال إبراهيم بن السنديّ مرة: ودِدْتُ أنَّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيِّ الأبيض، وعلى تخيُّر الحبرِ الأسودِ المشرِق

البرَّاق، وعلى استجادةِ الخطِّ والإرغاب لمن يخطّ، فإنِّي لم أَرَ كورَق كتبِهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطّاً، وإذا غرِمتُ مالاً عظيماً ــ مع حبِّي للمال وبُغْضِ الْغُرْم ــ كان سخاءُ النفس بالإنفاق على الكتب دليلاً على تعظيمِ العلمِ، وتعظيمُ العلم دليل على شرف النفس، وعلى السلامَة من سُكْر الآفات.

قلت لإبراهيم: إنَّ إنفاقَ الزنادقةِ على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البِيَع، ولو كانت كتبُ الزنادقةِ كتبَ حكمٍ وكتبَ فلسفة، وكتبَ مقاييسَ وسُنَنٍ وتبيُّنٍ وتبيين، أو لو كانت كتُبهم كُتباً تُعرِّف الناسَ أبوابَ الصِّناعات، أو سُبُلَ التكسُّب والتجارات، أو كتبَ ارتفاقاتٍ ورياضاتٍ، أو بعض ما يتعاطاه الناسُ من الفطن والآداب ــ وإنْ كان ذلك لا يقرِّب من غِنًى ولا يُبْعِد من مأثَم ــ لكانوا ممَّن قد يجوز أن يُظَنَّ بهم تعظيمُ البيان، والرغبةُ في التبيُّن، ولكنَّهم ذهبوا فيها مذهبَ الدِّيانة، وعلى طريقِ تعظيم المِلّة، فإنّما إنفاقهم في ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاقِ النصارَى على صُلْبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سَدَنةِ البِدَدَة.

ولو كانوا أرادوا العلمَ لكان العلمُ لهم مُعرَضاً، وكتبُ الحكمة لهم مبذولةً، والطرقُ إليها سهْلةً معروفة، فما بالُهُم لا يصنعون ذلك إلاَّ بكتُب دياناتهم، كما يزخرفُ النصارى بيوتَ عباداتهم! ولو كان هذا المعنى مستحسَناً عند المسلمين، أو كانوا يرون أنّ ذلك داعيةٌ إلى العبادة، وباعثةٌ على الخُشوع، لبلَغُوا في ذلك بعَفْوهم، ما لا تبلُغُه النصارى بغاية الجَهْد.

مسجد دمشق:

وقد رأيتُ مسجدَ دِمَشْق، حين استجاز هذا السبيل مِلِكٌ من ملوكها، ومَنْ رآه فقد علم أنّ أحداً لا يرومه، وأنَّ الرُّومَ لا تسخوا أنفُسهم به، فلمَّا قام عمرُ بنُ عبد العزيز، جَلَّله بالجِلال، وغَطَّاه بالكرابيس، وطبَخَ سلاسلَ القناديلِ حتَّى ذهب عنها ذلك التلألُؤُ والبريق؛ وذهب إلى أنّ ذلك الصنيعَ

مجانِبٌ لسنَّة الإِسلام، وأنَّ ذلك الحُسنَ الرائعَ والمحاسنَ الدِّقاق، مَذهَلةٌ للقلوب، وَمشغَلةٌ دونَ الخشوع، وأنّ البالَ لا يكون مجتمِعاً وهناك شيء يفرِّقه ويعترض عليه.

صفة كتب الزنادقة:

والذي يدلُّ على ما قلنا، أنّه ليس في كتبهم مثلٌ سائر، ولا خبرٌ طَريف، ولا صنعةُ أدبٍ، ولا حكمةٌ غرِيبة، ولا فلسفةٌ، ولا مسألةٌ كلاميَّة، ولا تعريفُ صِناعة، ولا استخراجُ آلة، ولا تعليمُ فِلاحةٍ، ولا تدبير حرب، ولا مقارَعة عن دِين، ولا مناضَلة عن نِحْلة، وجُلُّ ما فيها ذِكر النور والظلمة، وتناكُح الشياطين، وتسافُدُ العفاريت، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود السنخ، والإِخبار عن شقلون، وعن الهامة والهمامة، وكلُّه هَذْرٌ وعِيٌّ وخُرافة، وسُخْريَة وتكذُّب، لا ترى فيه موعظةً حسنة، ولا حديثاً مُونِقاً، ولا تدبيرَ مَعاشٍ، ولا سياسةَ عامة، ولا ترتيبَ خاصَّة.

فأيُّ كتابٍ أجهلُ، وأيُّ تدبيرٍ أفسدُ من كتابٍ يوجب على الناس الإِطاعة، والبخوع بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبَّة، وليس فيه صلاحُ مَعاشٍ ولا تصحيحُ دين!؟

والناسُ لا يحبُّون إلاَّ ديناً أو دنيا: فأمَّا الدنيا فإقامةُ سوقها وإحضار نفعها، وأما الدِّين فأقلُّ ما يُطمع في استجابة العامة، واستمالة الخاصَّة، أنْ يصوَّر في صورةٍ مغلّطة، ويموَّهَ تمويهَ الدِّينار الْبَهْرَج، والدرهم الزائف الذي لا يغلط فيه الكثير، ويعرفُ حقيقه القليل. فليس إنفاقُهم علَيها من حيثُ ظننت. وكلُّ دين يكون أظهر ٱختلافاً وأكثرَ فساداً، يحتاج من الترقيع والتمويه، ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه إلى أكثر. وقد علمْنا أن النصرانيَّةَ أشدُّ انتشاراً من اليهوديَّة تعبُّداً، فعلى حسب ذلك يكون تزيُّدُهم في توكِيده، واحتفالُهم في إظهار تعليمه.

فضل التعلم:

وقال بعضهم: كنتُ عند بعضِ العلماء، فكنتُ أكتب عنه بعضاً وأدَعُ بعضاً، فقال لي: اكتبُ كلَّ ما تسمعُ، فإن أخسَّ ما تسمعُ خيرٌ من مكانه أبيض.

وقال الخليل بن أحمد[1]: تكثَّرْ من العلم لتعرِف، وتقلَّلْ منه لتحفَظ.

وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليلُ وحدَه للصدر. وأنشَد قول محمد بن يسير الرياشي[2]:

أمـا لـو أعِـيْ كـلَّ مـا أسمـع ... وأحفَـظ مـنْ ذاك مـا أجمـع

ولـم أستفِـدْ غيـر مـا قـد جمعـ ... ـتُ لقيـل هـو العـالـمُ المَقْنَـع

ولكـنّ نفسـي إلـى كـلّ نَـوْع ... مـن العلـم تَسمعـه تَنْـزِعُ

فـلا أنـا أحفـظ مـا قـد جمعـتُ ... ولا أنـا مـن جمعـه أشبَـع

وأَحْضُـر بـالعِـيّ فـي مجلـس ... وعلمـيَ فـي الكُتْـب مستـودَع

فمـن يـك فـي علمـه هكـذا ... يكـن دهـرَه القهقَـرَى يَـرْجِـع

«يَضيـعُ مـن المـال مـا قـد جمعـ ... ـتَ وعلمُك في الكتب مسْتودع»

إذا لـم تكـن حـافظـاً واعيـاً ... فجمعـك للكتـب مـا يَنْفَـعُ

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٥٨، وجامع بيان العلم ص ٢٠٦.

(٢) الأبيات كلّها في المحاسن والأضداد ص ٢٢٥، وعزاها للأصمعي وهو غريب، وهي للشاعر في روضة العقلاء ص ٣٥٤، والمحدث الفاصل ص ٣٨٧، والحث على طلب العلم ص ٧٢، وتحسين القبيح ص ٨٣، وجامع بيان العلم ص ١١٥، والجامع في الحث على طلب العلم ص ٦٢، والجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٣٧٦، وسمط اللآلىء ١/ ٥١٤، ومحاضرات الأدباء ١/ ١١٨، وأنوار الربيع ١/ ١٠. ودون نسبة في المحاسن والمساوىء ص ١٥، ومحاضرة الأبرار ١/ ١٠، وعرف البشام ص ١٥، وانفرد بزيادة البيت السابع: المحاسن والأضداد، ومحاضرة الأبرار.

التخصص بضروب من العلم:

وقال أبو إسحاق[1]: كلَّفَ ابنُ يسيرٍ الكتبَ ما ليس عليها. إن الكتبَ لا تحيي الموتَى، ولا تحوِّل الأحمقَ عاقلاً، ولا البليد ذكِيّاً، ولكنَّ الطبيعةَ إذا كان فيها أدنى قَبُول، فالكتبُ تشحَذُ وتَفتِقْ، وتُرهِف وتَشفي.

ومن أرادَ أن يعلمَ كلَّ شيء، فينبغي لأهلِهِ أن يداووه! فإنّ ذلك إنما تصوَّرَ له بشيءٍ اعتراه!!

فَمنْ كان ذكيًّا حافظاً فليقصِد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزِع عن الدرس والمطارَحَة، ولا يدعُ أن يمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدَر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواصّ، ويكون غيرَ غفلٍ من سائرِ ما يجري فيه الناسُ ويخوضون فيه.

ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً إلاَّ نسيَ ما هو أكثرُ منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.

جمع الكتب:

وحدَّثني موسى بنُ يحيى قال: ما كان في خِزانةِ كتبِ يحيى، وفي بيت مدراسه كتابٌ إلاَّ وله ثلاثُ نسخ.

وقال أبو عمرو بنُ العَلاء[2]: ما دخلتُ على رجل قطُّ ولا مررتُ ببابه، فرأيتُه ينظرُ في دفترٍ وجليسُه فارغُ اليد، إلاَّ اعتقدتُ أنَّه أفضلُ منه وأعقل.

وقال أبو عمرو بن العلاء: قِيل لنا يوماً: إنّ في دار فلانٍ ناساً قد

---

(١) هو إبراهيم بن سيّار البلخي المعروف بالنّظام، وورد قوله في الحث على طلب العلم ص ٧٢.

(٢) جامع بيان العلم ص ٥٨٣، ومحاضرات الأدباء ١/١١٨.

اجتمعوا على سَوءة، وهم جُلوسٌ على خميرة لهم، وعندهم طُنبُورٌ. فتسوَّرنا عليهمْ في جماعةٍ من رجالِ الحيِّ، فإذا فتًى جالسٌ في وسط الدار، وأصحابُه حوله، وإذا همْ بِيضُ اللِّحَى، وإذا هو يقرأ عليهم دفتراً فيه شعر. فقال الذي سعى بهم: السَّوءة في ذلك البيت، وإنْ دخلتموه عثَرتم عليها!

فقلت: والله لا أكشفُ فتى أصحابُه شيوخ، وفي يده دفترُ علم، ولو كان في ثوبه دمُ يحيى بنِ زكريَّاء!!

وأنشد رجلٌ يُونسَ النحويَّ[1]:

استودَعَ العلمَ قرطاساً فضيّعَه فَبِئْسَ مستودَعُ العلمِ القراطيسُ

قال: فقال يونس: قاتَلَه الله، ما أشدَّ ضَنانَتَه بالعلم، وأحسنَ صِيانته له، إنَّ علمَك مِن روحِك، ومالَكَ مِن بدنك، فضعْه منكَ بمكان الرُّوح، وضعْ مالَكَ بمكان البدن!!

وقيل لابن داحة[2] ـ وأخرجَ كتابَ أبي الشمقمق، وإذا هو في جلود كوفيَّة، ودَفَّتَين طائفيّتَين، بخطٍّ عجيب ـ فقيل له: لقد أُضيع من تجوَّدَ بشعر أبي الشمَقْمق! فقال: لا جرم والله!! إنَّ العلم ليُعطيكم على حسابِ ما تعطونه، ولو استطعتُ أن أودِعَه سُويداءَ قلبي، أو أجعلَه محفوظاً على ناظري، لفعلت.

---

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٢١، وآمالي القالي ١/ ٢٢٣، والمحدث الفاصل ص ٣٨٧، وفيه: «تمثّل به الأعمش أو قاله»، وفي ديوان المعاني ص ١٧٢ دون نسبة، وهو في تحسين القبيح ص ٨٤، واللطائف والظرائف ص ٦٨، وجامع بيان العلم ص ١١٦، وسمط اللآلىء ١/ ٥١٤، وأنوار الربيع ٢/ ٣٨٩، والحث على طلب العلم ص ٧٣ والرواية فيه: فَصُنْهُما على قَدْرِ هَذيْن مِنْكَ.

(٢) المحاسن والمساوىء ص ١٤، ومحاضرات الأدباء ١/ ١١٧، وربيع الأبرار ٣/ ٢٣٥، وأبو الشمقمق هو مروان بن محمد.

[1]ولقد دخلت على إسحاقَ بن سليمان في إمْرته، فرأيتُ السِّماطَين والرجالَ مُثُولاً كأَنَّ على رؤوسهم الطير، ورأيتُ فِرْشَتَه وبِزَّته؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيتِ كتبِه، وحواليه الأسفاط والرُّقوق، والقماطِرُ والدفاتِر والمَساطر والمحابر، فما رأيتُه قطُّ أفخمَ ولا أنبلَ، ولا أهيبَ ولا أجزَل منهُ في ذلك اليوم؛ لأنَّه جمعَ مع المهابَة المحبَّة، ومع الفَخامة الحَلاوة، ومع السُّؤدَد الحِكْمة.

وقال ابن داحة: كان عبدُ الله بنُ عبدِ العزيز بن عبد اللَّهِ بن عمر بن الخطّاب العُمريُّ الزّاهد[2] لا يجالِسُ الناسَ، وينزلُ مَقْبرَةً من المقابر، وكان لا يكادُ يُرى إلاَّ وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسُئِل عن ذلك، وعن نزولِه المقبرة فقال: لم أرَ أَوْعظَ من قبر، ولا أمتَع من كتاب، ولا أسلَمَ من الوَحدة. فقيل له: قد جاء في الوَحدة ما جاء! فقال: ما أفسَدَها للجاهِل وأصلحها للعاقل!

---

(١) الفخري ص ٦.

(٢) المحاسن والأضداد ص ٦، والعزلة والإنفراد ص ٩٤، والعقد الفريد ٢/ ٢١٠، والمجالسة ٥/ ٨١ و ٧/ ١٤٣، ومروج الذهب ٢/ ٦٨، والمحاسن والمساوىء ص ١٤، وتهذيب الأسرار ص ٤٠٧، وحلية الأولياء ٨/ ٢٨٣، وتقييد العلم ص ١٤٢، وجامع بيان العلم ص ٥٨٣، ومحاضرات الأدباء ١/ ١١٨، وربيع الأبرار ١/ ٧٦٩، والتذكرة الحمدونية ١/ ١٩٢، وتاريخ دمشق ٣١/ ٢٢٠، وصفة الصفوة ٢/ ١٨١، وسلوة الأحزان ص ٤٥، ومحاضرة الأبرار ١/ ٨، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٢١٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٥، وأهوال القبور ص ٢٢٧، والكشكول ١/ ٥، وموسوعة الكنايات ٢/ ٩١، وبلا عزو في العزلة ص ٩٠، ومحاسن الوسائل ص ١، ومنسوب لحكيم في الغنية ١/ ١٧٣، وأورد ابن الجوزي في سلوة الأحزان ص ٤٥ نحوه عن جعفر الصادق، وجاء الجزء الأخير من الخبر عن العزلة للخليل بن أحمد في عيون الأخبار ٢/ ١٣٠.

ضروب من الخطوط:

وضروبٌ من الخطوطِ بعد ذلك، تدلُّ على قدرِ منفَعَة الخطِّ. قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١١، ١٢]، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ [عبس: ١٣ ــ ١٥]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧﴾ [الانشقاق: ٧]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠﴾ [الانشقاق: ١٠]، وقال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٤].

ولو لم تكتب أعمالُهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظَ نِسيانٌ، ولكنَّه تعالى وعزَّ، علم أنّ كتابَ المحفوظِ ونسخَه أوكَدُ وأبلغُ في الإنذار والتحذير، وأهيبُ في الصدور.

الكتابات القديمة:

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخِلْقة مُرَكَّبةً في البُنْيان، فربَّما كان الكتابُ هو الناتِىء، وربَّما كان الكتابُ هو الحفر، إذا كان تأريخاً لأمر جَسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو مَوعظةً يُرتَجى نفعُها، أو إحياءَ شرفٍ يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا على قُبَّة غُمْدَان، وعلى باب القَيرُوان، وعلى باب سَمَرْقَند، وعلى عمود مأرِب، وعلى ركن المشقَّر، وعلى الأبلَق الْفَرْد، وعلى باب الرها؛ يعمِدون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخطَّ في أبعدِ المواضع من الدُّثور، وأمنَعِها من الدروس، وأجدرَ أَنْ يراها من مرَّ بها، ولا تُنسى على وجه الدهر.

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالفات:

وأقول: لولا الخطوطُ لبَطَلت العهودُ والشروطُ والسِّجلاَّتُ والصِّكاك، وكلُّ إقطاعٍ، وكلُّ إنفاق، وكلُّ أمان، وكلُّ عهدٍ وعَقْدٍ، وكلُّ

جِوارٍ وحِلف؛ ولِتعظيمِ ذلك، والثقةِ به والاستنادِ إليه، كانوا يَدْعُونَ في الجاهليَّةِ مَنْ يكتبُ لهم ذكرَ الحِلْف والهُدْنة؛ تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان، ولذلك قال الحارثُ بن حِلِّزة، في شأن بكرٍ وتغلب:

واذكُروا حِلْفَ ذِي المَجَاز وما قُـ ـدِّمَ فيه العهودُ والكفلاءُ
حَذَرَ الجَورِ والتَّعدِّي، وهل يَنْـ ـقُضُ ما في المَهارِقِ الأهواءُ!

والمهارق، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب، ولا يقال للكتب مَهارقُ حتّى تكونَ كتبَ دينٍ، أو كتبَ عهودٍ، ومِيثاقٍ، وأمان.

الرقوم والخطوط:

وليس بين الرُّقومِ والخطوط فَرق، ولولا الرقوم لهلكَ أصحابُ البَزِّ والغُزول، وأصحابُ الساجِ وعامَّةِ المتاجر، وليسَ بينَ الوُسومِ التي تكون على الحافر كلِّه والخفِّ كلِّه والظِّلفِ كلِّه، وبين الرقومِ فرق، ولا بينَ العقودِ والرقوم فرق، ولا بين الخطوط والرقوم كلِّها فرق، وكلُّها خطوط، وكلها كتابٌ، أو في معنى الخطِّ والكتاب، ولا بين الحروف المجموعةِ والمصوَّرَةِ من الصوت المقطَّع في الهواء، ومن الحروف المجموعة المصوَّرة من السواد في القرطاس فرق.

واللسان يصنَع في جَوبة الفمِ وهوائه الذي في جوف الفم وفي خارجه، وفي لَهاته، وباطن أسنانه، مِثْلَ ما يصنع القلمُ في المدادِ واللِّيقةِ والهواء والقرطاس، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل، ودَلالات، فيعرف منها ما كانَ في تلك الصُّوَر لكثرةِ تَردادها على الأسماع، ويعرف منها ما كانَ مصوَّراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار، كما استدَلُّوا بالضَّحك على السرور، وبالبكاء على الألم.

وعلى مثلِ ذلكَ عرفوا معانيَ الصوتِ، وضروبَ صورِ الإشارات، وصورِ جميع الهيئات، وكما عرف المجنون لقبَه، والكلبُ اسمَه. وعلى مثل

ذلك فهِم الصبيُّ الزجرَ والإغراء، ووعى المجنون الوعيد والتهدُّد، وبمثل ذلك اشتدَّ حُضْرُ الدابّة مع رفع الصوت، حتّى إذا رأى سائسَه حمحم. وإذا رأى الحمامُ القيِّمَ عليه انحطَّ للقطِ الحبّ، قبل أن يُلقِيَ له ما يلقطه.

ولولا الوسومُ ونُقُوش الخواتم، لدخل على الأموالِ الخللُ الكثير، وعلى خزائنِ الناس الضررُ الشديد.

الخط والحضارة:

وليس في الأرض أمّةٌ بها طِرْق أَوْ لها مُسْكَة، ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسْط، إلاَّ ولهم خطّ. فأمّا أصحاب الملك والمملكة، والسلطانِ والجِباية، والدِّيانة والعبادة، فهناك الكتابُ المتقَن، والحساب المحكم، ولا يخرج الخطُّ من الجزْم والمسنَد المنمنم والسمون كيف كان، قال ذلك الهيثمُ ابن عدي، وآبنُ الكلبي.

تخليد الأمم لمآثرها:

قال: فكلُّ أمّة تعتمدُ في استبقاء مآثِرها، وتحصين مناقبها، على ضربٍ من الضروب، وشكل من الأشكال.

تخليد العرب لمآثرها:

وكانت العربُ في جاهليّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها، وعلى أنّ الشعرَ يُفيد فضيلةَ البيانِ على الشاعر الراغبِ، والمادح، وفضيلةَ المأثُرة على السيِّد المرغوبِ إليه، والممدوحِ به.

وذهبت العجَم عَلَى أن تقيِّد مآثِرَها بالبُنيان، فبنوا مثلَ كرد بيداذ، وبنى أرْدشير بيضاء إصطَخْر، وبيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواويس.

قال: ثمَّ إنّ العربَ أحبَّتْ أن تشاركَ العجمَ في البناء، وتنفردَ بالشعر، فبنوا غُمدان، وكعبةَ نَجْرَان، وقصرَ مارد، وقصر مأرِب، وقصر شعوب، والأبلق الفرد؛ وفيه وفي مارد قالوا: «تَمَرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأبلق» وغيرَ ذلك من البُنيان.

قال: ولذلك لم تكن الفرسُ تبيح شريفَ البُنيان، كما لا تبيح شريف الأسماء، إلاَّ لأهل البيوتات، كصنيعهم في النواويس والحمَّامات والقِباب الخضر، والشُّرَف على حيطان الدار، وكالعَقْد على الدِّهليز وما أشبه ذلك.

فقال بعض من حضر: «كُتُبُ الحكماء ومَا دَوَّنت العلماءُ من صنوف البلاغات والصِّناعات، والآداب والأرفاق، من القرون السابقة والأمم الخالية، ومن له بقيَّة ومن لا بقيّة له، أبقى ذكراً وأرفعُ قدراً وأكثر ردًّا، لأنَّ الحكمةَ أنفعُ لمن ورثها، من جهة الانتفاع بها، وأحسنُ في الأحدوثة، لمن أحبَّ الذكر الجميل».

طمس الملوك والأمراء آثار من سبقهم:

والكتبُ بذلك أولَى من بُنيان الحجارة وحِيطان المدَر؛ لأنَّ من شأن الملوك أنْ يطمِسوا على آثارِ مَن قبلَهُم، وأن يُميتوا ذكرَ أعدائهم، فقد هدَموا بذلك السببِ أكثرَ المدنِ وأكثرَ الحصون، كذلك كانوا أيَّامَ العجَم وأيَّامَ الجاهليّة، وعلى ذلك همْ في أيّام الإسلام؛ كما هدم عُثمانُ صومعةَ غُمدان، وكما هدمَ الآطامَ التي كانت بالمدينة، وكما هدم زيادٌ كلَّ قصر ومصنَع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابُنا بناءَ مدن الشامات لبني مروان.

صعوبة ترجمة الشعر العربي:

وقد نُقِلَتْ كتبُ الهند، وتُرجمت حكمُ اليونانيّة، وحُوِّلت آدابُ الفرس؛ فبعضُها ازدادَ حُسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن؛ مع أنَّهم لو حوَّلوها لم يجدوا

في معانيها شيئاً لم تذكرْه العجم في كتبهم، التي وضعت لمعاشهم وفِطَنهم وحِكَمهم.

وقد نُقِلَتْ هذه الكتبُ من أمَّةٍ إلى أمّة، ومن قرن إلى قرن، ومِن لسانٍ إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنَّا آخرَ مَنْ ورِثها ونظَر فيها. فقد صحَّ أَنَّ الكتبَ أبلغُ في تقييدِ المآثِر من البُنيان والشعر.

مشقة تصحيح الكتب:

ولربّما أراد مؤلِّف الكتاب أن يصلح تصحيفاً، أو كلمةً ساقطة، فيكون إنشاء عشرِ ورقاتٍ من حرِّ اللفظ وشريفِ المعاني؛ أيسَرَ عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردَّه إلى موضعه من اتِّصال الكلام؛ فكيف يُطيق ذلك المعارض المستأجَر؟ والحكيمُ نفسهُ قد أعجزه هذا الباب!

وأعجب من ذلك أنَّه يأخذ بأمرَين: قد أصلحَ الفاسدَ وزاد الصالحَ صَلاحاً. ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخةً لإنسانٍ آخَر، فيسير فيه الورَّاقُ الثاني سيرةَ الوَرَّاق الأوَّل. ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدي الجانية، والأعْرَاض المفسِدة، حتَّى يصير غَلَطاً صِرفاً، وكذِباً مُصْمَتاً، فما ظنُّكم بكتابٍ تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخُطَّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتاب متقادِم الميلاد، دُهْرِيّ الصنعة!

الترغيب في اصطناع الكتاب:

ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاجِ على مَنْ زَرَى على واضِع الكتب، فأقول: إنّ من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومَرَاشِدِهم، ومضارِّهم ومنافِعهم، أن يُحْتَمَلَ ثِقْلُ مؤونتهم في تقويمهم، وأن يُتَوَخَّى إرشادُهم وإن جهِلوا فضلَ ما يُسْدَى إليهم، فلن يُصَانَ العلمُ بمثل بذْله، ولن تُستَبقى النعمةُ فيه بمثل نشره.

على أَنَّ قراءةَ الكتبِ أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم؛ إذ كان مع التّلاقي يشتدُّ التصنُّع، ويكثُر التظالُم، وتُفرط العصبيّة، وتقوَى الحَمِيَّة؛ وعند المواجَهةِ والمقابلَة، يشتدُّ حبُّ الغلَبة، وشهوةُ المباهاةِ والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفةِ من الخضوع؛ وعن جميعِ ذلك تحدُث الضغائن، ويظهرُ التباين.

وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفةِ وعلى هذه الهيئة، امتنعتْ من التعرُّف، وعمِيت عن مواضع الدلالة، وليست في الكتب عِلَّةٌ تمنَع من دَرْك البُغْية، وإصابة الحجَّة؛ لأنَّ المتوحِّد بِدَرْسها، والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسَه ولا يغالب عقلَه، وقد عَدِم مَنْ له يُباهي وَمِنْ أجله يغالب.

الكتاب قد يفضل صاحبه:

والكتابُ قد يفضُل صاحبَه، ويتقدَّم مؤلِّفَه، ويرجِّح قلمَه على لسانِه بأمور: منها أنّ الكتابَ[1] يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهرُ ما فيه على كلِّ لسان، ويُوجَد مع كلِّ زمان، على تفاوُتِ ما بينَ الأعصار، وتباعُدِ ما بين الأمصار، وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب. ومناقلةُ اللسان وهدايته لا تجوزان مجلسَ صاحبه، ومبلغَ صوتِه.

وقد يذهب الحكيمُ وتبقى كتبُه، ويذهب العقلُ ويبقى أثره. ولولا ما أودعت لنا الأوائلُ في كتبها، وخلَّدت من عجيبِ حكمتها، ودوَّنت من أنواعِ سِيَرِها، حتَّى شاهدنا بها ما غاب عنَّا، وفتحنا بها كلَّ مستغلق كان

(١) في البيان والتبيين ١/ ٨٠ أورد قبله فقال: وقالوا: اللسان مقصورٌ على القريب الحاضر، والقلمُ مطلقٌ في الشاهد والغائب، وهو للغابرِ الحائن، مثلُه للقائم الرّاهن. وفي بهجة المجالس ١/ ٣٥٦ رواية شبيهة لابن القِرِّيّة أيوب بن زيد: خط القلم يُقْرأ بكل مكان، وفي كل زمان، ويترجم بكل لسان، ولفظ الإنسان لا يجاوز الآذان.

علينا، فجمَعنا إلى قليلِنا كثيرَهم، وأدركْنا ما لم نكن ندركُه إلاَّ بهم، لقد خسَّ حظنا من الحكمة، ولضعف سببُنَا إلى المعرفة.

ولو لجأنا إلى قدر قوَّتنا، ومبلغ خواطِرنا، ومنتهى تجارِبنا لما تدركه حواسُّنا، وتشاهدُه نفوسنا، لقلَّت المعرفةُ، وسَقَطَت الهِمّة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأيُ عقيماً، والخاطِر فاسداً؛ ولَكَلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل[1].

أفضل الكتب:

وأكثَرُ مِنْ كتبهم نفعاً، وأشرف منها خَطَراً، وأحسنُ موقعاً، كتُبُ اللَّهِ تعالى؛ فيها الهُدَى والرحمة، والإِخبارُ عن كلِّ حكمة، وتعريفُ كلِّ سيِّئةٍ وحسَنة. وما زالت كتبُ الله تعالى في الألواح والصُّحُف، والمهارِق والمصاحِف. وقال الله عزّ وجلّ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨]. ويقال لأهل التَّوراةِ والإِنْجيل: أهلُ الكِتاب.

مواصلة السير في خدمة العلم:

وينبغي أن يكونَ سبيلُنا لِمَنْ بعدَنا، كسبيلِ مَن كان قبلنا فينا. على أنَّا قد وجدْنا من العبرة أكثرَ ممَّا وجدوا، كما أنَّ مَن بعدَنا يجدُ من العِبرة أكثرَ ممَّا وجدْنا. فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عندَه، وما يمنَع الناصرَ للحقِّ من القيامِ بما يلزمُه، وقد أمكن القولُ وصلَح الدهرُ، وخَوى نجم التَّقِيَّة، وهَبَّتْ رِيحُ العلماء، وكسَدَ العِيُّ والجهل، وقامت سوقُ البيان والعلم؟!

وليس يجدُ الإِنسانُ في كل حينٍ إنساناً يدَرِّبه، ومقوِّماً يثقِّفه. والصبرُ

---

(١) زاد في رسائل الجاحظ ٤/٢٩٧: «واستبدّ بنا سوء العادة»، وزاد في تقييد العلم ص ١١٨: فكان ما دوَّنوه في كتبهم أكثر نفعاً، وما تكلفوه من ذلك أحسن موقعاً، ويجب الاقتفاء لآثارهم، والاستضاء بأنوارهم، فإن المرء مع من أحب؛ وله أجر ما احتسب.

على إفهام الرِّيِّض شديد، وصرفُ النفسِ عن مغالبة العالم أشدُّ منه، والمتعلِّم يجدُ في كلِّ مكانِ الكتابَ عتيداً، وبما يحتاج إليه قائماً، وما أكثَرَ من فرَّط في التعليم أيَّام خُمولِ ذكره، وأيَّام حَداثةِ سنِّه!!

ولولا جِيادُ الكتبِ وحسَنُها، ومُبَيَّنُها ومختَصَرها، لَمَا تحرَّكت هممُ هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حبِّ الأدب، وأنِفَتْ من حالِ الجهل، وأن تكون في غِمار الحَشْو، ولَدخل على هؤلاء من الخللِ والمضرَّة، ومن الجهلِ وسوء الحال، ما عسى ألا يمكن الإخبارُ عن مقداره، إلَّا بالكلام الكثير، ولذلك قال عمرُ رضي الله تعالى عنه: «تفقَّهوا قبلَ أن تُسَوَّدوا».

كتب أبـي حنيفة:

وقد تجدُ الرجلَ يطلبُ الآثارَ وتأويلَ القرآن، ويجالس الفقهاءَ خمسين عاماً، وهو لا يُعدُّ فقيهاً، ولا يُجعَل قاضياً!! فما هو إلَّا أن ينظرَ في كتبِ أبي حنيفة، وأشباه أبـي حنيفة، ويحفَظَ كتبَ الشروط في مقدارِ سنةٍ أو سنتين، حتى تمرَّ ببابه فتظنَّ أنَّه من بعضِ العُمَّال، وبالحَرَا ألَّا يمرَّ عليه من الأيّام إلَّا اليسير، حتَّى يصير حاكماً على مصرٍ من الأمصار، أو بلدٍ من البلدان.

وجوب العناية بتنقيح المؤلفات:

وينبغي لمن كتَبَ كتاباً ألا يكتبُه إلَّا على أنَّ النَّاس كلَّهم له أعداء، وكلُّهم عالمٌ بالأمور، وكلُّهم متفرِّغ له؛ ثمَّ لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفْلًا، ولا يرضى بالرأي الفطير؛ فإنَّ لابتداءِ الكتابِ فتنةً وعُجْباً، فإذا سكنت الطبيعةُ وهدأت الحركة، وتراجَعَتِ الأَخلاطُ، وعادت النفسُ وافرة، أعاد النَّظَرَ فيه، فَيَتَوَقَّفُ عند فصوله توقُّفَ من يكونُ وزنُ طمَعه في السلامة أنقَصَ من وزنِ خوفِه من العيب، ويتفهَّم معنى قولِ الشاعرِ (ابن هرمة):

إنَّ الحـديـثَ تَغُرُّ القـومَ خلـوتُـه ... حتَّـى يَلِـجَّ بهـم عِـيٌّ وإكثـارُ

ويقفُ عند قولهم في المثل: «كلُّ مُجْرٍ في الخَلاءِ يُسَرُّ»، فيخاف أن

يعتريَه ما اعترى مَنْ أجرى فرسَه وحدَه، أو خلا بعلمه عند فقدِ خصومه، وأهل المنزلة من أهل صناعته.

تداعي المعاني في التأليف:

وليعلم أنَّ صاحبَ القلمِ يعتريه ما يعتري المؤدِّبَ عند ضربه وعقابه، فمَا أكثر من يَعزِم على خمسةِ أسواط فيضرب مائة؟! لأنَّه ابتدأ الضربَ وهو ساكنُ الطباع، فأراه السكونُ أنَّ الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرَّك دمُه، فأشاع فيه الحرارةَ فزادَ في غضبه، فأراه الغضبُ أنّ الرأي في الإكثار.

وكذلك صاحب القلم؛ فمَا أكثرَ من يبتدىء الكتابَ وهو يُريد مقدارَ سطرين، فيكتب عشرة! والحفظُ مع الإقلال أمكَن، وهو مع الإكثار أبعَد.

مقايسة بين الولد والكتاب:

واعلم أَنَّ العاقلَ إنْ لم يكن بالمتتبِّع، فكثيراً ما يعتريه ما يعتريه من ولده، إنْ يحسُنَ في عينه منه المقبَّحُ في عين غيره، فليعلمْ أَنَّ لفظَه أقربُ نسباً منه مِن ابنه، وحركتَه أمسُّ به رِحْماً من ولَده؛ لأَنَّ حركتَه شيءٌ أحدثَه من نفسه وبذاتِه، ومن عين جوهرِه فَصَلت، ومن نفسِه كانت؛ وَإِنَّمَا الولدُ كالمَخْطَةِ يتمخَّطها، والنُّخَامةِ يقذِفها، ولا سواءٌ إخراجكُ مِنْ جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارُك حركةً لم تكن حتَّى كانت منك. ولذلك تجِدُ فتنةَ الرجُل بشِعرِه، وفتنتَه بكلامِه وكتبِه، فوقَ فتنته بجميعِ نِعمته.

ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب:

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حتَّى لا يحتاج السامع لما فيه من الرويّة، ويحتاجُ مِنَ اللفظ إلى مقدارٍ يرتفع به عَنْ ألفاظ السِّفْلَةِ والحَشْو، ويحطُّه من غريب الأعراب ووَحْشِـيِّ الكلام، وليس له أَنْ يهذِّبَه جدّاً، وينقِّحَه ويصفِّيه ويروّقه، حتى لا ينطِقَ إلاَّ بلُبِّ اللُّبِّ، وباللفظ الذي قد حذف فُضُولَه، وأسقَطَ زوائِدَه، حتَّى عاد خالصاً لا شَوْب فيه، فإنَّه

إنْ فعل ذلك، لم يُفْهَمْ عنه إلاَّ بأن يجدِّد لهم إفهاماً مِراراً وتكراراً، لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعوَّدُوا المبسوطَ من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلاَّ بأن يعكس عليها ويؤخذ بها.

ألا تَرَى أَنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم، لو قرأتَه على جميعِ خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب، لما فهِموا أكثرَه، وفي كتاب أُقليدِسَ كلامٌ يدور، وهو عربيٌّ وقد صُفِّي، ولو سمِعه بعضُ الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهِّمه من يريد تعليمه، لأنَّه يحتاج إلى أن يكون قد عرَف جهةَ الأمر، وتعوَّد اللفظ المنطقيَّ الذي استُخرِج من جميع الكلام.

ولولا أنِّي أتّكل على أنَّك لا تملُّ بابَ القولِ، لَرأيتُ أنَّ جملة الكتاب، وإنْ كثُر عددُ ورقه، أَنَّ ذلك ليس مما يُملُّ، ويُعتَدُّ عليَّ فيه بالإطالة، لأَنَّه وإن كانت كتاباً واحداً فإنَّه كتبٌ كثيرة، وكلُّ مُصحَفٍ منها فهو أمٌّ على حِدَة، فإنْ أرادَ قراءةَ الجميع لم يَطُل عليه الباب الأَوَّلُ حتَّى يهجمَ على الثاني، ولا الثاني حتَّى يهجمَ على الثالث؛ فهو أبداً مستفِيدٌ ومستَطْرِف، وبعضُه يكون جَماماً لبعض، ولا يزالُ نشاطُه زائداً.

ومتى خرج مِنْ آي القرآن صارَ إلى الأَثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعرِ إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سِداد، ثم لا يترك هذا البابَ؛ ولعلَّه أن يكون أثقلَ، والمَلالُ إليه أسرع، حتَّى يفضِيَ به إلى مزحٍ وفكاهة، وإلى سُخْفٍ وخُرافة، ولستُ أراه سُخفاً، إذ كنتُ إنما استعملتُ سِيرة الحكماءِ، وآدابَ العلماء.

مخاطبة العرب وبني إسرائيل في القرآن الكريم:

ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العربَ والأَعْرَابَ، أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطَبَ بني إسرائيل أو حكَى عنهم، جعلَه مبسوطاً، وزاد في الكلام. فأصوبُ العمل

اتِّباعُ آثار العلمَاء، والاحتذاءُ على مثالِ القدماء، والأَخذُ بما عليه الجماعة.

قال محمد بن يسير الرياشي في صفة الكتب، في كلمةٍ له[1]:

أقبلْتُ أهـرُب لا آلـو مُبـاعـدةً ... في الأَرض منهمْ فَلم يُحْصِنِّيَ الهربُ
بقصـر أوسٍ فَمـا والـت خنـادِقُـه ... ولا النواويسُ فالماخورُ فالخَرب
فـأيُّمَا مـوئـلٍ منهـا اعتصمتُ بـه ... فمِـن ورائـي حثيثـاً منهـمُ الطلـبُ
لمَّا رأيتُ بأني لستُ معجزَهم ... فوتاً ولا هَرَباً، قرَّبتُ أحتجبُ
فصرتُ في البيت مسروراً بهم جَذِلا ... جَارَ البراءة لا شكوَى ولا شَغَبُ
فرداً يحدِّثني الموتى وتنطِقُ لي ... عن علم ما غاب عنِّي منهمُ الكتبُ
هـم مُـؤْنِسـون وأُلَّاف غَنَيْـتُ بهـمْ ... فليس لَي في أنيس غيرهم أَرَبُ
لِلَّـهِ مِـن جُلَسَـاءٍ لا جَليسهـمُ ... ولا عشيـرهُـمُ للسُّـوءِ مـرتَقِـبُ
لا بـادراتِ الأَذَى يخشَـى رفيقُهـمُ ... ولا يُـلاقِيـه منهـمْ مَنْطِـقٌ ذَرِبُ
أبقَـوا لَنَـا حِكمـاً تبقـى منـافِعُهَـا ... أُخْرَى الليالِـي على الأَيَّام وانشعبوا
فـأيّمـا آدبٍ منهـم مـددتُ يـدي ... إليـه فهـو قـريبٌ مـن يَـدِي كَثَـبُ
إن شئتُ من مُحكَم الآثارِ يرفعُها ... إلـى النبـيِّ ثِقَـاتٌ خِيـرةٌ نُجُـبُ
أو شئتُ من عَرَبٍ علماً بأوَّلِهم ... فـي الجـاهليَّـةِ أنبتْني بـه العـرب
أو شئتُ مِنْ سِيَرِ الأَملاكِ مِنْ عَجَم ... تُنْبـي وتُخْبرُ كيف الرأيُ والأَدبُ
حتَّى كأنِّيَ قد شاهدتُ عصرَهُمُ ... وقد مضَتْ دونهم من دَهرِهم حِقَبُ
يا قائلاً قصُرَت في العلم نُهْيَتُهُ ... أمسى إلى الجهل فيما قال ينتسِبُ
إنَّ الأَوائـلَ قـد بـانـوا بعلمهـم ... خلافَ قولِك قد بانوا وَقدْ ذهبوا

---

(١) وردت بأبيات ناقصة وألفاظ مختلفة وتغيير في نظم الأبيات في: البخلاء ص ٢٩٣، وجامع بيان العلم ص ٥٨١، وبهجة المجالس ١/ ٥١، وتقييد العلم ص ١٣٣، والجامع في الحث على طلب العلم ص ٦٣، وربيع الأبرار ٣/ ٢٨٩، والتذكرة الحمدونية ٩/ ٣٢٧، ودون نسبة في مروج الذهب ٢/ ٦٨.

مـا مـات منـا امـرؤ أبقَـى لنـا أدبـاً　　　نكـونُ منـه إذا مـا مـات نكتسِـبُ

* * *

وقال أبو وَجْزة ــ وهو يصف صحيفةً كُتب له فيها بستِّينَ وَسْقاً:

راحَتْ بِستِّيـنَ وَسْقـاً فـي حقيبتِهـا　　　ما حُمِّلَتْ حِمْلَها الأدنى ولا السِّدَدا

ما إنْ رأيتُ قلوصاً قبلَها حَمَلَتْ　　　سِتِّينَ وَسقاً وما جابت به بلدَا

وقال الراجز:

تَعَلَّمَـــنْ أَنَّ الـــدواة والقلَـــمْ　　　تبقى ويُفْنِـي حادثُ الدَّهر الغَنَمْ

يقول: كتابُكَ الذي تكتبُه عليَّ يبقى فتأخذني به، وتذهب غنَمي فيما يذهب.

نشر الأخبار في العراق:

وممَّا يدلُّ على نفع الكتاب، **أنَّه لولا الكتابُ** لم يجُزْ أن يعلَمَ أهل الرَّقَّةِ والموصِل وَبغدادَ ووَاسط ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفةِ في بياضِ يوم، حتَّى تكونَ الحادثةُ بالكوفةِ غُدوة، فتعلمُ بها أهلُ البَصرة قبلَ المَساء.

وذلك مشهورٌ في الحمام الهدَّى، إذا جُعِلت بُرُدا، قال الله جلّ وعزّ ــ وذكر سليمانَ وملكَه الذي لم يؤتِ أحداً مثله ــ فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] إلى قوله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: ٢١].

فلم يلبثْ أن قال الهُدْهُدُ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٢، ٢٣].

قال سليمان ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨]، وقد كان عندَه مَن يبلِّغ الرسالةَ على تمامها، مِن عِفريت، ومِن بعض مَن عنده علمٌ من الكتاب، فرأى أنَّ الكتابَ أبهى وأنبَلُ، وأكرمُ وأفخَمُ من الرسالة عن ظهر لسان، وإن أحاطَ بجميعِ ما في الكتاب.

وقالت مَلكةُ سَبأ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النمل: ٢٩]. فهذا مما يدلّ على قدْر اختيار الكتب.

استخدام الكتابة في أمور الدين والدنيا:

وقد يريد بعضُ الجِلَّةِ الكبارِ، وبعضُ الأُدباءِ والحكماءِ، أن يدعو بعضَ مَن يجري مَجْراه في سلطانٍ أوْ أدبٍ، إلى مأدُبةٍ أو نِدام، أو خُروجٍ إلى متنزَّه، أو بعض ما يشبهُ ذلك، فلو شاءَ أن يبلِّغهُ الرسولُ إرادته ومعناه، لأَصابَ مَن يُحسن الأَداء، ويصدُق في الإِبلاغ، فيرى أنَّ الكتاب في ذلك أسرَى وأنبَه وأبلغ.

ولو شاءَ النبيُّ ﷺ أَلاَّ يكتبَ الكتبَ إلى كسرَى، وقَيْصَرَ، والنَّجَاشيِّ، والمقوقِس، وإلى ابني الجُلَنْدَى، وإلى العباهلة من حِمير، وإلى هوذَة بن علي، وإلى الملوك والعظماء، والسادة النجباء، لفعل، ولوجد المبلِّغَ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنّهُ عليه الصلاة والسلام، عَلِم أنَّ الكتابَ أشبهُ بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغُ في تعظيم ما حواه الكتاب.

ولو شاء الله أن يجعَل البشارات على الأَلسنة بالمرسلين، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تعالى وعزّ، علم أن ذلك أتمُّ وأكمل، وأجمع وأنبل.

وقد يكتب بعضُ من له مرتبةٌ في سلطان أو ديانة، إلى بعضٍ من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتَّى يخزمه ويختمه، وربَّما لم يرض بذلك حتى يُعَنْونه ويعظمه. قال الله جلّ وعزّ: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]، فذكر صحفَ موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة المعدومة، ليعرف الناس مقدارَ النفع، والمصلحة في الكتب.

نظام التوريث عند فلاسفة اليونانية:

قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية، تورث البنات العَين، وتورث البنين

الدين، وكانت تصل العجز بالكفاية، والمؤونة بالكلفة، وكانت تقول: لا تورثوا الابنَ من المال، إلاَّ ما يكونُ عوناً له على طلب المال، واغذُوه بحلاوة العلم، واطبَعوه على تعظيم الحكمة، ليصير جمْع العلم أغلبَ عليه من جمع المال، وليرى أنّه العُدَّة والعتاد، وأنّه أكرم مستفاد.

وكانوا يقولون: لا تورِّثوا الابن من المال إلاَّ ما يسد الخلة، ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بُدَّ من الفضول؛ فإنَّه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساده، وإن كان صالحاً كان فِيمَا أورثتموه من العلم وبقّيتم له من الكفاية، ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأَنَّ المالَ لم يَزَلْ تابعاً للحال، وقد لا يتبع الحال المال.

وصاحب الفضولِ بعرَض فساد، وعلى شفا إضَاعة، مع تمام الحنكَة، واجتماع القوَّة، فما ظنُّكم بها مع غَرارة الحداثة، وسوء الاعتبار، وقلة التجربة.

وكانوا يقولون: خير ميراثٍ ما أكسبك الأَركان الأَربعة، وأحاط بأصول المنفعة، وعجَّل لك حلاوة المحبّة، وبقّى لك الأحدوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه.

وليس يجمع ذلك إلاَّ كرامُ الكتب النفيسة، المشتملة على ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأَدب، ومعرفةِ الصناعات، وفوائِدِ الأَرفاق، وحجج الدين الذي بصحته، وعند وضوح برهانه، تسكن النفوس، وتثلج الصدور، ويعود القلب معموراً، والعزُّ راسخاً، والأصل فسيحاً.

وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذبه. وتنفي الخَبَث عنه، وتفيدك العلم، وتصادق بينك وبين الحجَّة، وتعوّدك الأَخذ بالثقة، وتجلب الحالَ، وتكسب المال.

وراثة الكتب:

ووراثة الكتب الشريفة، والأَبواب الرفيعة، منبهة للمورِّث، وكنز عند الوارث، إلاَّ أنه كنز لا تجب فيه الزكاة، ولا حقُّ السلطان.

وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصها ما أخذ منها، كان ذلك الكنز مائعاً يزيده ما أخذ منه؛ ولا يزال بها المورِّث مذكوراً في الحكماء ومنوَّهاً باسمه في الأَسماء، وإماماً متبوعاً وعَلماً منصوباً، فلا يزال الوارث محفوظاً، ومن أجله محبوباً ممنوعاً، ولا تزال تلك المحبَّة ناميةً، ما كانت تلك الفوائد قائمة؛ ولن تزال فوائدها موجودةً ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر، ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: من ورَّثته كتاباً، وأودعته علماً، فقد ورثته ما يُغِل ولا يَستغِلّ، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال بإيغار، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكّار، ولا إلى أن تُثار، وليس عليها عُشر، ولا للسلطان عليها خَرْج. وسوَاء أفدته علماً أو ورثته آلة علم، وسواءٌ دفْعُك إليه الكفايةَ، أو ما يجلب الكفاية. وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإِمكان، فمن لم يقدر إلاَّ على دفع السبب، لم يجب عليه إحضار المسبَّب، فكُتب الآباء تحبيب للأحياء، ومحيٍ لذكرِ الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً، وكانت مواريثه كتباً بارعة وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلُّم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليمُ إليه، ويرى تركه خطأ، وأجدرَ أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطىء له، وأجدرَ أن يسري إليه عِرقُ مَن نَجلَه، وسقى من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسْب النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيَّام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلاَّ وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة.

وإنَّما تُفسد الكفاية من له تمَّت آلاته، وتوافت إليه أسبابه. فأما الحدَث الغرير، والمنقوص الفقير، فخير مواريثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب.

فخير ميراثٍ وُرّث كتبٌ وعلم، وخير المورّثين من أورث ما يجمع ولا يفرِّق، ويبصِّر ولا يُعمي، ويُعطي ولا يأخذ، ويجود بالكلِّ دون البعض، ويدع لك الكنزَ الذي ليس للسلطان فيه حقّ، والرِّكازَ الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعمةَ التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا لِلُّصُوصِ فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجَّة، ولا على الجار فيه مَئونة.

قول ديمقراط في تأليف كتب العلم:

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرَف أنه لا بدَّ من أن يكون لكلِّ كتابِ علمٍ وضعَه أحدٌ من الحكماء، ثمانيةُ أوجه: منها الهمَّة، والمنفعة، والنسبةُ، والصحَّة، والصِّنف، والتأليف، والإسناد والتدبير.

فأَوَّلُها أن تكون لصاحبه هِمَّة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنْسَب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف.

فذُكِر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب، وهو كتابه الذي يسمى (أفوريسموا)، تفسيره: كتاب الفصول.



٣ ـ فصل في
عشّاق الكتب وما بذلوا من النّفيس له

من عشاق الكتب والقراءة: ابن تيمية الجد، وابن الجوزي:

قال عبد الرحمن ابن الجوزي[(١)]:

وأما عشاق العلم فأعظمُ شَغَفاً به وعشقاً له من كل عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر.

وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال: كان الجَدُّ إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أَسمع.

وأَعرف من أصابه مرضٌ من صُداعٍ وحُمَّى وكان الكتاب عند رأْسه، فإذا وَجَد إفاقةً قرأ فيه، فإذا غُلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال: إن هذا لا يَحِلّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون سبباً لفوات مطلوبك.

وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأني مرضٌ فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأَنا أُحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرّت قَوِيت الطبيعةُ فدفعت المرض؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأَجدُ راحة، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.

فعشقُ صفات الكمال من أَنفع العشق وأَعلاه، وإنما يكون بالمناسبة

(١) روضة المحبّين ص ٦٩.

التي بين الرُّوح وتلك الصفات، ولهذا كان أَعلى الأرواح وأشرفُها أعلاها وأشرفَها معشوقاً؛ كما قيل:

أَنــت القتيــلُ بكــلِّ مــن أَحْبَبْتَــه فاخْتَرْ لنفسِكَ في الهوى من تَصْطفي

* * *

ومنهم: عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن أبو الفضل العجلي[1]:

قال: إن هذه الأوراق تحل منا محل الأولاد.

* * *

ومنهم: محمدُ بن عليّ بن وهب أبو الفتح تقيُّ الدين، ابن دقيق العيد[2]:

كان من أذكياء زمانه، وواسع العلم، كثير الكتب، مديماً للسهر، مكبّاً على الاشتغال، ساكناً وقوراً ورعاً، قلّ أن ترى العيون مثلَه.

قال الأدفويّ: وكان له قدرةٌ على المطالعة، رأيتُ خزانةَ المدرسة النّجيبيّة بقُوص فيها جملةُ كتب، من جملتها: «عيونُ الأدلّة» لابن القصَّار، في نحو من ثلاثين مجلّدة وعليها علاماتٌ له، وكذلك رأيتُ كتبَ المدرسة السَّابقيّة، رأيتُ على «السُّنن» الكبير للبَيْهقيّ فيها، في كلّ مجلَّدة علامة، وفيها تاريخُ الخطيب كذلك، و«معجمُ» الطَّبرانيّ الكبير، و«البسيط» للواحديّ وغيرُ ذلك.

وأخبرني شيخُنا الفقيهُ سراجُ الدِّين الدَّنْدريُّ: أنَّه لمَّا ظهر «الشرحُ

---

(١) تاريخ دمشق ٣٤/ ١١٨.

(٢) الطالع السعيد ص ٥٨٠ وص ٥٩٥، والمقفّى ٦/ ٣٨١، وعقد الجمان ١/ ٣٢٠.

الكبيرُ» للرّافعيّ اشتراه بألف درهم، وصار يصلّي الفرائضَ فقط، واشتغل بالمطالعة، إلى أن أنهاه مطالعة، ويقالُ إنه طالع كتبَ «الفاضليّة» عن آخرها.

وكان غالباً في فاقة تلزمه الإضافة فيحتاج إلى الاستدانة، وقد تفضي به إلى بذل الوجه المعروف بالصيانة، ادّعى عليه أمين الحكم بالقاهرة عند قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة بدَين عليه لأيتام، فتوسّط ابن جماعة بينهما، وقرّر معه أن تكون جامكيّة الكامليّة للدَّين، والمدرسة الفاضليّة لكُلَفِهِ. ثمّ قال لابن دقيق العيد: أنا أشحّ عليك بسبب الاستدانة. فقال: ما يوقعني في ذلك إلاَّ محبّة الكتب.

وقال بدر الدين العيني: وبلغني من شيخ الحديث فتح الدين ابن سيد الناس أن ولد الشيخ قال للشيخ: يا سيدي كيف قبلت الولاية في هذا الوقت وقد كنت تأبى عنها؟ فقال له: يا ولدي، وجب ذلك عليَّ من وجوه، أحدها: أنه ليس لي شيء يكفيني للعيال، والثاني: عندي كتب العلم فأحتاج أن أبيع الكتاب الذي يساوي مائة بخمسين درهماً، والثالث: لم يبق لتولية القضاء من هو أحق مني بالولاية، فتعين علي.

* * *

ومنهم: محمد سعيد جرادة[1]:

يا صديقي مثلت بعدك في الخا ... طر فالتاع للفراق الأليم
خفق القلب في الضلوع لأن الـ ... ـبعد جزء من حر نار الجحيم
غير أني ذكرت همتك العظمى ... التي أُغرِمتْ بكل عظيم
همة لم تزل تتوق إلى الأعلى ... وتنبو عن الحقير الذميم

(١) مشاعل الدرب ص ٤٤.

نبتـة أنـت مـن أمـانـي الشبـاب — الحي في عزمه الأصيل الصميم

بيئـة الفقـر أنجبتهـا كمـا ينجـب — صـدر السمـاء أسنـى النجـوم

كـرم الفقـر مـا أجـل مـراميـه — وأهـداه للطـريـق القـويـم

صيقل يغسل النفوس من الرجـ — ـس ويجلـو فيهـا صفـاء الأديـم

وينقـي الضمير مـن بطـر النعمى — ومـوت الضميـر بطـر النعيـم

هو سر الحياة والجانب المشر — ق فـي وجههـا الـوضـيء الـوسيـم

مـن مجـاليـه تبـرز العبقـريـا — ت بـروز الشمـوس إثـر الغيـوم

سل صدور الأسفار عن كل فذ — أنـزلتـه منـازل التعظيـم

تجـد الفقـر فـي صحيفتـه البيضـا — ء طغـرى قـدسيـة التـرقيـم

يـا حليـف الكتـاب أنـزلتـه مـر — المـدى منـزل الصـديـق الحميم

وسلـوت الألحـان والمـرح الصـا — خـب واللهـو واصطنـاع النـديـم

أبـداً عـاكفـاً عليـه عكـوف الـ — ـقس في الدير حول نصب قديم

* * *

ومنهم: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الخشّاب، النَّحْويّ(١):

كان له كُتُب كثيرة إلى الغاية ما لا يدخل تحت الحصر، ومن خطوط الفضلاء وأجزاء الحديث شيئاً كثيراً.

ذكر ابن النجار: أنه لم يمت أحد من أهل العلم وأصحاب الحديث إلاَّ وكان يشتري كتبه كلها، فحصلت أصول المشايخ عنده، وكان لا يخلو كمه من كتب العلم. وكان يُديم القراءة طول النّهار من غير فُتُور.

---

(١) إنباه الرواة ٢/ ١٠٠، والذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٣١٩، والمنهج الأحمد ٣/ ٢٦١، وشذرات الذهب ٦/ ٣٦٦، والعلماء العزّاب ص ١٣٥، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٢١.

وكانت له دار عتيقة ولأخ له ومن شاركهما في ورثةِ أبيه، وله منها صُفَّةٌ كبيرة منفردة، وبها بواريُّ قَصَب ـ أي حُصْرٌ ـ مفروشة، وفي صدرها ألواح من الخشب مرصوص عليها كتب له، أقامت عِدَّةَ سنين ما أُزيل عنها الغُبار، وكانت تلك البواري استترت بما عليها من التراب، يقعد في جانب منها، والباقي على تلك الحالة، وقيل: إن الطيور عشَّشت فوق الكتب وفي أثنائها.

وقال تلميذه أبو محمد ابن الأخضر: دخلت عليه يوماً وهو مريض، وعلى صدره كتاب ينظر فيه، قلت: ما هذا؟ قال: ذَكَرَ ابنُ جنِّي مسألةً في النحو، واجتهد أن يستشهد عليها ببيت من الشعر فلم يحضره، وإني لأعرف على هذه المسألة سبعين بيتاً من الشعر، كُلُّ بيتٍ من قصيدة.

وقال سبط ابن الجوزي: حضر يوماً سوق الكتبيين فنودي على كتاب بخمسمائة دينار ولم يكن عنده شيء فاشتراه، وقال: أخّروني ثلاثة أيام، ثم مَضَى ونادَى على داره فبلغَتْ خمس مئة دينار، فنقدَهُ صاحِبُها، وباعه بخمس مئة دينار، ووفَّى ثمنَ الكتب، وبِيعَتْ له الدار». ولما مرض أشهد عليه بوقف كتبه فتفرقت وبيع أكثرها ولم يبق إلاَّ عشرها، فتركت في رباط المأمونية وقفاً. رحمه الله.

* * *

ومنهم: ولي الدين يكن[1]:

هواي هوى لم يذخر الناس مثلهُ ... بـهِ طبـت مـا بيـن الكـرام وطـابـا
أحــب الليـالـي لا لِلهـوِ وإنمـا ... لأقــرأ سفــراً أو أخــطّ كتــابــا

* * *

(١) ديوان ولي الدين يكن ص ٤١.

ومنهم: أبو العلاء الحسن بن أحمد بن سهل العطّار الهمذاني[1]:

باع جميع ما ورثه، وكان من أبناء التّجّار، وأخرجه في طلب العِلم، حتّى سافر إلى بغداد وأصبهان مرات كثيرة ماشياً، وكان يحمل كُتُبه على ظَهْره. قال: كنت أبيت ببغداد في المساجد، وآكل خُبز الدُّخْن.

قال الإمام طلحة بن مظفَّر العَلْثي: بِيعَتْ كتبُ ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن سهل العطار الهَمَذاني، فنادَوْا على قطعةٍ منها بستين ديناراً، فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستين ديناراً، والإنظارُ من يوم الخميس إلى يوم الخميس، فخرج الحافظ واستقبَلَ طريق هَمَذان، فوَصَل فنادَى على دارٍ له، فبلغت ستين ديناراً، فقال: بيعوا، قالوا: تبلُغُ أكثَرَ من ذلك، قال: بيعوا، فباعوا الدار بستين ديناراً فَقَبَضَها ثم رجع إلى بغداد، فدخلها يوم الخميس فوفَّى الثمن، ولم يَشعُر أحدٌ بحالِهِ إلاَّ بعدَ مُدَّة.

تُوفِّي رحمه الله ليلةَ الخميس، تاسع عشر جُمادى الأولى، سنة تسع وستِّين وخمس مئة، ورُئي في المنام في مدينةٍ جميع جُدرانها من الكتب، وحوله كتب لا تُحدُّ، وهو مشتغل بمطالعتها، فقيل له: ما هذه الكتب؟ قال: سألت الله تعالى أن يشغلني بما كنتُ أشتغلُ به في الدُّنيا، فأعطاني. رحمه الله تعالى.

* * *

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٣٢٨، وتاريخ الإسلام ٣٩/ ٣٣٥، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٢، وشرح الصدور ص ٢٥٦، وأهوال القبور ص ٧٢، والمنهج الأحمد ٣/ ٢٦٧، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٢٣.

ومنهم: عامر البحيري[1]:

جـديـد، عليـه جـلال القـدمْ قـويُّ الشـذى، عبقـريُّ النَّغـم!
صـديـقٌ إذا عـزَّت الأَصـدقـاء قـريـبٌ، كـأنِّـي بـه ذو رحـم
تجمّـع فـي دفَّتيـه الهـدى وسحـر العلـوم، وفيـض النُّظُـمْ
يُعلِّـم آدم أسمـاءَهُ ولـولا السِّجِـلُّ بـه مـا علـمْ
تضـيء وصـايـاه للعـالميـن إذا مـا الكليـمُ تلقَّـى الكلـمْ
ففـي الطـور يسطـع، أو فـي الجليـل ويغشـى حـراءَ بـأعلـى القمـم
فـأكـرم بـه مـن نجـيّ القلـوب صديق الشعوب، وهادي الأُمم!

*

يطـالعُنـي مـع شمـس الصبـاحِ وقـد غـرقـت فـي بحـار السُّـدم
وأرنـو لـه مـن خـلال الشعـاعِ فيبـدو خفـيٌّ، ويُجلـى قتـم
أُصـادفـه حيـث فـارقتُـهُ فقـد نمـتُ.. لكنـه لـم ينَـم..!
مقيـمٌ علـى مكتبـي لـم يـزَلْ كطيـرٍ علـى عُشـه قـد جثـم
يثيـرُ علـى صمتـه ضجَّـةً وإن عبـرت كـرقيـق النَّسـم
أَظـلُّ أَنـاجيـه فـي وحـدتـي فـأُذري لـه الـدمـع، أو أَبتسِـمْ
ذكـرتُ كتـابـي فـأَلفيتُـهُ سميـرَ الصبـيِّ، وشُغْـل الهَـرِم
أُؤَجـل مـن أَجلـه مـوعـدي وأَنسـى لقـاءَ حبيـبٍ قَـدِم..
خميلـةُ قلبـي إذا مـا صبـا ومـرقـأُ دمعـي إذا مـا انسجـم
أَضعـتُ لـه فُـرصـي فـي الحيـاةِ ومـا بـتُّ مستشعـراً للنَّـدمْ
وقـوفـي علـى صفحـات الكتـاب وقـوف الحجيـج علـى الملْتَـزَم!

* * *

(١) ديوان عامر البحيري ص ٤٣٣ من قصيدة «اتِّحاد الكتاب».

ومنهم: من الأمراء: الحَكَم المستنصِر بالله[1]:

هو أبو العاص ابن النّاصر لدين الله عبد الرحمن الأموي، صاحب الأندلس، بقي في المملكة بعد أبيه ستّة عشر عاماً، وعاش ثلاثاً وستّين سنة.

كان محباً للعلماء والعلم، وجمع من الكتب ما لم يجمعه واحد من ملوك العرب لا قبله ولا بعده.

كان يستجلب المُصَنَّفات من الأقاليم والنّواحي، باذلاً فيها ما أمكن من الأموال، حتّى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرامٍ بها، قد آثر ذلك على لذّات الملوك.

قال ابن الأبّار: وقلّ ما نجد له كتاباً من خزانته إلاّ وله فيه قراءة أو نظر في أيّ فنّ كان، ويكتب فيه نَسَبَ المؤلّف ومَوْلِدَه ووفاته، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلاّ عنده لعنايته بهذا الشأن[2].

* * *

ومنهم: بيرم التونسي[3]:

ليلي لـربِّـي وأسفـاري وأوراقـي   لكن نهاري لأصحابـي وأرزاقـي

---

(١) مـرآة الزمان طبعـة الثقافـة ص ٢٣٢، والحلّـة السيراء ١/ ٢٠١، وتاريـخ الإسلام ٢٦/ ٣٥٨ (وانظر الحاشية)، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٨٩.

(٢) نقل عبد الفتاح أبو غدّة من كتاب حضارة العرب ص ٥٢٦ لغوستاف لوبون قوله: كان للعرب في إسبانيَة وحدَها سبعون مكتبةً عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحَكَم الثاني بقُرْطُبَةَ سِتُّ مئةِ ألفِ كتاب، منها أربعةٌ وأربعون مجلداً من الفهارس كما رَوَى مؤرِّخو العرب، وقد قيل بصَدَدِ ذلك: إنَّ شارل الحكيم لم يستطع بعد أربع مئةِ سنة أن يَجمع في مكتبة فَرَنْسَة المَلَكِيَّة أكثَرَ من تسع مئةِ مجلد، يكاد ثلثُها يكون خاصاً بعلم اللاهوت.

(٣) رباعيات بيرم التونسي ص ٤٩، قصيدة بعنوان «ليلي ونهاري».

اللَّيلُ ــ إنْ طَافَ ــ يُلْفِيني بمكتبتي كراهب الدَّير قوَّاماً على ساق
أتلو، وأكتب، أو أدعو بملء دمي حتى يميلَ كَرًى رأسي وأحداقي
وأسبق الديكَ صحواً، كي أعود لها حتى الصبَاح، فأسعى بين آفاقي

* * *

ومنهم، من الذين وهبوا أيامهم له حتّى في الأعياد، موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد[1]:

قال ابنه أبو الحسن علي في أثناء خطبة المُغْرِب ما نصه عنه:

. . . وبعد، فهذا كتابُ راحةٍ قد تعبت في جمعه الأسماع والأبصار والأفكار، وكل عناء سهل إذا أنجح القصد، وقد بدأ فيه من سنة ثلاثين وخمسمائة، ومنتهاه إلى غرة سنة إحدى وأربعين وستمائة.

قال: وأول مَنْ كان السبب في ابتداء هذا الكتاب جَدّ والدي عبد الملك بن سعيد، وهو إذ ذاك صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر إلى أن استبدَّ بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقَصَده في سنة ثلاثين وخمسمائة حافظ الأندلس أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن الحجاري، وصنف له كتاب «المسهب في غرائب المغرب» في نحو ستة أسفار، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذي ابتدأه فيه، وهو سنة ثلاثين وخمسمائة.

ثمّ ثار في خاطر عبد الملك أن يضيف إليه ما أغفله الحِجاري، وتولع بمطالعته ابناه أبو جعفر ومحمد، وأضافا له ما استفاداه، ولم يزل يزيد إلى أن استبدَّ به محمد، فاعتنى به أشد اعتناء، ثم استبدَّ به والدي ــ وكان

---

(١) نفح الطيب ٢/٣٢٨، ٣٢٩ وص ٣٣٣، ٣٣٤ و ص ٣٥٢ ــ ٣٥٦، والمغرب في حلي المغرب ١/٤ و ٢/١٧٠.

أعلمهم بهذا الشأن ــ وبلغ من اجتهاده في هذا الكتاب أنني أذكره يوماً وقد نوّه به ابن هودٍ وهو ملك الأندلس وولّاه الجزيرة الخضراء، فأعلمه شخص أن عند أحد المنسوبين إلى بيت نَباهة كراريسَ من شعر شعرائها، وأخبار رؤسائها، الذين تحتوي عليهم دول بني عبد المؤمن، فأرسل إليه راغباً في استعارتها، فأبـى وقال: عليَّ يمين أن لا تخرج عن منزلي، وقال: إن كانت له حاجة يأتي على رأسه، وكان جاهلاً.

فلما سمع والدي ضحك وقال: سر معي إليه، فقلت له: ومن يكون هذا حتى نمشي له على هذه الصورة؟ فقال: إني لا أمشي له، ولكن أمشي للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم، أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين في موضع أَنِفْتُ أن أمشي إليهم؟ قلت: لا، قال: فإن الأثر ينوب عن العين.

فمشينا إلى منزل الرجل، فوالله ما أنصفنا في اللقاء؛ فلما قضينا منها الغرض صَرَفها إليه والدي وشكره، وقال: هذه فائدة لم أجدها عند غيرك، فجزاك الله تعالى خيراً، ثم انفصل وقال: ألم تعلم يا بني أنني سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية، وإن هذا والله أوّل السعادة، وعنوان نجاحها.

وقال في والده لما عرَّف به: ولولا أنّه والدي لأطنبت في ذكره، ووفيته من الوصف حق قَدْرِه، لكن كفاه وصفاً ما أثبتّه له في هذه الترجمة، وما مر له ويمر في أثناء هذا الكتاب، وكونُ كلّ من اشتغل بهذا التأليف نهراً وهو بحر، واشتهاره في حفظه التاريخَ والاعتناء بالآداب في بلاده، بحيث لا يحتاج إلى تنبيه ولا إطناب، وله من النظم والنثر ما تضج الأقلام من كثرته، ويُستمد القَطْر من درَّتِه.

وممّا شاهدت من عجائبه أنّه عاش سبعاً وستين سنة ولم أره يوماً يخلي مطالعة كتاب أو كَتْب ما يخلده، حتى إن أيّام الأعياد لا يخليها من

ذلك، ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكَتْب، فقلت له: يا سيدي، أفي هذا اليوم لا تستريح؟ فنظر إلي كالمغضَب وقال: أظنك لا تُفلح أبداً، أترى الراحة في غير هذا؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها، ولوددت أن الله تعالى يُضاعف عمري حتى أُتم كتاب «المغرب» على غرضي.

قال: فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله لا ألتذُّ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن، ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه.

وكان أولع الناس بالتجول في البلدان، ومشاهدة الفضلاء، واستفادة ما يرى وما يسمع.

وفي تولّعه بالتقييد والمطالعة للكتب يقول:

يا مفنياً عُمْرَه في الكأس والوَتَرِ ... وراعياً في الدُّجى للأنجم الزُّهُرِ
يَبْكي حَبيباً جفاه أو ينادمُ مَنْ ... يَهفو لديه كغُصْنٍ باسم الزَّهَرِ
منعَّماً بينَ لذّات يمحّقُها ... ولا يخلّدُ مِنْ فَخْرٍ ولا سِيَرِ
وعاذلاً ليَ فيما ظَلْتُ أكتبه ... يبدي التعجبَ من صبري ومن فكري
يَقولُ ما لك قَدْ أفنيتَ عُمْرك في ... حبرٍ وطِرْسٍ عن الأعصار والخَبَرِ
وظَلْتَ تسهرُ طولَ الليلِ في تَعَبٍ ... ولا تَني أمَدَ الأيّام في ضَجرِ
أقْصِرْ فإنِّي أدْرَى بالذي طمحت ... لأفقه همّتي واسْألْ عَنِ الأثرِ
واسمَعْ لقولِ الذي تُتْلى محاسنُهُ ... من بعدِ ما صار مثلَ الترب كالسورِ
«جمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة وهم ... بعد الممات جمالُ الكتب والسيرِ»

وقال أبو الحسن علي أيضاً: لَمّا أردت النهوض من ثغر الإسكندرية

إلى القاهرة أول وصولي إلى الإسكندرية، رأى[1] أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربة، فبقي فيها أيّاماً إلى أن كتبتها عنه.

[وفيها]: يا بنيَّ الذي لا ناصح له مثلي، ولا منصوح لي مثله؛ قدمت لك هذا النظم... [إلخ]، وفي أمثال العامة: من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل، فاحتذي مثله مَنْ جَرَّبَ، واستمع إلى ما خلّد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنّها خلاصة عمرهم، وزُبْدة تجاربهم، ولا تتكلْ على عقلك، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طولَ أعمارهم وابتاعوه غالياً بتجاربهم يُربحك، ويقع عليك رخيصاً، وإن رأيت مَنْ له مروءةٌ وعقل وتجربة فاستفد منه، ولا تضيّع فعله ولا قوله، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك، وحَثّاً لك واهتداء... [إلخ، رحمهم الله جميعاً].

* * *

ومنهم: أبو عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي (ابن المكوى)[2]:

هو: مولى بني أمية، وسكن قرطبة، شيخ فقهاء الأندلس في وقته، تفقه بأبي إبراهيم وصحبه، وكان أبو إبراهيم يتفرس فيه النجابة فحرضه واعتنى به، وكان قد حبب إليه الدرس مدة عمره لا يفتر عنه ليله ونهاره، ورجحت فيه لذته.

ذكر أن صديقاً له قصده في عيد زائراً له فأصابه داخل داره وداره مفتوح، فجلس منتظره وأبطأ عليه، فأوصى إليه فخرج وهو ينظر في كتاب

(١) أي: والده موسى بن محمد، وقد جعل الوصية منظومة في ٣٩ بيتاً من الشعر أتبعها بكلام منثور مستشهداً بأشعار وأمثال.

(٢) ترتيب المدارك ٢/ ٦٣٥، وصفحات من صبر العلماء ص ١٣٠.

فلم يشعر بصديقه حتى عثر فيه لاشتغال باله بالكتاب، فتنبّه حينئذٍ له، وسلَّم عليه، واعتذر إليه من احتباسه بشغله بمسألة عويصة لم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه، فقال له الرجل: في أيام عيد ووقت راحة مسنونة؟

فقال: إذا علمت بهذه النفس انصبت إلى هذه المعرفة، والله ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة.

* * *

ومنهم: أبو جعفر محمد ابن مهرويه، وأبو طاهر ابن شبَّة:

قال أبو جعفر محمّد بن القاسم بن مِهْرُويَه(١): خرجتُ أنا وأبو طاهر ابن عمر بن شَبَّة في يوم عِيدٍ ونحن ننظُر في دَفتر والناسُ يمُرّون بنا، فقال أبو طاهر:

نَظَـرْتُ فَلَـمْ أَرَ فِـي العَسْكَـرِ ... كَشُـؤْمِـي وَشُـؤْمِ أَبِـي جَعْفَـرِ
غَـدَا النَّـاسُ لِلْعِيـدِ فِـي زِينَـةٍ ... مِـنَ الْيَـوْمِ فِـي مَنْظَـرٍ أَزْهَـرِ
وَيَغْـدُو عَلَيْهِـمْ بِـلاَ أُهْبَـةٍ ... فِـرَاراً مِـنَ المَنْـزِلِ الْمُقْفِـرِ
فَنَقْعُـدُ لِلشُـؤْمِ فِـي عُـزْلَـةٍ ... مِـنَ النَّـاسِ نَنْظُـرُ فِـي دَفْتَـرِ

* * *

ومنهم: الإمام عبد الرحمن ابن الجوزي:

قال فِي رسالته اللطيفة «رسالة في الحث على طلب العلم»(٢)، متحدّثاً لوَلَدِهِ عن نشأتِهِ ومبتدأ حالِه:

وإني لأذكر لك بعض أحوالي، لعلك تنظر إلى اجتهادي، أو تسأل

(١) نور القبس ص ٢٣١، ومعجم الأدباء ١٦/ ٦٢.

(٢) ص ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٥ (بتصرّف)، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٢٤.

الموفق لي. فإني أَذْكُر نفسي ولي همة عالية، وأنا في المكتب، ولي نحو من ست سنين، وأنا قرين الصبيان، رُزِقْتُ عقلاً في الصِّغَر يزيد على الأشياخ، فَمَا أَذْكُر أني لعبت في طريقٍ مع صبي، ولا ضحكت ضحكاً خارجاً، حتى إنّي كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع، ولا أتخير حلقة مشعبذ، بل أطلب المُحَدِّث فيتحدث بالسمر الطويل، فأحفظ، فأرجع إلى البيت فأكتبه.

ولقد كان الصبيان ينزلون دجلة، ويتفرجون على الجسر، وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً، وأقعد حجزة من الناس إلى جانب الرقة، فأتشاغل بالعلم، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نَفَسي من العد، ولا سبق، وكنت أُصْبح وليس لي ما آكل، وأمسي وليس لي شيء.

واعلم يا بني: أن أباك كان له والد موسر، خَلّف ألوفاً من المال، وكان أبوك طفلاً، فأنفق عليه من ذلك إلى أن بلغ، ولم ير بعد بلوغه سوى دارين، كان يسكن واحدة، ويأخذ أجرة أخرى، ثم أعطي نحو عشرين ديناراً قبل هذه التركة كلها، فاشترى كتباً من كتب العلم، وباع داريه وأنفقهما في طلب العلم، ولم يبق له شيء، وما ذَلَّ في طلب الدنيا كذل غيره، ولا خرج يطوف البلدان كغيره من الوعاظ، ولا رأى أكابر البلدان رقاعه عندهم يستعطيهم، وأموره تجري على السداد.

ولو شرحت أحوالي، طال الشرح، وها أنا، ترى ما قد آلت الحال إليه، وأنا أجمعه لك في كلمة واحدة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. اهـ.

وقال في كتابه «صيد الخاطر»[1] متحدثاً عن علو الهمّة والكتب في فصول جمعت بينهما:

---

(١) صيد الخاطر ص ٤٤٥، ٧٠٩، ٣٢٤، ٧٠٦، ٤٠١، ٣٩٥ ـ ٣٩٧ (بتصرّف).

* تأمّلْتُ عَجباً، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ نفيس خطيرٍ يطولُ طَريقُهُ ويكْثُرُ التَّعَبُ في تحصيلِهِ.

فإنَّ العلمَ لمَّا كانَ أشرفَ الأشياءِ؛ لمْ يَحْصُلْ إلاَّ بالتَّعَبِ والسَّهَرِ والتَّكْرارِ وَهَجْرِ اللَّذَّاتِ والراحةِ، حتى قالَ بعضُ الفقهاءِ: بَقيتُ سِنينَ أشتهي الهريسةَ لا أقدِرُ؛ لأنَّ وقتَ بَيْعها وقتُ سَماع الدرس!

ولولا ما عانى يوسُفُ عليه السلامُ؛ ما قيلَ لهُ: ﴿ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف: ٤٦].

ولقد تأمَّلْتُ نَيْلَ الدُّرِّ من البحرِ، فرأيتُهُ بعدَ معاناةِ الشَّدائِدِ. ومَن تَفَكَّرَ فيما ذكرتُه مَثَلاً؛ بانَتْ له أمثالٌ.

* وما يتناهى في طَلَبِ العلم إلاَّ عاشقُ العلم، والعاشقُ ينبغي أن يصبِرَ على المكارِهِ.

* وأعظمُ البلايا: أنْ يُعْطِيَكَ هِمَّةً عاليةً، ويمنَعَك من العملِ بِمُقْتَضاها، ويُرِيَكَ العلومَ في مقام معشوقٍ، ويُضْعِفَ بَدَنَك عن الإعادة، ويُخْلِيَ يديكَ من المال الذي تَحْصُلُ به الكتبُ!

* كانت هِمَمُ القدماءِ من العلماءِ عَلِيَّةً، تدلُّ عليها تصانيفُهم التي هي زُبدةُ أعمارِهم؛ إلاَّ أنَّ أكثرَ تصانيفِهم دَثَرَتْ؛ لأنَّ هِمَمَ الطُّلابِ ضَعُفَتْ، فصاروا يطلُبونَ المختصراتِ، ولا يَنْشِطونَ للمطوَّلاتِ، ثم اقتصَروا على ما يدرُسونَ به من بعضِها، فَدَثَرَتِ الكتبُ، ولم تُنْسَخْ!

فسبيلُ طالبِ الكمال في طَلَبِ العلم الاطِّلاعُ على الكتبِ التي قد تخلَّفتْ من المصنَّفاتِ، فَلْيُكْثِرْ من المطالعةِ؛ فإنَّه يرى من علوم القوم وعلوِّ هِمَمِهِم ما يَشْحَذُ خاطِرَهُ ويحرِّكُ عزيمتَه للجدِّ، وما يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

وأعوذ باللَّـهِ من سِيَرِ هؤلاء الذين نعاشِرُهم! لا نرى فيهم ذا هِمَّةٍ عاليةٍ فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحبَ ورع فيستفيدُ منه الزاهدُ.

فـاللَّـهَ اللَّـهَ! وعليكُـم بمـلاحظـةِ سِيَـرِ السَّلـفِ ومطـالعـةِ تصـانيفِهـم وأخبارِهم؛ فالاستكثارُ من مطالعةِ كُتُبِهِم رؤيةٌ لهم؛ كما قالَ:

فـاتَنـي أنْ أرى الـدِّيـارَ بِطَـرْفـي　　　فَلَعَلِّـي أرى الـدِّيـارَ بِسَمْعِـي

وإني أخْبِرُ عن حالي: ما أشبعُ من مطالعةِ الكُتُب، وإذا رأيتُ كتاباً لم أره؛ فكأني وقعتُ على كنزٍ، ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتبِ الموقوفةِ في المدرسةِ النظاميَّةِ؛ فإذا به يحتوي على نحوِ ستةِ آلاف مجلَّدٍ، وفي ثَبَتِ كتبِ أبـي حنيفةَ، وكتبِ الحُمَيْدِيِّ، وكتبِ شيخنا عبدِ الوهاب بن ناصرٍ، وكتبِ أبـي محمدِ بن الخشَّابِ وكانت أحمالاً... وغير ذلك من كلِّ كتابٍ أقدِرُ عليه، ولو قلتُ: إني طالعتُ عشرينَ ألفَ مجلَّدٍ؛ كانَ أكثرَ، وأنا بعدُ في الطلب! فاستفدتُ بالنظرِ فيها من ملاحظةِ سِيَرِ القوم وقَدْرِ هِمَمِهِم وحِفْظِهم وعباداتِهم وغرائبِ علومِهِم ما لا يعرِفُه مَن لم يطالِعْ، فصرتُ أستزري ما الناسُ فيه وأحتقِرُ هِمَمَ الطلابِ. ولله الحمدُ.

* ونظرتُ إلى علوِّ هِمَّتي؛ فرأيتُها عَجَباً، وذلك أنني أرومُ من العلم ما أتيقَّنُ أني لا أصلُ إليه؛ لأنني أحبُّ نيلَ كلِّ العلوم على اختلافِ فنونها، وأريدُ استقصاءَ كلِّ فنٍّ! هذا أمرٌ يَعْجَزُ العمرُ عن بعضه.

فإنْ عَرَضَ لي ذو هِمَّةٍ في فنٍّ قد بَلَغَ مُنْتَهاه؛ رأيتُه ناقصاً في غيرِه؛ فلا أَعُدُّ هِمَّتَهُ تامَّةً؛ مثلُ المحدِّثِ فاتَهُ الفقهُ، والفقيهِ فاتَهُ علمُ الحديثِ؛ فلا أرى الرضى بنقصانِ العلوم إلاَّ حادِثاً عن نَقْصِ الهِمَّةِ.

ثم إني أرومُ نهايةَ العمل بالعلم، فأتوقُ إلى وَرَعِ بِشْرٍ وزَهادةِ معروفٍ! وهذا مع مطالعةِ التَّصانيفِ وإفادةِ الخَلْقِ ومعاشرتِهم بعيدٌ.

ثم إني أرومُ الغِنى عن الخَلْقِ، وأستشرفُ الإفضالَ عليهم! والاشتغالُ بالعلم مانعٌ من الكَسْبِ، وقَبولُ المِنَنِ مما تأباهُ الهمةُ العاليةُ.

ثم إني أتوقُ إلى طلبِ الأولادِ كما أتوقُ إلى تحقيقِ التصانيفِ؛ ليبقى الخَلَفانِ نائِبَيْنِ عني بعد التَّلَفِ! وفي طلبِ ذلك ما فيه من شُغْلِ القلبِ المحبِّ للتفرُّدِ.

ثم إني أرومُ الاستمتاعَ بالمستحسناتِ! وفي ذلك امتناعٌ من جهةِ قِلّةِ المالِ، ثم لو حَصَلَ؛ فرَّقَ جَمْعَ الهِمَّةِ.

وكذلك أطلبُ لبدني ما يُصْلِحُهُ من المطاعم والمشاربِ، فإنَّه مُتَعَوِّدٌ للتَّرفُّهِ والتَّلطُّفِ! وفي قلةِ المال مانعٌ.

وكلُّ ذلك جَمْعٌ بين أضدادٍ.

فأين أنا وما وصفتُهُ مِن حالِ مَن كانتْ غايةَ هِمَّتِهِ الدُّنيا، وأنا لا أحبُّ أنْ يَخْدُشَ حصولُ شيءٍ من الدُّنيا وَجْهَ دِيني بسببٍ، ولا أنْ يؤثِّرَ في عِلْمي ولا في عَمَلي؟!

فوا قلقي من طلب قيام الليل وتحقيقِ الوَرَع؛ مع إعادةِ العلم، وشُغْل القلبِ بالتصانيفِ، وتحصيل ما يلائمُ البَدَنَ من المطاعم! ووا أسفي على ما يفوتُني من المُناجاةِ في الخلوةِ؛ مع ملاقاةِ الناسِ وتعليمِهِم! ويا كَدَرَ الورع؛ مع طَلَبِ ما لا بدَّ منه للعائلة!

غير أني قد اسْتَسْلَمْتُ لتعذيبي، ولعلَّ تَهْذيبي في تعذيبي؛ لأن علوّ الهِمَّةِ تَطْلُبُ المعالي المقرِّبَةَ إلى الحق عزّ وجلّ.

وربَّما كانتِ الحَيْرَةُ في الطَّلَبِ دليلاً إلى المقصودِ.

وها أنا أحفظُ أنْفاسي منْ أنْ يَضيعَ منها نَفَسٌ في غير فائدةٍ.

وإنْ بَلَغَ هَمِّي مرادَه، وإلاَّ؛ فنيةُ المؤمنِ أبلغُ من عملِه.

* تأملتُ أحوالَ الناسِ في حالةِ عُلُوِّ شأنِهم، فرأيتُ أكثرَ الخَلْقِ تبينُ خسارتُهم حينئذٍ؛ فمنهُم مَن بالَغَ في المعاصي مِن الشباب، ومنهُم من فَرَّطَ في اكتسابِ العلم، ومنهُم مَن أكْثَرَ من الاستمتاع باللَّذَّاتِ... فكلُّهم نادمٌ في حالةِ الكِبَرِ، حين فواتِ الاستدراكِ لذنوبٍ سَلَفَتْ، أو قُوىً ضَعُفَتْ، أو فضيلةٍ فاتتْ، فيَمْضي زمانُ الكِبَرِ في حسراتٍ؛ فإن كانتْ للشيخ إفاقةٌ من ذُنوبٍ قد سَلَفَتْ؛ قالَ: وا أسفا على ما جَنَيْتُ! وإنْ لم يكنُ له إفاقةٌ؛ صارَ متأسِّفاً على فواتِ ما كانَ يَلْتَذُّ به.

فأمّا مَن أنفقَ عَصْرَ الشَّبابِ في العلم؛ فإنَّه في زمنِ الشيخوخةِ يَحْمَدُ جَنَى ما غَرَسَ، ويلتذُّ بتصنيفِ ما جَمَعَ، ولا يرى ما يَفْقِدُ من لَذَّاتِ البدنِ شيئاً بالإضافةِ إلى ما ينالُهُ من لذاتِ العلم، هذا مع وجودِ لَذَّاتِه في الطلبِ الذي كان تَأَمَّل بِه إدراكَ المطلوبِ، وربَّما كانت تلك الأعمالُ أطيبَ ممّا نيلَ منها؛ كما قال الشاعرُ:

أهْتَـزُّ عنـدَ تمَنِّـي وَصْلِهـا طَـرَبـا ... ورُبَّ أُمْنِيَـةٍ أحْلـى مِـنَ الظَّفَـرِ

ولقد تأملتُ نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذينَ أنْفَقوا أعمارَهُم في اكتساب الدُّنيا، وأنفقتُ زَمَنَ الصَّبْوَةِ والشبابِ في طلبِ العلم، فرأيتُني لم يَفُتْني مما نالوُه؛ إلاَّ ما لو حَصَلَ لي؛ ندمتُ عليه.

ثم تأملتُ حالي؛ فإذا عَيْشي في الدُّنيا أجودُ من عيشِهِم، وجاهي بينَ الناسِ أعلى من جاهِهِم، وما نلتُهُ من معرفةِ العلم لا يقاوَمُ.

فقال لي إبليسُ: ونَسِيتَ تَعَبَكَ وسَهَرَكَ؟!

فقلتُ له: أيُّها الجاهلُ! تقطيعُ الأيدي لا وَقْعَ له عند رؤية يوسُفَ، وما طالت طريقٌ أدَّتْ إلى صَدِيقٍ.

جَـزَى اللَّـهُ المَسيـرَ إليـه خَيْـراً وإنْ تَـرَكَ المَطَـايـا كـالمَـزادِ

ولقدْ كنتُ في حَلاوةِ طَلَبـي العلمَ ألقى من الشدائِدِ ما هُو عندي أحلى من العسلِ لأجلِ ما أطلُبُ وأرجو، كنتُ في زمانِ الصِّبا آخُذُ معي أرغفةً يابسةً، فأخرُجُ في طلبِ الحديثِ، وأقعدُ على نهرِ عيسى، فلا أقدِرُ على أكلِها إلَّا عند الماءِ؛ فكلَّما أكلتُ لقمةً، شَرِبْتُ عليها، وعينُ هِمَّتي لا ترى إلَّا لَذَّةَ تَحْصيل العلم.

فأثْمَرَ ذلك عندي أني عُرِفْتُ بِكَثْرَةِ سماعي لحديث سير الرسول ﷺ وأحوالِـهِ وآدابِـه وأحـوالِ أصحـابِـه وتـابعيهـم، فصِـرْتُ فـي معـرفـةِ طـريقـهِ كابنِ أَجْوَدَ.

وأثْمَرَ ذلك عندي من المعاملة ما لا يُدْرَك بالعلم، حتّى إنني أذكُرُ في زمان الصَّبْوَةِ ووقتِ الغُلْمَةِ والعُزْبَةِ، قدرتي على أشياء كانتِ النفسُ تتوقُ إليها تَوَقان العطشانِ إلى الماءِ الزُّلالِ، ولم يَمْنَعْني عنها إلَّا ما أثْمَرَ عندي العلمُ من خوفِ اللَّهِ عزّ وجلّ، ولولا خَطايا لا يخلو منها البشرُ؛ لقدْ كنتُ أخافُ على نفسي من العُجْبِ.

غيرَ أنَّه عزّ وجلّ صانني وعلَّمَني وأطلعَني من أسرار العلم على معرفَتِهِ وإيثارِ الخَلْوةِ به، حتى إنه لو حَضَرَ معي معروفٌ وبِشْرٌ، لرأيتُهما زَحْمةً. ثم عادَ، فَغَمَسَني في التقصير والتفريط، حتى رأيتُ أقلَّ الناس خيراً مني. وتارةً يوقِظُني لقيام الليل ولَذَّة مناجاتهِ، وتارةً يَحْرِمُني ذلك مع سلامة بَدَني. ولولا بِشارةُ العلم بأنَّ هذا نوعُ تهذيبٍ وتأديبٍ؛ لَخَرَجْتُ إمّا إلى العُجْبِ عند العمل، وإمّا إلى اليأسِ عند البَطالةِ.

لكنَّ رجائي في فضلِهِ قد عادَلَ خوفي منه.

وقد يغلِبُ الرجاءُ بقوةِ أسبابه؛ لأني رأيتُ أنه قد ربَّاني منذُ كنتُ

طفلاً، فإنَّ أبـي ماتَ وأنا لا أعْقِلُ والأمُّ لم تلتفتْ إليَّ، فَرَكَزَ في طبعي حبَّ العلم، وما زال يوقِعُني على المهمِّ فالمهمِّ، ويَحْمِلُني إلى مَن يَحْمِلُني على الأصوب، حتى قوَّمَ أمري، وكم قدْ قَصَدني عدوٌّ فَصَدَّه عنِّي.

وإذ رأيتُهُ قد نَصَرني وبَصَّرني ودافعَ عنِّي ووَهَبَ لي؛ قوِيَ رجائي في المستقبل بما قد رأيتُ في الماضي، ولقدْ تابَ على يدي في مجالسِ الذِّكْرِ أكثرُ من مئتي ألفٍ، وأسلمَ على يدي أكثرُ من مئتي نفسٍ، وكم سالَتْ عينُ مَتَجبِّرٍ بوعْظي لم تكنْ تَسيلُ... ويَحِقُّ لمَنْ تَلَمَّحَ هٰذا الإنعامَ أنْ يَرْجُوَ التَّمامَ.

وربما لاحَتْ أسبابُ الخوفِ بنَظَري إلى تقصيري وزَلَلي.

ولقد جلستُ يوماً، فرأيتُ حولي أكثرَ من عَشَرَةِ آلافٍ، ما فيهم إلاَّ مَن قَدْ رَقَّ قلبُه، أو دَمَعَتْ عينُه، فقلتُ لنفسي: كيف بكِ إنْ نَجَوْا وهَلَكْتِ؟! فصِحْتُ بلسانِ وَجْدي:

إلهي وسَيِّدي! إنْ قَضَيْتَ عليَّ بالعذاب غداً؛ فلا تُعْلِمْهُم بعذابـي؛ صيانةً لكرمِكَ، لا لأجلي؛ لئلاَّ يقولوا: عَذَّبَ مَن دَلَّ عليه.

إلهي! قد قيلَ لنبيِّكَ ﷺ: اقتُلْ ابنَ أُبَـيٍّ المنافقَ! فقال: «لا يَتَحَدَّثُ الناسُ أنَّ محمَّداً يَقْتُلُ أصحابَهُ»[1].

إلهي! فاحفظْ حُسْنَ عقائِدِهم فيَّ بكرمِكَ أنْ تُعْلِمَهُم بعذابِ الدَّليل عليكَ. حاشاكَ واللّهِ يا ربِّ من تَكْديرِ الصَّافي.

لا تَبْــرِ عُــوداً أنْــتَ رَيَّشْتَــهُ   حــاشـا لِبـانِــي الجُـودِ أنْ يَنْقُضـا

(١) رواه: البخاري (٦١ ـ كتاب المناقب، ٨ ـ باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ٦/٥٤٦/٣٥١٨)، ومسلم (٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، ١٦ ـ باب نصر الأخ ظالماً ومظلوماً، ٤/١٩٨٨/ ٢٥٨٤)؛ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

لا تُعْطِشِ الزَّرْعَ الذي نَبْتُهُ   بِصَوْبِ إنْعامِكَ قدْ رَوَّضا

* * *

ومنهم: محمد علي السنوسي[1]:

فـي سبيل العلوم والآداب   ذاب قلبي هوى وشاب شبابي
عاشقٌ مدنف ومحبوبيَ الحرف   وكم للحرفِ من أحبابي
رأس مالي وقد بدأت مِن الصفر   طموحي وهمَّتي وكتابي
وأب فاضل تعهَّد إرشادي   إلى منهج الهدى والصواب
حين كنا ولا تسل كيف كنا   نعصر الماء من أديم السرابِ
نحفظ الدرس في ضياء (الفوانيس)   على شاحب من النور خابِ
ونطيل الجلوس فوق حصير   في (الكتاتيب) غارق في الترابِ
حبر أقلامنا من الفحم مصنوع   وأوراقنا من الأخشابِ
لست أدري ما (الجامعات)   وما فيها من الناجحين والرُسَّابِ
جامعاتي هي الحياة وأستاذي   هو الدهرُ صانع الطلاّبِ
والشهادات في يدي نتاج   أدبيٌ وموقفٌ إيجابي
ما عرفت الفراغ يوماً ولا اللهو   ولا لعبة من الألعابِ
لعبتي إن لعبت سفرٌ أناجيه   وصحف أجلو بهنَّ اكتئابي
واقتناءُ الكتابِ أشهى إلى نفسي   وأحلى من اقتناء الثيابِ
اقرأ اقرأ رسالة الله جاءت   لنبي الهدى أجلّ خطابِ
لفظة فذة بها أصبح الجدب   خصيباً في عالم الأعرابِ
وانطلقنا والريح تعصف أحياناً   وترمي بالزورق المنسابِ
وشراع الحياة في لجج الموج   مُصِرٌّ على اجتياز العُبابِ

---

(١) الأعمال الكاملة، محمد علي السنوسي ص٦٥٢، قصيدة بعنوان «عاشق الفن».

قـرَّحـت عينـي القـراءة تعـذيبـاً ... وحبـي لهـا يـزيـد عـذابـي

كلمـا رمـت عـن هـواهـا سلـوى ... عُـدت مـن رغبتي بغيـر جـوابـي

ذاك دأبـي مـدى الـزمـان وطبعي ... أبـداً فـي إقـامتـي واغتـرابـي

(عـاشـق الفـن) مـا لـه مـن دواء ... أعجـز الطـب والأطبّـاء مـا بـي

* * *

ومنهـم: أبـو العبـاس أحمـد بـن عبـد الـرحمـن بـن الصقـر الخزرجي[1]:

فارق الدنيا ولم تكن همته مصروفة إلاَّ إلى العلم وأسبابه، اقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه الرائق، وامتُحن فيها مرّات بضروب من الجوائح كالغرق والنهب بغرناطة، فقد كان استصحب إليها من مراكش خمسة أحمال، ولمّا فصل عنها تركها مع ما صار له منها مدة مقامه بها، فأتى عليه النهب في الكائنة على أهل غرناطة عند قيامهم على لمتونة وتحصّن لمتونة بقصبتها وما دار بينهم من القتال إلى أن تغلّب أهل القصبة على أهل البلد وتمكنوا من البلد تمكّن عنوة واستباحوه استباحة قهر، وفرّ معظم الناس عن منازلهم. فكان ممن فرّ عن منزله عيالُ أبـي العباس هذا وبعضُ وَلَده الذين تركهم بها حين توجه إلى مراكش، فنهب ما كان بداره من كتب وغيرها.

وكذلك طرأ له بمراكش حين دخلها عبد المؤمن وطائفته، فقد كان جمع منها بمراكش عظيماً، وأخبر أنه كان في حين حصار مراكش ــ والحال بها ضيق والسعر شديد ــ أنه كان يخرج بالدّرهم ليشتري به قوتاً لنفسه ولعياله فربما صادف في طريقه كتاباً بيد إنسان فيشتريه منه بذلك الدرهم

---

(١) الذيل والتكملة ١/ ٢٩٩، والإحاطة ١/ ١٨٦، والديباج المذهب ١/ ٢١٣.

ويرجع دون قوت ويبقى هو وعياله طاوياً إلى أن ييسّر الله في غيره.

* * *

ومنهم: محمود أبو الوفا[1]:

إذا ضم الثرى جسدي، وراحوا
وخلُوني.. رهيناً في التراب

وحيداً.. من أحبائي وأهْلي
وممن قد عرفت من الصّحاب

فإني، سوف ألقى الله ربي
بقلْبي، ثم حُبّي للكتاب

* * *

ومنهم: سند بن علي ـ عالم الهندسة والحساب والفلك[2] ـ:

حدث شجاع بن أسلم الحاسب، قال: قلت لسَنَد بن عليّ: من كان سببَك إلى المأمون، حتى اتصلتَ به، وكنت في جلسائه، من العلماء؟

فقال: «أحدِّثُك به، كان والدي يتكسَّبُ بصناعة أحكامِ النجوم مع قومٍ من أسباب السلطان يَوَدُّونه ويحبُّونه، وتعلَّق قلبي بعد فَرَاغِي من قراءةِ كتاب أُقليدِس بكتاب المِجسطي.

وكان ـ في أيام المأمون بسُوقِ الورّاقين ـ رجلٌ يُعرف بمعروفٍ، يُوَرِّق هذا الكتابَ ويبيعُه ـ بعد تكامُل خَطِّه وأشكالِه وتجليدِه ـ بعشرين

---

(١) محمود أبو الوفا، دواوين شعره ص ٢٦٢، قصيدة بعنوان «رهين التّراب».

(٢) المكافأة ص ١٤٠، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٧٥.

ديناراً، فسألت والدي ٱبتياعَه لِـي، فقال: أنظِرْني يا بُنَيّ إلى أن يتهيّأ لي شيء آخُذُه، إما من رزقٍ وإما من فضل، وأبتاعُه لَك.

وكان لي أخٌ لا يشتهي مما تقدمت أنا فيه من العلم شيئاً؛ إلاّ أنه كان يخدُمُ أبـي في حوائجه والإشفاق عليه، فلما سَوّفني أبـي بالكتاب وطالتِ المدَّة فيه، ركبتُ معه لأمسك دَابَّته في دخوله إلى من يدخُل إليه، ولي إذ ذاك سبع عشرة سَنَة. فخرج إليّ غلمانٌ من كان عنده فقالوا: انصرف، فقد أقام أبُوك عند مَوْلانا. فمضيت بالدّابّة فبعتُها بسَرْجِها ولجامِها بأقلّ من ثلاثين ديناراً، ومضيت إلى معروفٍ فاشتريتُ الكتابَ بعشرين ديناراً.

وكان لي بيتٌ أخلو فيه، وجئتُ إلى أمي فقلت لها: قد جنيتُ عليكُمْ جنايةً، واقتصَصْتُ عليها القصَّة، وحَلَفْتُ لها: إن شَحَذْت أبـي علّي حتَّى يمنَعُني من النّظر في الكتاب لأخرُجَنَّ عنهم إلى أبعد غاية، ورَدَدْت عليها فَضْلَ ثمنِ الدّابة، وقلت لها: أنا أُغلق بَابَ هذا المنزلِ الذي لي، وأرضى منكم برغيفٍ يُلْقى إليَّ كما يُلْقَى إلى المحبوسِ، إلى أن أقرأه جميعَه.

فتضَمَّنت لي بتسكين فَوْرَتِه، ودخلتُ البيت وأغلقتُه من عندي. فمضى أخِـي إلى والدي في الموضع الذي كان فيه، فأسرَّ إليه الخبر، فتغير وجهُهُ، وتلجلَجَ في حديثه، فقال له مَنْ كان عنده: قد شَغَلْتَ قلبـي وقلبَ مَنْ حَضَر بما ظهر منك، فبحقِّي عليك إلاّ أخبرتنا لِم ذا؟

قال فحدثه: فقال: هذا والله يَسُرّنا في ولدك؛ فاتَّعِدْ فيه بكل جميل، ثم استحضر من إسْطَبْلِه بَغْلاً أفرهَ من بغل أبـي، وسَرْجاً خيراً من سَرْجه، وقال لِأَبِـي: اركَبْ هذا البغلَ، ولا تكلِّم ابنَكَ بحرفٍ.

قال سَنَد: وأقمت ثَلاثَ سنين كيومٍ واحد، لا يرى لي أبـي صورةَ وجهٍ، وأنا مُجِدٌّ حتى استكملتُ كتاب المجسطي. ثم خرجتُ وقد عَمِلت

أشكالاً مُسْتَصْعِبَاتٍ ووضعتُها في كُمِّي. وسألت: هل للمهندسين والحسّاب موضعٌ يجتمعون فيه؛ فقيل لي: لهم مجلس في دارِ العباس بن سعيد الجوهري تِرْبِ المأمون، يجتمع فيه وجوهُ العلماء بالهَيْئَة والهندسة. فحضرته، فرأيت جَمِيع من حضر مَشايخ، ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيري، لأني كنت في العشرين سنة.

فقال العباس: من تكون؟ وفيمَ نَظَرتَ؟ فقلت: غلام يحبُّ صناعةَ الهندسة والهيئة، قال: ما قرأتَ؟ قلت: أُقليدس والمجسطي، قال: قراءَة إحاطة؟ قلت: نعم.

فسألني عن شيء مستصعِب في كتاب المجسطي، كان تفسيره في الأوراق التي كانت في كمِّي، فأجبْتُه، فعجب وقال: مَن أفادك هذا الجواب؟، قلت: استخرجتْهُ قَرِيحَتي، وما سمعته من غيري، وهو وغيرهُ فيما مرَّ بي في وَرَقٍ معي، قال: هاته. فلما رآه اغتَاظَ واضطرب، ثم قال لبعض من بين يديه من غلمانه: السَّفَط. فجيء به، فنظر إلى خاتَمه فوجده بحاله، ثم فَضَّه وأخرج منه كُرّاسةً فجعل يقابلُ بها الورقَ الذي كان معي، فكان الكلامُ فيما معه أحسن رَصْفاً من الكلام الذي معي. والمعنى واحد.

فقال: هذا شيءٌ تولَّيتُ تبيينَه من كتاب المجسطي، فلمَّا أحْضرتنيه توهَّمْتُ أنه سُرِق منّي، حتى تبيَّنْت ٱختلاف اللفظين مع ٱتّفاق المعنى. ثم أمر أن تُقطع لي أقْبية، وتُرتاد لي مِنْطَقةٌ مُذَهَّبة، ففُرغ من جميع ذلك في تلك الليلة، ودخل بِي إلى المأمون، وأمَرني بملازمته؛ وأجرى لي أنزالاً ورِزْقاً.

* * *

من ديوان المنظوم[1]:

حبيبـي من الدنيا الكتاب فليس لي	إلى غيره ما بـي إليه من الفقر
كأنَّ لصوق الروح بالروح مانح	دنـوّاً بـلا بُعْـدٍ ووصـلاً بـلا هجـر
فكرسيه حجْري إذا كنت قاعداً	وإن أضطجع أفرشه مستلقياً صدرِي

* * *

ومنهم: علي بن مسعود بن نفيس الموصلي[2]:

هو الفقيه المحدث الصالح المفيد نور الدين أبو الحسن الموصلي، ثم الحلبـي، نزيل دمشق.

قرأ ما لا يوصف كثرة، وحصَّل أصولاً كثيرة، كان يجوع ويبتاعها، وعُدم له من ذلك شيء كثير في وقعة التتار، ووقف بقيتها. وذكر أنه كان يقنع بكسرة.

* * *

ومنهم: دجون راسكن[3]:

يقول: إذا كان الكتابُ جديراً بالقراءَةِ فإنَّهُ جديرٌ بأن يشترى.

* * *

ومنهم: أحمد بن محمد السِّلَفيّ[4]:

قال الأَوْقِيُّ: سمعتُه يقول: لي ستون سنة ما رأيتُ مَنَارةَ الإِسكندرية

---

(١) ربيع الأبرار ٣/ ٢٣٢، والمخلاة ص ٢١.

(٢) تذكرة الحفاظ ص ١٥٠٠، الدرر الكامنة ٣/ ١٢٩، المنهل الصافي ٨/ ٢١٥.

(٣) من حصاد الفكر العالمي ص ٦٤، وكنوز الحكمة ص ٤٦٠، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥١٠، وقاموس الحكم والأمثال ص ٥٠٨، وسنابل الزمن ص ٢٢، وكلمات من ذهب ص ٦٦٣.

(٤) تاريخ الإسلام ٤٠/ ٢٠٤، وصفحات من صبر العلماء ص ٩٣.

ـ وكانت من أعاجيب الدنيا السَّبعَة ـ إلَّا من هذه الطاقة، يعني طاقَةَ حُجْرتِهِ في المدرسة.

قال الحافظ عبد القادر الرُّهَاوي: بلغني أنه في مدة مُقامِه بالإسكندرية، ما خَرَج إلى بُستانٍ ولا فُرْجَةٍ غيرَ مرةٍ واحدة، بل كان عامَّةَ دهرِه ملازماً مدرستَه، وما كنا ندخُلُ عليه إلَّا نراهُ مُطالعاً في شيء.

وقال الحافظ عبد العظيم المنذري: كان السِّلَفِي مُغرًى بجَمْع الكتب، وما حَصَل له من المال يُخرِجُه في ثمنها، وكان عنده خزائنُ كتب لا يَتفرَّغُ للنظر فيها، فعَفِّنَتْ وتَلَصَّقَتْ لنداوةِ البلد! فكانوا يُخلِّصونها بالفأس! فتَلِفَ أكثرُها!

* * *

ومنهم: محمود عماد[1]:

يا ليت من مهَّدوا التراب لرأسه	أرسوا كتاباً تحته كوساد
أو ليتهم جعلوا دعائم قبره	كتباً لينعم بينها برقاد
قد كان صبا بالكتاب متيماً	لا صب سارة أو حبيب سعاد
يهفو إليه مطالعاً ومؤلفاً	يعطيه من بصر له وفؤاد
وغداً سيأخذ إذ يقوم كتابه	بيمينه ويثاب بعد جهاد
هل كان أخلص في البلاد مجاهد	منه لدينٍ أو لنفع عباد؟

* * *

ومنهم: الإمام أحمد بن حنبل[2]:

قال عبد الله بن أحْمَد: نزلنا بمَكّة دَاراً، وكان فيها شيخ يُكنى

---

(١) عود على بدء ص ٧٨، من قصيدة «عباس محمود العقاد يخلي ميادينه».

(٢) حلية الأولياء ٩/ ١٧٩، وتاريخ دمشق ٥/ ٣٠٣.

بأبـي بَكر بن سَماعة ــ وَكَان من أهْل مَكّة ــ قال: نزل عَلينَا أبُو عَبْد الله أحمد بن محمد بن حنبل في هذَه الدّار، وَأنا غلام، قال: فقالت لي أمّي: الزم هذا الرجل فاخدمه، فإنه رَجُل صالح. فكنت أخدمُه، وكان يخرج يطلبُ الحَديث، فسرق متاعه وَقماشه، فجاء يَوماً فقالت له أمّي: دَخَل عَليْك السراق فسرقُوا قماشك، فقال: مَا فعلت الألوَاح؟ فقالت له أمّي: في الطاق. وَمَا سَأل عن شيءٍ غيرهَا.

* * *

ومنهـم: خليل مردم[1]:

ولستُ بهيّابٍ من الموت والرَّدىٰ ... ولا فرق عندي طال أَو قَصُرَ العمرُ

ولكنَّنـي أَخشـىٰ فـراقَ أَحبَّـةٍ ... كِـرامٍ وأسفـار إِذا ضمَّنـيَ القبـرُ

* * *

ومنهم: الحافظ المحدِّث الجوَّال محمد بن طاهر المقدسي[2]:

ولد في بيت المقدس سنة ٤٤٨هـ، وتوفي في بغداد عند عودتِهِ من الحجّ سنة ٥٠٧هـ،

قال: كتبتُ «صحيح البخاري» و «مسلم» و «أبـي داود» سَبْعَ مراتٍ بالوِراقةِ (أي بالأجرة)، وكتبتُ «سنن ابن ماجه» عَشْرَ مرات بالوِراقة، سوى التفاريقِ بالريّ.

وبُلْتُ الدَّمَ في طلب الحديث مرَّتين: مرة ببغداد، ومرةً بمكة، وذلك أني كنت أمشي حافياً في حَرّ الهواجر بهما فلحقَني ذلك! وما ركبتُ دابّةً قط

---

(١) ديوان خليل مردم ص ٣٤١.

(٢) صفحات من صبر العلماء ص ٣٣٣.

في طلب الحديث إلاَّ مرةً، وكنتُ أحمِلُ كتبي على ظهري، إلى أن استوطنتُ البلاد، وما سألت في حال طلبي أحداً، وكنتُ أعيشُ على ما يأتيني من غيرِ سُؤال.

ورَحَلْتُ من طوسَ إلى أصبهَان لأجلِ حديثِ أبي زُرعَة الرازي، الذي أخرجه مسلم في الصحيح، ذاكرَني به بعضُ المحَدِّثين الرحَّالة بالليل، فلما أصبحتُ شَدَدْتُ عليَّ رَحْلي وخرجتُ إلى أصبهان، ولم أحلُل عنه حتى دخلتُ على الشيخ أبي عَمْرو، فقرأتُه عليه، عن أبيه، عن أبي بكر القطان، عن أبي زُرْعة، ودَفَعَ إليَّ أبو عَمْرو ثلاثَةَ أرغفة وكُمَّثْراتَين، وما كان وَقَعَ إليّ تلك الليلة قُوْتي، ولم يكن لي قُوتٌ غيرُه، ثم لَزِمتُه إلى أن حَصَل ما كنتُ أريد، ثم خرجتُ إلى بغداد، فلما عُدت إلى أصبهان كان قد تُوفِّي رحمه الله تعالى.

وكنتُ يوماً أقرأُ على أبي إسحاق الحبَّال بمصر «جزءاً»، فجاءني رجل من أهل بلدي من بيتِ المقدس، وأسَرَّ إليَّ كلاماً قال فيه: إنَّ أخاك قد وصَلَ من الشام، وذلك بعدَ دخولِ الأتراك بيتَ المقدس وقَتْلِ الناس بها، فأخذتُ في القراءة، فاختَلَطتُ ولم يُمْكني أن أقرأ! فقال لي أبو إسحاق: ما لك؟ قلتُ: خَيْر، قال: لا بدُ أن تُخبِرني ما قال لك هذا الرجل، فأخبرته فقال لي: وكم لك لم تَرَ أخاك؟ قلت: سنين، قال: ولم لا تَذْهَبُ إليه؟ قلت: حتى أُتِمَّ «الجزء»، فقال: ما أعظَمَ حِرصَكم يا أصحابَ الحديث؟! قد تَمَّ المجلسُ وصلَّى الله على محمد، وانصرَف.

وأقمتُ بتِنيِّسَ مدةً على أبي محمد بنِ الحدَّاد ونظرائِه، فضَاقَ بِي، ولم يَبْقَ معي غيرُ درهم! وكنتُ في ذلك اليومِ أحتاجُ إلى خُبْزٍ وإلى وَرَقٍ للكتابة، فكنتُ أتردَّدُ إن صرفتُه في الخبز لم يكن لي وَرَقٌ للكتابة! وإن

صرفتُه في الورق لم يكن لي خُبز! ومَضَى على هذا ثلاثةُ أيام ولياليهن لم أُطعَمْ فيها!

فلما كان بُكرةُ اليومِ الرابع قلتُ في نفسي: لو كان لي وَرَقٌ لم يمكنني أن أكتُبَ فيه شيئاً لما بـي من الجوع، فجعلتُ الدرهمَ في فَمي، وخرجتُ لأشتري الخُبزَ، فبلعتُ الدرهم! ووقع عليَّ الضَّحِكُ! فلَقِيَني أبو طاهر بنُ خطاب الصائغ المَوَاقيتي بتِنِّيس وأنا أضحكُ! فقال: ما أضحكك؟ قلت: خَيْر، فألحَّ عليَّ وأبيتُ أن أخبره، فحلَفَ بالطلاق: لَتَصْدُقَنّي لِمَ تَضْحَكُ؟ فأخبرتُه، فأخَذَ بيدي وأدخلني منزله، وتكلَّفَ لي في ذلك اليوم ما أَطْعَمُهُ.

فلما كان وقتُ الظهر خرجتُ أنا وهو إلى الصلاة، فاجتمَعَ به بعضُ وكلاءِ عاملٍ كان بِتنِّيس يُعرَف بابن قادُوس، فسألَهُ عني فقال: هو هذا، فقال: إنَّ صاحبي ــ أي أميرَ تَنِّيس ــ أمَرني أن أُوصِلَ إليه كل يَوْمٍ عَشْرَةَ دراهمٍ قيمتُها رُبعُ دينار، وسَهَوْتُ عنه، فأخذ منه ثلاثة مئة درهم وجاءني، وقال: قد سَهَّل الله رِزْقاً لم يكن في الحساب، وأخبرني بالقصة، فقلتُ: يكونُ عندَك ونكون على ما نحن عليه من الاجتماع إلى وقتِ خروجي، فإنني وحدي، وليس لي من يقومُ بأمري ففعَل، وكان بعدَ ذلك يصلني ذلك القَدْرُ إلى أن خرجتُ إلى الشام. انتهى.

* * *

ومنهم: سَلْمان بن عَبد الحميد البغدادي[1]:

وقائلةٍ أَنفقتَ في الكُتْبِ ما حَوَت ... يَمِينُـكَ مـن مـالٍ فَقُلْـتُ وَعَيْنـي
لعلِّـي أَرَىٰ فيهـا كِتـابـاً يَـدُلُّني ... لأخـذِ كِتـابِــي آمِنـاً بيَمِيْنِـي

* * *

---

(١) الجوهر المنضد ص ٤٥، وذيل ابن عبد الهادي ص ٣٥، والسحب الوابلة ٢/ ٤٠٧.

ومنهم: الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل القاضي:

حدّث أبو هفّان[1]: لم أر قطُّ ولا سمعتُ مَن أحبّ الكتبَ والعلومَ أكثرَ من ثلاثة: الجاحظ، والفَتْح بن خَاقَان، وإسْماعيل بن إسْحاق القاضي..

● فأمّا الجاحظ: فإنه كان إذا وقع في يده كتاب قرأه من أوّله إلى آخره، أيّ كتاب كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين، ويبيت فيها للنَّظر».

● وأما الفتحُ بن خاقان: فإنه كان يَحمِلُ الكتابَ في كُمِّه أو في خُفِّه، فإذا قام من بين يدي المتوكل للبولِ أو الصلاة، أَخرَجَ الكتاب فنظر فيه وهو يمشي، حتى يَبلُغَ الموضعَ الذي يريده، ثم يَصْنَعُ مثلَ ذلك في رجوعه، إلى أن يأخذَ مجلسَه. فإذا أراد المتوكل القيامَ لحاجة، أَخرجَ الكتابَ من كُمِّهِ أو خُفِّه، وقرأه في مجلسِ المتوكل إلى حين عَوْدِهِ.

● وأمَّا إسماعيلُ بن إسحاق القاضي: فإني ما دخلتُ عليه قط إلاَّ رأيتُه وفي يدِهِ كتابٌ يَنظُرُ فيه، أو يُقلِّبُ الكتبَ لطلبِ كتابٍ يَنْظُرُ فيه، أو يَنفُضُ الكتب».

* * *

ومنهم: صالح جودت[2]:

كنت ألقاك بدار الكُتُب تُمسي وتباكر

---

(١) الفهرست ص ٣٤٤، وأمالي المرتضى ١/ ١٩٤، وتقييد العلم ص ١٣٩، ومعجم الأدباء ١٦/ ٧٥ و ١٧٤، وتاريخ دمشق ٤٨/ ٢٢٣، وتحفة ذوي الألباب ١/ ٢٩٦، وتاريخ الإسلام ١٨/ ٣٧٣ و ٣٧٥، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٥٢٧، وفوات الوفيات ٣/ ١٧٧، وعيون التواريخ (الثقافة) ص ٣٨٢، والفخري ص ٦، وموسوعة الكنايات ٢/ ٩١، وقيمة الزمن عند العلماء ص ٢٨.

(٢) ديوان صالح جودت ص ٧٣، من قصيدة «رامي».

وتـرى فـي الكُتْـب قبـل النـاس أحبـابـاً وسـامـر
عـاكفـاً كـالـراهـب الهـائـم فـي ظـل الشعـائـر
نـابشـاً بيـن التـواريـخ كَجـلاّب الحفـائـر
غـارقـاً بيـن القـواميـس كغـواص الجـواهـر
تُـرضـع الأوراق بـالحكمـة مـن ثـدي المحـابـر
وتُصلـي لكتـابٍ ذاهـب الطبعـة نـادر
وتُضحـي زهـرة العمـر وطـاقـات المحـاجـر
حـافظـاً كـل قـديـم، دارسـاً كـل مُعـاصـر
زاهـداً فـي نعمـة الـدنيـا، علـى الحـرمـان صـابـر
هـاتفـاً: يـا عُصبـة المـال وطُـلاّب المظـاهـر
كـل مـا أطلـب مـن دنيـاكمـو: ديـوان شـاعـر

ومنهـم: خلـف مـولـى يـوسـف بـن بهلـول البلنسـي المعـروف بالبَرْيَلي[1]:

كان مفتي بَلَنسية في وقته، وعظيمها، ومن أهل العلم والجلالة، وله كتاب في شرح المدونة واختصارها سماه «التقريب». وقد بذل النفيس لشراء الكتب.

ذكر أنه لما أكمل خلف كتابه دخلت منه نسخة صقلية وعبد الحق بن محمد بن هارون السّهمي فقيه صقلية بها، فلما قرأه ونظر فيه إلى أقواله، وما أدخله فيه من كتابه استحسنه وأراد شراءه فلم يتيسر له ثمنه، فباع حوائج من داره واشتراه، فغلا الكتاب وتنافس فيه الناس عند ذلك.

* * *

(١) الديباج المذهب ص ١/ ٣٥٢.

ومنهم: أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن القَصْرِي[1]:

كان فقيهاً صالحاً ورعاً، سريعَ الدمعة، له عنايةٌ بالعلم والرواياتِ وتصحيحِ الكتب وجَمْعِها. وكان يقول: لي أربعون سنةً ما جَفَّ لي قَلَمٌ ـ يعني من كثرةِ ما يَنسَخُ بالليل والنهار ـ. وكان ربما باع بعضَ ثيابِهِ واشتَرَى بثمنِهِ كتاباً أو رُقُوقاً لنسخِ كتاب!

قال أبو بكر المالكي: وَوَصل إلى مدينةِ سُوْسَة برَسْم زيارةِ يحيى بن عُمَر، فوَجَدَهُ أَلَّف كتاباً، فلم يجد ما يشتري به رِقّاً يكتبُه فيه، فباع قميصَه الذي كان عليه! واشتَرى بثمنِهِ رُقُوقاً، وكَتَب الكتابَ وقابَلَه، وأتَى به معه إلى القيروان».

* * *

ومنهم: العلامة الشيخ أحمد بن قاسم الشهير بالحجَّار[2]:

قال الشيخ بكري الكاتب في ترجمتِهِ له: وبلغَتْ قيمةُ مكتبتِهِ بعدَ موته أربعين ألفاً، مع أنها بيعَتْ بغير أثمانها! وكان رحمه الله يحب اقتناء الكتب، حتى سمعنا أنه رأى كتاباً يُباعُ، ولم يكن معه دراهم، وكان عليه ثياب، فنَزَع بعضها وباعَهُ واشترى الكتابَ في الحال.

* * *

ومنهم: الإمام أبو زرعة الرازي:

جاء في «تقدمة الجرح والتعديل» لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، في ترجمة الإمام أبي زُرْعة عُبَيد الله بنِ عبد الكريم الرازي،

---

(١) صفحات من صبر العلماء ص ١٩٤، نقلاً عن معالم الإيمان ٣/ ١١.

(٢) صفحات من صبر العلماء ص ٢٧٨، نقلاً عن أعلام النبلاء ٧/ ٣١١.

المولود سنة ٢٠٠هـ، والمتوفى سنة ٢٦٤هـ رحمه الله تعالى[1]:

قال عبدُ الرحمن: سمعتُ أبا زُرعة يقول: خرجتُ من الرَّيِّ المرَّةَ الثانيةَ سنةَ سَبْعٍ وعشرين ومِئتين، ورَجعتُ سنة اثنتين وثلاثين في أوَّلها ــ فكانت رحلتُه هذه خَمْسَ سنوات ــ.

بَدَأتُ فَحَجَجْتُ ثم خَرجتُ إلى مصر، فأقمتُ بمصرَ خمسةَ عَشَرَ شهراً، وكنتُ عَزمتُ في بُدُوِّ قُدومِي مصرَ أنِّي أُقِلُّ المُقام بها، فلما رأيتُ كثرةَ العلمِ بها، وكثرةَ الاستفادةَ، عَزَمتُ على المُقامَ، ولم أكن عَزمتُ على سَمَاعِ كُتُبِ الشافعي.

فلمَّا عَزمتُ على المُقامِ، وجَّهتُ إلى أَعْرَفِ رجلٍ بمصر بكتُبُ الشافعي، فقبَّلْتُها منه بثمانين دِرْهماً أن يكتُبَها كلَّها، وأعطيتُه الكاغِذَ ــ أي الوَرَقَ ــ، وكنتُ حمَلْتُ مَعِي ثَوْبَيْن دَبِيْقِيَّين لأَقْطَعَهما ــ أي اشتريتُهما من مصر لأُفَصِّلَهُما وأَخِيطَهما في بَلَدي ــ لِنَفْسِي، فلما عَزمتُ على كتابتِها أَمَرْتُ ببَيْعِهِمَا، فبِيْعَا بِسِتِّينَ درهماً، واشتريتُ مِئةَ وَرَقَةِ كاغِذٍ بعشَرَة دراهم، كَتَبْتُ فيها كُتُبَ الشافعي.

* * *

ومنهم: الإمام الزاهد عبد الله بن مبارك[2]:

ذكر الصدفي قال: لما بلغ عبد الله بن المبارك دفع إليه أبوه خمسين ألف درهم يتجر بها، فطلب العلم حتى أفقدها، فلما انصرف لقيه أبوه فقال: ما جئت به؟ فأخرج إليه الدفاتر، فقال: هذه تجارتي. فدخل أبوه المنزل

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٢٦١.

(٢) ترتيب المدارك ١/ ٣٠٠.

فأخرج له أبوه ثلاثين ألف درهم أخرى وقال: هذه تمّم بها تجارتك، فأنفقها.

* * *

ومنهم: الحافظ أبو عبد الله البَجَليُّ الرازي[1]:

هو الحافظُ المسنِدُ أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضُّرَيس البَجَليُّ الرازيُّ، مُصَنِّفُ كتاب (فضائل القرآن).

قال بعض العلماء: سَمِعتُ محمد بن أيوب يقول: آخِرُ قَدْمَةٍ قَدِمتُها البصرة، أدَّيتُ أُجرَةَ الوَرَّاقِين عَشَرَةَ آلافِ درهم.

* * *

ومنهم: عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فُطَيْس، قاضي الجماعة بقرطبة[2]:

كان رحمه الله من كبار المحدّثين، وصدور العلماء المسْنِدين، حافظاً للحديث، متقناً لعلومه، وله مشاركة في سائر العلوم، وجمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان له ستَّةُ ورّاقين، ينسخون له دائماً، وكان وقد رتّب لهم على ذلك راتباً معلوماً، وكان لا يسمع بكتاب حسنٍ إلاَّ اشتراه أو استنسخه، ولما توفي اجتمع أهلُ قُرطبة لبيع كتبه فأقاموا في بيعها مدة عام كامل في المسجد، وكان ذلك في وقت الغلاء والفتنة؛ فاجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية يبلغ صرفها ثمانمائة ألف درهم.

* * *

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٣١٧، نقلاً عن تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٤٣.

(٢) الديباج المذهب ١/ ٤٧٨.

ومنهم: عبد الله بن المبارك العُكْبَري[1]:

المُقرِىء الفقيه الحنبلي المكنّى بأبي محمد، ويُعرف بابنِ نَيَّال، المتوفى سنة ٥٢٨هـ رحمه الله تعالى، عن نيف وسبعين سنة: سَمِعَ ـ الحديثَ ـ من أبي نصر الزَّيْنَبي، ...، وتفقَّه على أبي الوفاء بن عقيل، وأبي سعد البَرَداني، وكان يَصحَبُ شافِعاً الحنبليَّ، فأشار عليه بشراء كُتُب ابن عقيل، فباعَ ملْكاً له! واشتَرَى بثمنِهِ كتاب «الفنون» وكتاب «الفصول»، ووَقَفَهما على المسلمين، وكان خيِّراً من أهل السُّنَّة رحمه الله تعالى.

* * *

ومنهم: يحيى بن محمد بن هبيرة، أبو المظفر الوزير[2]:

كانت له مصنفات حسنة في عدة فنون من العلم في: القراءات، والحديث، والأدب، وأجلّها كتاب «الإفصاح عن معاني الأحاديث الصحاح» شرح فيه أحاديث صحيحي «البخاري» و «مسلم» وبيَّن فقهها ولغتها ومعانيها، بألفاظ تعرب عن نبله وجلاله، وتفصح عن بعد مرماه في الفضل وكماله، وتنبىء عن غزارة علمه، وحسن تصوره وفهمه، وقرىء عليه في مجلس عام، جامع لأئمة أهل الإسلام، ثم إنَّه رتب لحفظ هذا الكتاب، من المتعلمين، ألفاً وثمان مئة طالب، وجعل لهم مئة وأربعين معيداً لتحفيظهم وتفقيههم، بحيث لم يبق مسجد ولا مدرسة إلَّا ويلقى فيهما درس منه، وبعد حفظ الطلبة لدروسهم يحضرون مع معيديهم في حضرة

---

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٣٢١، نقلاً عن ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٨٥.

(٢) خريدة القصر ١/ ٩٨، ومعجم الألقاب ٢/ ٢٧٧، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ص ٤٣٨، والذيل من طبقات الحنابلة ١/ ٢٥٢.

الوزير، فيقرؤون من حفظهم، فيوصل إليهم من المبار والأنعام، ما يدهش سائر الأنام.

ويقال: إنَّهُ أنفق على هذا الكتاب حتى جمعه مئتي ألف دينار، وثلاثة عشر ألف دينار.

* * *

عناية بعضهم بالكتب:

اشترى رجل كتاباً، فقيل له: اشتريت ما ليس من علمك، فقال: اشتريت ما ليس من علمي ليصير من علمي.

وقيل لآخر: ألا تشتري كتباً تكون عندك؟! فقال: ما يمنعني من ذلك إلَّا إنني لا أعلم، فقيل: إنما يشتريها من لا يعلم حتى يعلم.

وكان آخر يشتري كل كتاب يراه، فقيل له: إنك لتشتري ما لا تحتاج إليه، فقال: ربما احتجت إلى ما لا أحتاج إليه.

كان بعض القضاة يشتري الكتب بالدَّين والقرض، فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أشتري شيئاً بلغ بـي هذا المبلغ، قيل: فإنك تكثر؛ فقال: على قدر الصناعة تكون الآلة[1].

* * *

ومنهم: الإمام محمد بن علي الشوكاني[2]:

دخل الأديب يحيى بن المطهر، على العلامة محمد بن علي الشوكاني، فوجده داخل كمة (مكان ضيق في البيت)، ينقب عن الكتب،

---

(١) تقييد العلم ص ١٣٧.

(٢) الأدب اليمني ص ٩٣.

يقول الشوكاني واصفاً حالته تلك، وفرحته بالكتب: كنت في الكمة، ففتح الباب فرأيت الكتب فحصل معي حاصل، سالت معه الدموع مع أنها لا تسيل على بيت ولا أهل ولا مال، فقلت في تلك الحال:

سلام على تلك الدفاتر إن لي ... إليها غراماً فوق كل غرام
سلام عليها إن حييت وإن أمت ... فهذا وداع والدموع دوامي
على أنها ألقت مقاليد وصلها ... إليّ فهامت بي كمثل هيامي
ولكنني لو عشت ما عشت لم أقل ... شفيت غرامي أو قضيت مرامي

* * *

ومنهم: الرئيس أبو علي ابن سينا:

قال القاضي ابن خَلّكان في «وفَيَات الأعيان»[1]، في ترجمة الرئيس أبـي علي بن سِيْنَا (الحسين بن عبد الله بن سِيْنَا)، العالم المتفنن الفيلسوفِ والطبيبِ المشهور، المولود سنة ٣٧٠هـ، والمتوفى سنة ٤٢٨هـ:

ولما بَلَغَ عَشْرَ سنين من عمره، كان قد أتقن القرآن العزيز والأدب، وحَفِظَ أشياءَ من أصول الدين والحساب والجبر والمقابلة، ثم أَحكَمَ عِلمَ المنطق وأُقْليدِس والمِجَسْطي، وفاق شيخَهُ: (الحكيمَ أبا عبد الله النَّاتِلي) أضعافاً كثيرة، وكان مع ذلك يَختلِفُ في الفقه إلى إسماعيل الزاهد، واشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والإلهي، وفَتَح الله عليه أبوابَ العلوم.

ثم رَغِبَ بعدَ ذلك في علم الطب، وتأَمَّل الكتبَ المصنفة فيه، وعالَجَ تأَدُّباً ـ أي تعلُّماً وتعليماً ـ لا تكسُّباً، وعَلِمَ الطِّبَّ حتى فاق فيه الأوائلَ والأواخر في أقلِّ مدة، وأصبَحَ فيه عديمَ النظير فَقِيدَ المِثْل، واختَلَف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه، يقرؤون عليه أنواعَه

---

(١) صفحات من صبر العلماء ص ١٣١، نقلاً عن الوفيات ١/ ١٥٢.

والمعالجاتِ المقتبسةَ من التجربة، وسِنُّهُ إذ ذاك نحوُ سِتَّ عَشْرَةَ سنة!

وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلةً واحدةً بكمالها، ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة، وكان إذا أشكلت عليه مسألةٌ توضَّأ وقَصَد المسجد الجامعِ، وصلَّى ودعا الله عزّ وجلّ أن يُسهِّلَها عليه ويَفتحَ مُغْلَقَها له، وكان نادرةَ عصرِهِ في علمه وذكائه وتصانيفه، وصنَّفَ ما يُقارِبُ مِئَةَ مصنَّف، ما بين مطوَّلٍ ومختصرٍ ورسالةٍ، في فنون شتى.

* * *

ومنهم: عبد الكريم بن علي بن الحسن الرئيس الأثير[1]:

القاضي، أبو القاسم اللخمي، البيساني، العسقلاني المولد المصري الدار، الشافعي، أخو القاضي الفاضل. عبد الرحيم كان له هوسٌ مُفْرِطٌ في تحصيل الكتب مُبالغاً في ذلك إلى الغاية القُصْوى، ملك منها جملةً عظيمةً؛ لم يبلُغْنا عن أحدٍ من الرؤساء أنّ كُتُبَهُ وصلت إلى مبلغ كتب عبد الكريم ولا قريباً منه إلاَّ ما ذُكِرَ عن أخيه، ولم يُقارِبْ هذا عبد الكريم، حتى قيل إنها مائتا ألف مجلَّدة. من كُلِّ كتابٍ نُسَخٌ.

* * *

ومنهم: أبو بكر محمد بن إبراهيم الرازي المعروف بالفقيه الحنفي[2]:

كان يقعد في داره مستقبل الكعبة وكتبه بين يديه وهو في وسطها لا يلتذّ بسواها رحمه الله.

* * *

---

(١) تاريخ الإسلام ٤٢/ ٢٥٠ و ٤٥/ ٦٨، والوافي ١٩/ ٨٢.

(٢) معجم السفر ص ١١٦، والجواهر المضيئة ٣/ ٩.

ومنهم: أحمد بن عبد الله المهدي أبو جعفر[1]:

قيرواني من أصحاب أبي بكر ابن اللباد، من أهل العناية بالعلم. وكان في الدراسة والمطالعة آية، لا يكاد يسقط الكتاب من يده، حتى عند طعامه.

* * *

ومنهم: محمد بن سحنون[2]:

حكى المالكي قال: كانت لمحمد بن سحنون، تسعة أَسِرَّة. يريد لكل سرير سرية. وكانت له سرية يقال لها أم قدام. فكان عندها يوماً، وقد شغل في تأليف كتاب إلى الليل، فحضر الطعام فاستأذنته، فقال لها: أنا مشغول الساعة. فلما طال عليها، جعلت تلقمه الطعام حتى أتت عليه، وتمادى هو على ما هو فيه إلى أن أذن لصلاة الصبح، فقال: شُغلنا عنك الليلة يا أم قدام، هات ما عندك. فقالت: قد والله يا سيدي ألقمته لك، فقال لها: ما شعرت بذلك.

* * *

ومنهم: عبد الملك بن حبيب الأندلسي[3]:

قال أبو عُمَرَ يوسف بن يحيى المَغَامِي: طَرَقْتُ عبدَ الملك ابن حبيب الأندلسي القرطبي يوماً بغَلَس، حِرْصاً على الاقتباس منه، واستأذنتُ عليه، فأذِنَ لي ودَخلتُ، فإذا به جالسٌ في مجلسه، عاكفٌ على الكتب، قد أحاطَتْ به يَنظُرُ فيها، والشمعةُ بين يديه

---

(١) ترتيب المدارك ٢/ ٥٣٦.

(٢) ترتيب المدارك ٢/ ١١٤.

(٣) ترتيب المدارك ٢/ ٤٥، وصفحات من صبر العلماء ص ١١٩.

تَقِدُ، وطَوِيلةٌ عليه، ـ أي على رأسِهِ قَلَنْسُوَة طويلة ـ .

فسلَّمتُ فرَدَّ عليَّ وقال لي: يا يوسف، أَوَقَدِ انسلَخَ الليلُ؟ قلتُ: نعم وقد صلَّينا، فقام إلى صلاةِ الصبح فصلَّاها، ثم رجع إلى مقعده، وقال: يا يوسف، ما صلَّيتُ هذه الصلاةَ إلَّا بوضوءِ العشاءِ الآخِرة.

* * *

ومنهم: الفقيه عبد العزيز بن محمد القروي الفاسي(١):

جاء في «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، للعلامة أحمد بابا التُّنْبُكْتي المالكي في ترجمة الفقيه الصالح المالكي (أبـي محمد عبد العزيز بن محمد القَرَوِي الفَاسِـي) المتوفى سنة ٧٥٠هـ رحمه الله تعالى:

«قال ابنُ الخطيب القُسَنْطِيني في «رحلتِهِ»: قال لي بعضُ الفقهاء: دَخلتُ على عبد العزيز وهو مُحْتَزِم في كِسائِه، وكُتُبُ الفقهِ مبسوطةٌ بين يديه، وأعْراقُهُ تَقطُرُ عليه، وكِساؤُه في غايةِ ما يكونُ من الوَسَخ! فقلتُ له: ارْفُقْ بنفسِك، واغسِلْ كِساءَك، فقال: لي سِتَّةَ أشهر نَرُومُ غَسْلَها وما وَجَدْتُ سبيلاً لذلك، من أجلِ هذا الشُّغل ـ يعني الانهماك في العلمِ وتحقيقِ مَسائِلِه ـ ، فتعجَّبتُ منه وانصرفتُ».

* * *

ومنهم: الإمام مالك بن أنس(٢):

قال: كانت عندي صناديق من كتب ذهبت، لو بقيت لكان أحب إلي من أهلي ومالي.

* * *

---

(١) صفحات من صبر العلماء ص٢١٦ عن الابتهاج ص١٧٩، وكفاية المحتاج ١/ ٢٨٩.

(٢) ترتيب المدارك ١/ ١٢٣.

ومنهم: يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام[1]:

أبو زكريا الخطيب التبريزي الشيباني، إمام اللغة والنحو، تخرج عليه خلق كثير، شرح الحماسة والمتنبي والمعلقات وغير ذلك، وكانت حصلت له نسخة من التهذيب في اللغة للأزهري في عدة مجلدات لطاف، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن عالم باللغة، فدل على أبي العلاء المعرّي فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل وهي ببعض الوقوف ببغداد وإذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة وليس بها سوى عرق ابن الخطيب.

* * *

ومنهم: الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة رحمه الله[2]:

قال: كنتُ في أيامِ الطلب والتحصيل مُمْلِقاً كأكثرِ طلبة العلم، وكنتُ أشتري من الكتب ما أستطيعُ شراءَهُ بالاقتطاع من نفقتي الضيقة، بالنقدِ الحاضر أو بالدَّين الآجلِ إذا أمكن.

وعَرَضَتْ لي يوماً بعضُ كتبٍ نادرةٍ تهمني جداً، ورَغِبتُ في اقتنائها، ولكني كنتُ في إملاقٍ شديد، فلا سبيلَ إلى شرائها! وقَلِقَ قلبي وخاطِري من جَرَّاءِ ذلك، فبِعتُ (شالَتي) التي وَرِثْتُها من أبي رحمه الله تعالى في (سُوق الحراج)، واشتريتُ تلك الكتب، وأرَحْت قلبي وخاطري، وفَرْحتُ

(١) إنباه الرواة ٤/ ٢٨، ومعجم الأدباء ٢٠/ ٢٦، ووفيات الأعيان ٦/ ١٩٢، وتاريخ الإسلام ٣٥/ ٧٤، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٦٩، والفلاكة والمفلوكين ص ٧١، وصفحات من صبر العلماء ص ٧٠.

(٢) صفحات من صبر العلماء ص ٢٦٩.

باقتنائِها ووصولي إليها فَرَحاً عظيماً أنساني فقْدَ (الشالة) والحمدُ لله.

وكنتُ في بعضِ الأحيان أَنْذُرُ لله تعالى صلاةَ كذا وكذا ركعةً، إذا حَصَلتُ على الكتاب الفلاني، ووقَعَتْ لي واقعة في شأنِ الحصول على كتابٍ، أُسجِّلُها هنا استطراداً لطرافتها:

لمَّا كنتُ في القاهرة أيامَ دراستي في كلية الشريعة بالجامع الأزهر، أوصاني شيخنا العلامة الإِمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، خِلالَ ملازمتي له باقتناءِ كتاب «فَتْح بابِ العِنَاية بشرح كتاب النُقَاية» للعلامة الشيخ عليّ القاري، وحَضَّني على الحصولِ عليه حَضَّاً أكيداً وكثيراً، مع علمِهِ أني من هُواةِ الكتب النادرة النافعة، وكنتُ أظنُّ أنه مطبوعٌ في الهند، وقد مكثتُ في القاهرة سِتَّ سنوات حتى إنهاءِ دراستي أسألُ عنه، وأنشدُهُ في كلِّ مكتبةٍ أُقدِّرُ وجودَه فيها، فلم أظفَر منه بخبرٍ ولا أَثَر.

ولما عُدتُ إلى بلدي حلب، ما فَتِئتُ أبحَثُ عنه أيضاً في كل بلدٍ أزُوره أو مكتبة أرتادها، ولما كنتُ أظنه مطبوعاً في الهند، وكان هو من كتبِ فقهِ السادة الحنفية، كنتُ أسأل الكتبيين عن مطبوعاتِ الهند في الفقهِ الحنفي عامة، لعلي أصلُ إليه بهذه الطريقة، إذ قد يَجهلون اسمَهُ، وكان في دمشق كتبيون قُدَماءُ خُبراءُ في الكتب القديمة والنفيسة، وعندهم من قديمها ونفيسها الكثير، ولكنهم يُغالُون به ويتَشدَّدون في بيعه، منهم السيد عزَّت القُصَيباتي ووالدُهُ، والشيخ حَمْدي السَّفَرْجَلاني، والسيد أحمد عُبَيد.

فسألتُ السيد عزت القُصَيْبَاتي عن «فتح باب العناية» على أنه من مطبوعاتِ الهند، فقال: هو عندي، وأَخرَجَ لي كتابَ «البِناية بشرح الهِداية» للإِمام العيني، المطبوع في الهند من مِئة عام سنة ١٢٩٣هـ، في ست مجلَّداتٍ ضخام كبارٍ جداً، وكان هذا الكتابُ أَحَدَ الكتب النادرة النفيسة التي

أبحَثُ عنها، فاشتريته بثمنٍ غير مُغَالى فيه، إذْ كان غيرَ الكتاب المطلوب الذي سَمَّيتُهُ له.

ثم سألتُ الشيخَ حَمْدي السَّفَرْجَلاني رحمه الله تعالى عن الكتاب، فعَلِمتُ منه أنه مطبوعٌ في قَزَان من بلادِ روسيا، وأنه أندَرُ من الكِبريتِ الأحمَرِ كما يقال، وأنه طُولَ حياتِهِ واشتغالِه بالكتب ما مَرَّ به منه سِوى نسخةٍ واحدة، كان قد باعها للعلامة الكوثري بأغلَى الأثمانِ التي لا تُعقَل، فعندَ ذلك تَعيَّنَ عندي البلدُ الذي طُبعَ فيه الكتاب، وضَعُفَ أملي بالحصولِ عليه!

ولما أتاح الله لي حَجَّ بيتِهِ الكريم أوَّلَ مرة عام ١٣٧٦هـ، ودخلتُ مكة المكرمة: طَفِقتُ أسألُ عنه في مكتباتها، لعلي أجِدُهُ قادِماً مع أحَدِ المهاجرين من تلك البلاد إلى بلدِ الله الحرام؟ فلم أوفَّقْ لذلك.

ثم ساقتني عِنايَةُ الله تعالى إلى كتبيٍّ قديمٍ مُنْزَوٍ في بعض الأسواق المتواضعةِ ثم في مكة المكرمة، وهو الشيخ المصطفى بن محمد الشنقيطي سلَّمه الله تعالى، فاشتريتُ منه بعضَ الكتب، وسألتُهُ ـ على يأسٍ ـ عنه، فقال لي: كان عندي من نحو أسبوع، اشتريتُهُ من تَرِكَةِ بعضِ العلماء البُخَاريين، وبِعتُهُ لرجل من بُخَارَى من علماءِ طَشْقَنْدَ بثمنٍ كريم، فما كِدتُ أُصَدِّقُه حتى جَعَلَ يَصِفُهُ لي وَصْفاً مُثْبتاً لمعرفتِهِ به، وأنه الكتابُ الذي أَلُوبُ عليه، وأسعى منذ دَهْرٍ إليه!

فقلتُ: مَنْ هذا العالمُ الطَّشْقَنْدِيُّ الذي اشتراه؟ فجَعَلَ يتذكَّرُهُ تذكُّراً ويُسمِّيهِ لي: (الشيخ عِناية الله الطَّشْقَنْدِي). فقلتُ: أين مسكنُهُ أو مَحَلُّ عَمَلِهِ أو ملتقاه؟ قال: لا أدري عن ذلك شيئاً، فقلتُ: كيف أسألُ عنه؟ قال: لا أدري، فازددتُ عند ذلك يأساً من الحصولِ عليه أو لقاء مشتريه!

فذهبتُ بعدَ هذا أسألُ عن (الشيخ عِنايةِ الله) كلَّ بخاريٍّ أَراهُ في

المسجدِ الحرام أو في أسواقِ مكة، وصِرتُ أذهَبُ إلى المدارس والرُّبُطِ التي يُقَالُ لي: فيها بُخارِيُّون، لأسال عن هذا الشيخ البخاريّ، حتى ذهبتُ إلى الأحياءِ الواقعةِ خارجَ مكة، إذْ قيلَ لي: فيها بعضُ البخاريين، ولكنْ هيهات اللقاءُ بالمنشودِ عنه؟! وكم في مكة المكرمةِ من البخاريين الذين يُسمَّونَ: عِنايةَ الله!

لقد أوصلني السؤالُ المتتابِعُ إلى الشيخ عبد القادر الطَّشْقَنْدِي البخاريّ الساعاتي رحمه الله في جهة حَيِّ جَرْوَل من أطرافِ مكة، فسألتُهُ عن الشيخ الطشقندي، فعَرَفَهُ وعيَّن لي ٱسْمَهُ: (الشيخ مِيْر عِناية الطشقندي)، ولكن لا عِلمَ له بمستقره وملتقاه، فعندَ ذلك غلَبني اليأسُ من لُقاءِ هذا الشيخ الذي عنده «فتحُ باب العناية»! فصرتُ في أثناءِ طَوَافي حولَ الكعبةِ المعظمةِ زادها الله تشريفاً وتعظيماً، أطلُبُ من الله تعالى أن يُرشدني إلى ذلك الإنسان، ويُيسرَ لي اقتناءَ هذا الكتاب، وصِرتُ أكرِّرُ هذا الدعاءَ والطلبَ مَرَّاتٍ تِلْوَ مرَّات، ومَضَى أسبوعٌ وأنا ــ عَلِمَ الله ــ في تَشَتّتِ بالٍ من حالِ البحثِ عن الكتابِ وصاحبِه.

حتى كنتُ يوماً أمشِي في سُوق بابِ زيادة من أبوابِ المسجدِ الحرام قبلَ توسعة المسجد، فرآني تاجِرٌ دمشقيٌّ قديمٌ في مكة المكرمة، يقال له: أبو عرَب، كان له مَتْجَرٌ هناك، فدعاني إلى متجره لما رآني شامِيَّ السَّحْنَةِ والمَظْهَر، يُسائِلُني عن الشامِ وأهلِها، فسألتُهُ من شِدَّةِ هَوَسِي بالكتاب ــ وهو تاجرٌ دمشقيٌّ شامي ــ عن الشيخ البخاري؟! فقال لي: هذا خَتَنُه زَوْجُ ابنته في الدُّكَّانِ الذي أمامي، وهو أعرَفُ الناس به، فواللّهِ ما كِدتُ أُصدِّقُ ذلك فَرَحاً وسُروراً.

فذَهَبْتُ إلى خَتَنِهِ وسألتُه عنه، فاستَغرَبَ قائلاً: ما الذي يدعوك للسؤالِ عنه وإلى لقائِهِ؟ قلتُ: صار لي أكثر من أسبوع وأنا دائبُ البحثِ

عنه، فدُلَّني عليه جزاكَ الله خيراً، فأرشَدَني إلى منزلِهِ بالتعيين في حي المِسْفَلة، جوارَ قَهْوَةِ السَّقِيفَة، فذهبتُ إليه مرَّةً بعدَ مرةٍ ليلاً ونهاراً، حتى لقيتُه، فتنازَلَ لي عن الكتاب بالثمن الذي اختَارَ وأحَبَّ، فكانت عندي فَرْحةً من فَرَحاتِ العُمُر.

وقد منَّ الله عليَّ بنشر الجزء الأول من هذا الكتاب مُحقَّقاً، وأسألُ الله تعالى أن يَمنَّ عليَّ بنشرِ باقي الكتابِ بفضلِهِ وكرمِهِ.

* * *

ومنهم: أ. جي. بي. تايلور[1]:

قال: كلما ازددتَ في الكبر يتطور حكمك.

أحد أفراحي أن يكون عقلي متأثراً بكتاب جيد، وبدون الشعور بأن عليّ الذهاب إلى آلة الطباعة لاحقاً.

ليس هناك أجمل من إحناء الرأس أثناء القراءة، فتغفو بسرعة، ثم تستيقظ على ارتطام كتاب على الأرض، وعندئذ تقول لنفسك: حسناً الأمر لا يهم كثيراً. إنه إحساس رائع.

* * *

ومنهم: أحمد الوائلي[2]:

قال لي والظلام ألقى جرانه ... صاحب كنت أستلذ بيانهْ

قم معي فالزمان جد قصير ... نتملى مشاهداً ريَّانهْ

*

فرأى بسمة أظلت شفاهي ... كنت فيها مفنِّداً برهانهْ

---

(١) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٦٣.

(٢) شعراء الغري ١/ ٢٩٧، من قصيدة بعنوان «ليلة في بغداد»، باختصار.

قــال مــاذا أرى فقلــت تــأمّــل لســتُ مــن يملــك الغــرامُ عنــانــهْ
مــا أنــا مــن طفــت عليــه شمــول أثقلتـــه وطفَّفـــت ميـــزانـــهْ
أنــا مــن معشــر إذا هــدأ الســا مــر أو أطبــق الــدجــى أجفــانــهْ
كان إلفَ الكتاب في هدأة الليـ ـــل وكــانــت قيثــاره قــرآنــهْ
أنــا سكــري طــرائــف مــن خليــل يــأخــذ العلــمَ والتُّقــى عنــوانــهْ

* * *

ومنهـم: أبـو محمـد عبـد الله بـن أبـي هـاشـم مسـرور التجيبـي المعروف بابن الحجّام[1]:

كانت له تأليفات ومصنفات في أنواع من العلوم. واقتنى كتباً كثيرة كلّها بخط يده.

قال الشيخ أبو الحسن بن القابسي رحمه الله: ترك أبو محمد سبعة قناطير كتب كلّها بخط يده.

وزاد غيره: إنه لمّا توفي رُفع جميعها إلى سلطان الوقت، فأخذها ووضعها في القصر ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه.

وفي رواية: إنه لما اشتد به المرض قال له بعض أصحابه: نخشى أن يأخذ السلطان كتبك إن قدَّر الله تعالى عليك بالموت ويمنع الانتفاع بها، وأنت قد تعبتَ فيها وضبطَّها، فحبِّسها على المسلمين، ووجِّه ثلثها إلى أبي محمد بن أبي زيد، وثلثها إلى موضع آخر، والثلث الآخر إلى موضع آخر، ففعل ما أمروه. فلما كان الغد قال لهم: لم أقدر البارحة أن أنام لمّا فقدتُ كتبي فردُّوها عليَّ. فردّوا عليه ثلثيها وتركوا الثلث الآخر عند ابن أبي زيد، فتوفي حينئذ، فوجه السلطان في الوقت، فأخذ كل ما كان

(١) ترتيب المدارك ٢/ ٣٤١، ورياض النفوس ٢/ ٤٢٣.

عنده من الكتب، ولم يسلم منها إلاَّ الثلث الذي كان عند ابن أبـي زيد.

* * *

ومنهم: محمد بن أحمد السفاريني:

كان محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني لا يقتني شيئاً من الأمتعة والأسباب الدنيوية سوى كتب العلم، فإنه كان حريصاً على جمعها ويقول دائماً: أنا فقير من الكتب[١].

* * *

ومنهم: الدكتور كاران سينغ[٢]:

• لدي حب هائل للكتب، ولدي مشاركة مدى الحياة معها. كل فلس استثمرته في كتاب هو استثمار جميل جداً ومحتمل. البشرية ستكون أفقر إلى ما لا نهاية من كل وجهة نظر لو لم تكن الكتب العظيمة قد غذّت ورعت الحضارة البشرية عبر العصور.

• أعتقد بأن علينا البدء بحركة لتشجيع كل طفل بأن يمتلك كتاباً. يجب على كل طفل أن يتشجع ليدرك أن بين ممتلكاته الثمينة كتباً لديها مكان خاص.

• هناك نظرية عبّر عنها بعض الأشخاص أن الكتاب سيكون مهجوراً بحلول القرن الحادي والعشرين لأنه بكل بساطة سيكون لديك الكمبيوتر، ويمكنك أن تُدَوْزِنه حسبما تريد.

شخصيًّا، وأرجو أن أكون مصيباً، أنا لا أعتقد بأن لهذا الخوف من أساس، لأنه كما ألمح لي شخص ما عند اختراع الراديو والتلفزيون قالوا

(١) مختصر طبقات الحنابلة ص ١٤٠.

(٢) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٦٣.

نفس الشيء، لكن نمو صناعة نشر الكتاب استمرت.

* * *

ومنهم: داووف بن خيتي المصري[1]:

يقول داووف بن خيتي ـ أحد حكماء المصريين ـ لابنه يوم صحبه إلى المدرسة لأول مرة: يا بني ضع قلبك وراء كتبك وأحببها كما تحب أمك، فليس هناك شيء تعلو منزلته على الكتاب. واعلم يا بني أنه ما من طبقة من الناس إلاَّ فوقها طبقة أخرى تحكمها، إلاَّ الحكيم فهو الوحيد الذي يحكم نفسه.

* * *

ومنهم: عبد الملك بن محمد الثعالبي[2]:

قال: وكثيراً ما أذكُرُني آكل الوجبة وأنا أنظر في كتابٍ جديد وقع إليَّ ولا أصبر عنه إلى وقت فراغي من الأكل؛ وسمعت أبا نصر سهل بن المرزبان يقول: كثيراً ما أفعل مثل ذلك.

* * *

ومنهم: أبو العبَّاس مأمونُ بنُ مأمونِ خوارزمُ شاه[3]:

قال: همَّتي كتابٌ أنظرُ فيه، وحبيبٌ أنظرُ إليهِ، و كريمٌ أنظرُ له.

* * *

(١) أنيس الجليس ص ١٦.

(٢) اللطائف والظرائف ص ٦٦.

(٣) خاص الخاص ص ٥٣، وقال الثعالبي: «سمعته يقول في تقسيم النظر ما لم أسمع مثله ظرفاً وكهانة وبلاغة»، واللطف واللطائف ص ٢٤، وبرد الأكباد ص ١١٨، ومطالع البدور ٢/١٧٨، وحماسة الظرفاء ١/٣٣٦، والرّواية فيه: «لذتي في نظرات ثلاث: كتاب مفيد أنظر فيه، ووجه مليح أنظر إليه، وشيء آخر أنظر له»، وفي زهر الربيع ص ٥٧٩ «عن بعض الملوك».

ومنهم: ثعلب، وأبو بكر الخياط، وابن الفرات:

- حكِيَ عَنْ ثَعْلَبَ أَنَّهُ كَانَ لا يُفَارِقُهُ كِتَابٌ يَدْرسُهُ، فَإِذَا دَعَاهُ رَجُلٌ إِلَى دَعْوَةٍ شَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُوَسِّعَ لَهُ مِقْدَارَ مِسْوَرَةٍ يضع فِيهِ كِتَاباً وَيَدْرُسُ.

- وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الخَيَّاطُ النَحْوِيُّ يَدْرُسُ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ حَتَّى فِي الطَّرِيقِ، وَكَانَ رُبَّمَا سَقَطَ فِي جُرُفٍ، أَوْ خَبَطَتْهُ دَابَّةٌ.

- وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ كانَ يَشُدُّ فِي وَسَطِهِ خَيْطاً إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَدْرُسُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَسْقُطَ إِذَا نَعَسَ.

- وَكَانَ ابنُ الفُرَاتِ لا يَتْرُكُ كُلَّ يَوْمٍ إِذَا أَصْبَحَ أَنْ يَحْفَظَ شَيْئاً وَإِنْ قَلَّ[١].

* * *

ومنهم: بَعْضُ الكُتَّابِ[٢]:

قَالَ: كُنَّا إِذَا دَخَلْنَا عَلَى أَبِي الفَضْلِ بنِ العميد رَأَيْنَا إِلى جَانِبِهِ فِي مَجْلِسِ العَمَلِ زُهَاءَ مِائَةِ مُجَلَّدَةٍ، فَنُنْكِرُ ذَلِكَ، فَفَطِنَ يَوْماً لإنكارنا، فَقَالَ: إِنِّي أَحْفَظُ جَمِيعَ مَا فِي هَذِهِ الكُتُبِ، فَإِذَا اشْتَغَلْتُ بِالعَمَلِ عَنْ دَرْسِهَا أَحْضَرتُهَا عِنْدِي، فَكُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا ذَكَرْتُ مَحْفُوظِي مِنْها، فَقَامَ لِي مَقَامَ الدَّرْسِ!

ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ مِنَّا: خُذْ أَيُّهَا شئت، فَأَخَذَ الرجُلُ مِنْها كِتَاباً وَقَال: هُوَ الثَّامِن مِنْ كِتَابِ كَذَا؛ فَابْتَدَأَ أبو الفَضْلِ فقَرَأَ مِنْ أَوَّلِه صَدْراً، ثُمَّ مِنْ وَسَطه، ثُمَّ مِنْ آخِرِهِ، فَتَحَقَّقَ عِنْدَنَا أَنَّهُ صَدَقَ مَا قَالَ، وَعَجِبْنَا مِنْ حِفْظِهِ وَعِنَايَتِهِ وَحِرْصِهِ.

---

(١) الحث على حفظ العلم ص ٤٠، والجامع على الحث على طلب العلم ص ٧٨.

(٢) الجامع على الحث على طلب العلم ص ٧٩.

وَكَان يَأْخُذُ ابْنَهُ أَبَا الفَتْح كُلَّ يَوْمٍ بِدَرْسِ أَلْفَيْ بَيْتٍ قَبْلَ الغَدَاءِ، وَكَانَ يَحْفَظُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَـي أَلفَ بَيْتٍ.

* * *

ومنهم: ياقوت الحمَوي[1]:

لمَّا أَلَّف العلامة ياقوت الحَمَوي رحمه الله تعالى كتاب «معجم الأدباء»، واطَّلَع عليه جماعةٌ من العلماء الأدباء، من أهل عصره، فاستحسنوه، والتمسوهُ لينسخوه، فشَحَّ عليهم وبَخِلَ بذلك وقال:

... فقَدْ رَآنِي جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ، وَقَدْ نَظَمْتُ لآلِىءَ هَذَا ٱلْكِتَابِ، وَأَبْرَزْتُه فِي أَبْهَى مِنَ ٱلْحُلِيِّ عَلَى تَرَائِبِ ٱلْكِعَابِ، فَاسْتَحْسَنُوهُ. وَٱلْتَمَسُوهُ لِيَنْسَخُوهُ، فَوَجَدْتُ فِي نَفْسِي شُحّاً عَلَيْهِمْ، وَبُخْلاً بِعَطْفِ جِيدِهِ إِلَيْهِمْ، لأَنَّهُ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ مِن جَسَدِ ٱلْجَبَانِ، وَٱلسَّوْدَاوَيْنِ مِنَ ٱلْعَيْنِ وَٱلْجَنَانِ، مَعَ كَوْنِي غَيْرَ رَاضٍ لِنَفْسِي بِذَلِكَ ٱلْمَنْعِ، وَلاَ حَامِدٍ لَهَا عَلَى ذَلِكَ الصُّنْعِ، لَكِنَّهَا طَبِيعَةٌ عَلَيْهَا جُبِلْتُ، وَسَجِيَّةٌ إِلَيْهَا جُبِرْتُ، حَتَّى قُلْتُ فِيهِ مَعَ ٱعْتِرَافِي بِقِلَّةِ بِضَاعَتِي فِي الشِّعْرِ، وَعِلْمِي بِرَكَاكَةِ نَظْمِي وَالنَّثْرِ:

فَكَمْ قَدْ حَوَى مِنْ فَضْلِ قَوْلِ مُحَبَّرٍ ... وَمِنْ نَثْرِ مِصْقَاعٍ وَمِنْ نَظْمِ ذِي فَهْمِ
وَمِنْ خَبَرٍ حُلْوٍ طَرِيفٍ جَمَعْتُهُ ... عَلَى قِدَمِ ٱلأَيَّامِ لِلْعُرْبِ وَٱلْعُجْمِ
تُرَنِّحُ أَعْطَافِي إِذَا مَا قَرَأْتُهُ ... كَمَا رَنَّحَتْ شُرَّابَهَا إِبْنَةُ ٱلْكَرْمِ
وَلَوْ أَنَّنِي أَنْصَفْتُهُ فِي مَحَبَّتِي ... لَجَلَّدْتُهُ جِلْدِي وَصَنْدَقْتُهُ عَظْمِي
عَزِيزٌ عَلَى فَضْلِي بِأَلَّا أُطِيعَهُ ... عَلَى بَذْلِهِ لِلطَّائِفِينَ عَلَى ٱلْعِلْمِ
وَلَوْ أَنَّنِي أَسْطِيعُ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ ... لَمَا زَالَ مِنْ كَفِّي وَلاَ غَابَ عَنْ كُمِّي

---

(١) معجم الأدباء ١/٦٣، وتاريخ إربل ١/٣٢٠، وصفحات من صبر العلماء ص ١٣٧.

وَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّ أَبِي سَعْدٍ ٱلسَّمْعَانِـيِّ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَلاَمَةَ ٱلمَقَّرِيِّ فِـي هَذَا النَّشْوَارِ:

إِنِّـي لِمَـا أَنَـا فِيـهِ مِـنْ مُنَافَسَتِـي ... فِيمَـا شُغِفْـتُ بِـهِ مِـنْ هَـذِهِ ٱلْكُتُـبِ

لَقَدْ عَلِمَتْ بِأَنَّ ٱلْمَوْتَ يُدْرِكُنِـي ... مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْقَضِي مِنْ حُبِّهَا أَرَبِـي

*

وَمَجْمُـوعَـةٍ فِيهَـا عُلُـومٌ كَثِيـرَةٌ ... يَقَـرُّ بِمَـا فِيهَـا عُيُـونُ الأَفَـاضِـلِ

أَلَذُّ مِنَ ٱلنُّعْمَى وَأَحْلَى مِنَ ٱلْمُنَى ... وَأَحْسَنُ مِنْ وَجْهِ ٱلحَبِيبِ المُوَاصِلِ

حَكَتْ رَوْضَةً حَاكَتْ يَدُ القَطْرِ وَشْيَهَا ... وَمَسَّـكَ رَيَّـاهَـا، نَسِيـمُ الأَصَـائِـلِ

أُطَالِعُهَا فِي كُلِّ وَقْـتٍ فَـأَجْتَلِـي ... عَقَـائِلَ يُغْلِـي مَهْـرَهَا كُـلُّ عَـاقِـلِ

وَأَمْنَعُهَــا الجُهَّــالَ فَهْــيَ حَبِيبَــةٌ ... (جرى حُبُّها مَجْرَى دَمِي فِي مَفَاصِلي)

تَضْمِينُ نِصْفِ بَيْتٍ لِلْمُتَنَبِّي.

وَاعْلَمْ أَنَّنِي لَوْ أُعْطِيتُ حُمْرَ النَّعَمِ وَسُودَهَا، وَمَقَانِبَ الْمُلُوكِ وَبُنُودَهَا، لَمَا سَرَّنِـي أَنْ يُنْسَبَ هَذَا الكِتَابُ إِلَى سِوَايَ، وَأَنْ يَفُوزَ بِقَصَبِ سَبْقِهِ إِلاَّيَ. لِمَا قَاسَيْتُ فِـي تَحْصِيلِهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ، وَطَوَيْتُ فِـي تَكْمِيلِهِ مِنْ طُولِ الشُّقَّةِ، فَإِنَّنِي عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي لَمْ أَقِفْ عَلَى بَابِ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِ أَجْتَدِيهِ، وَلاَ أُحْصِـي عَدَدَ مَا وَقَفْتُ عَلَى الأَبْوَابِ لِلْفَوَائِدِ الَّتِـي فِيهِ، فَلاَ غَرْوَ أَنْ أَمْنَعَهُ مِنْ مُلْتَمِسِيهِ، وَأَحْجُبَهُ مِنْ الرَّاغِبِينَ فِيهِ.

عَلَى أَنِّي مَا زِلْتُ أُعَاتِبُ نَفْسِـي عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ، وَأَعُدُّهُ مِنَ الأَمْرِ الْفَظِيعِ، وَالْخُلُقِ الشَّنِيعِ، إِلَى أَنْ وَقَفْتُ عَلَى الكِتَابِ الَّذِي أَلَّفَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ التَّارِيخِيُّ فِـي أَخْبَارِ النَّحْوِيِّينَ، وَقَدْ قَالَ فِـي دِيبَاجَتِهِ: وَلَمْ أَقْصِدْ بِهَـذَا الْكِتَـابِ لَهْـواً وَلاَ لَعِبـاً، وَلاَ سَمَحَـتْ نَفْسِــي بِبَذْلِـهِ، وَلا طَـابَـتْ بِبَثِّـهِ وَإِخْرَاجِهِ إِلَى غَيْرِ أَبِـي الحُسَيْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرُّوزْبَارِيِّ الْكَاتِبِ،

أَطَالَ اللَّهُ بقَاهُ، فَإِنَّهُ لِي كَمَا قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ فِي ٱبنِهِ إِيَاس بْن مُعَاوِيَةَ، وَقَدْ قِيلَ لَهُ: كَيْفَ ابْنُكَ؟ فَقَالَ: خَيْرُ ابْنٍ، كَفَانِي أَمْرَ الدُّنْيَا، وَفرَّغني لأَمْرِ الآخِرَةِ.

ثُمَّ قَالَ: وَمَا أُحْصِي عَدَدَ مَنِ انقَطَعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنَ الإِخْوَانِ فِي رَدِّنَا إِيَّاهُ عَنْ هَذَا الْكِتَابِ، فَحِينَئذٍ خَفَّفْتُ عَنْ نَفْسِي اللَّوْمَ، إِذْ كَانَ التَّأَسِّي مِنْ أَخْلَاقِ ٱلْقَوْمِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ ٱلنُّفُوسَ بَخِيلَةٌ بِالنَّفَائِسِ، شَحِيحَةٌ بِإِبْرَازِ العَرَائِسِ.

هَذَا وَإِنَّمَا يَشْتَمِلُ كِتَابُهُ عَلَى ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ تَرْجَمَةً، نَقَلْتُ زُبَدَهَا إِلَى هَذَا ٱلكِتَابِ، فَلِمَ أُلَامُ إِذَا أَخْفَيْتُهُ عَلَى طَالِبِيهِ؟ وَحَجَبْتُهُ عَنْ خَاطِبِيهِ؟ وَقَدْ أَقْسَمْتُ أَلَّا أَسْمَحَ بِإِعَارَتِهِ، مَا دَامَ فِي مُسَوَّدَتِهِ، لِئَلَّا يُلِحَّ طَالِبٌ بِالْتِمَاسِهِ، وَلاَ يُكَلِّفَنِي إِبْرَازَهُ من كِنَاسِهِ، فَحَمَلَهُمْ مَنْعِي عَلَى ٱحْتِذَائِهِ وَتَصْنِيفِ شَرْوَاهُ فِي ٱسْتِوَائِهِ، وَمَا أَظُنُّهُمْ يَشُقُّونَ غُبَارَهُ، وَيُحْسِنُونَ تَرْتِيبَهُ وَإِسْطَارَهُ، وَإِنْ وُفِّقْتَ لِنَظَرِ ٱلْجَمِيعِ فَسَتَعْرِفَ ٱلظَّالِعَ مِنَ ٱلضَّلِيعِ.

فإِذَا هَذَّبْتُهُ وَنَقَّحْتُهُ وَبَيَّضْتُهُ، فَتَمَتَّعْ بِهِ، فَإِنَّهُ كِتَابٌ أَسْهَرْتُ لَكَ فِيهِ طَرْفِي، وَأَنْضَيْتُ فِي تَحْصِيلِهِ طَرَفِي وطِرْفِي. وَقَدْ حَصَّلْتَهُ عَفْواً، وَمَلَكْتَهُ صَفْواً، فَٱجْعَلْ جَائِزَتِي دُعَاءً يَزْكُو غَرْسُهُ عِنْدَ ذِي ٱلْعَرْشِ، وَاحْمَدْنِي فِي بُسُطِهِ وَالْفَرْشِ، وَاذكُرْنِي فِي صَالِحِ دُعَائِكَ، فَرُبَّ دَعْوَةٍ صَادَفَتْ إِجَابَةً، وَرَمْيَةٍ حَصَّلَتْ إِصَابَةً.

وَلَوْ أَنْصَفَ أَهْلُ الأَدَبِ، لاَسْتَغْنَوْا بِهِ عَنِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ، وَلكِنَّنِي أَخَافُ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّقْصُ مِنْ جِهَةِ زِيَادَةِ فَضْلِهِ، وَأَنْ يَقْعُدَ بِقِيَامِ جَدِّهِ عِظَمُ خَطَرِهِ وَنُبْلِهِ.

وَأَسْتَشْعِرُ لَهُ أَمْرَيْنِ مَنْبَعُهُمَا مِنَ قِلَّةِ الإِنْصَافِ، وَاجْتِنَابِ الحَقِّ والانْحِرَافِ، أَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ: هَلْ هُوَ إِلاَّ تَصْنِيفُ رُومِيٍّ مَمْلُوكٍ؟ وَمَا عَسَى

أَنْ يَأْتِيَ بِهِ، وَلَيْسَ فِي أَبْنَاءِ جِنْسِهِ لَهُ نَظِيرٌ، وَمَا كَانَ فِي أُمَّتِهِ رَجُلٌ خَطِيرٌ؟ لِاسْتِيلَاءِ التَّقْلِيدِ، عَلَى العَالِمِ وَالْبَلِيدِ؛ فَهُمْ لَا يَنْظُرُونَ مَا قِيلَ، إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَمَّنْ قَالَ، وَنِعْمَ الْعَوْنُ لِلْعَالِمِ الْقَؤُولِ، حُسْنُ الاعْتِقَادِ وَالْقَبُولِ. وَالأَمْرُ الآخَرُ: قُصُورُ الْهِمَمِ، الْغَالِبُ عَلَى أَكْثَرِ الأُمَمِ، إِذْ كُلُّ هَمِّهِ تَحْصِيلُ الْمَأْكُولِ وَالْمَلْبُوسِ، وَلَا تَسْمُو هِمَّتُهُ إِلَى تَشْرِيفِ النُّفُوسِ.

وَاعْلَمْ حَبَاكَ اللَّهُ بِحُسْنِ رِعَايَتِهِ، وَأَمَدَّكَ بِفَضْلِ هِدَايَتِهِ، أَنَّ هَذَا الْفَنَّ مِنَ الْعِلْمِ، لَيْسَ مِنْ بَابِهِ مَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِلْمَعَاشِ، أَوْ لِيُحَصِّلَ الزِّينَةَ وَالرِّيَاشَ، وَلَا هُوَ مِمَّا يَنْفُقُ فِي الْمَدَارِسِ، أَوْ يُنَاظَرُ بِهِ فِي الْمَجَالِسِ، إِنَّمَا هُوَ عِلْمُ الْمُلُوكِ وَالْوُزَرَاءِ، وَالجِلَّةِ مِنَ النَّاسِ وَالْكُبَرَاءِ، يَجْعَلُونَهُ رَبِيعاً لِقُلُوبِهِمْ، وَنُزْهَةً لِنُفُوسِهِمْ، تَرْتَاحُ إِلَيْهِ أَرْوَاحُهُم، وَتَشْتَمِلُ عَلَيْهِ أَفْرَاحُهُم، فَهُوَ رَبِيعُ النُّفُوسِ النَّفِيسَةِ، وَرَأْسُ مَالِ الْعُلُومِ الرَّئِيسَةِ.

* * *

ومنهم: محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتّاني الإدريسي:

ترجم له محمود محمد شاكر فقال[1]: ولهذا الرجل إحساس علميٌّ عجيب، فهو لا يكادُ يسمعُ بأديب أو فقيه أو عالم أو فيلسوف إلاَّ حنَّ إليهِ وقلقَ إلى رؤيتِه، ورغب في التحدث إليه وسبر غوره، فلا تصرفهُ شواغله وهو في دار الغربة عن أن يقدم أهل العلم ـ أيّاً كانوا ـ بالزيارة، بل تراه يبدؤهم بها، ويرحل من بلد إلى بلد لأن فيهِ عالماً جليلاً قد قرأ آثاره أو سمع بهِ.

وأنت فظُنَّ كيف تقدّرُ رجلاً من أقصى المغرب بفاس، لا يُذكر أمامهُ

---

(١) مجلة المقتطف، إبريل/نيسان ١٩٣٣م ص ٤٨٣، «وهذا الخبر واللّذان بعده أفادنيها الأخ محمد العجمي».

اسم عالم أو غيره في مصر أو الشام أو الجزيرة العربية أو العراق أو الهند أو الأفغان أو الترك إلاَّ عرفهُ وقصَّ لك من أخباره وعدّدَ لك من كتبه. ومن هؤلاء الناشىء والمغمور الذي لا يعرفُه أهل بلده، على حين أنهُ منهم بمنزلة البنان من راحته. بل... يسمع اسم الرجل يراهُ أمامه فيطمئنُّ قليلاً ثمّ يسأله من أي بلدة هو، فما يجيبُ حتى يسأله عن علماءِ هذه البلدة مَن مات منهم ومن حيّ، وعن كتبهم كيف كان مصيرها، ثم يعدّدُ لهُ بعضَ ما ألّفوا... ويذكر له روايته عنهم إن كان رَوَى عنهم شيئاً من حديث رسول الله ﷺ أو غير ذلك.

فمن أجل هذا الإِحساس العلميّ المركّب فيهِ أتيح له أن يجمع مكتبة في داره بفاس تُعَدُّ من أغنى المكاتب الخاصة وأنْفَسِها في العالم العربيّ كلّهِ، فيها من النفائس والنوادر والغرائب ما لا يوجد في غيرها. وهو لا يكاد يسمع بكتابٍ نادرٍ حتى يسارع إلى استنساخه أو تصويره بالفوتوغراف. وها هو قد نزل مصر فجمع من شوارد المخطوطات ونوادرها أشياء كانت بين سمع دور كتبنا وبصرها ثم غفلت عنها. ويجلس هذا الرجل في نُزُله فيأتيهِ الوراقون بالمخطوطات حديثها وعتيقها، فما يفتح أحدها حتى يعرف ما الكتابُ ومن صاحبهُ، ويفرح بالكتاب النادر فرح الذي ضنَّ عليهِ الزمن طويلاً ثم جاد.

وبالله أشهد صادقاً لكأني أرى الكتاب بين يديه يكاد يحنُّ إليه حنين القلب الممزّق المفطور إلى سبب من أسباب سلوته وراحته، ولكأني أراهُ يُمسك الكتاب براحته كما يمسك أحدنا الشيء فيهِ من آثار قلبهِ وحبهِ وآماله ورغباتهِ ما فيهِ، ويلقي عليهِ نظرة عاطفة تكاد تحييهِ من عطفها وحنانها وحدَبها وأشواقها.

هذا هو الرجل العالم المتيم بالكتب، الذي يطّلع جاهداً على آثار

الناس وما ينشرون في الكتب والصحف والمجلات ويعي أسماءَهم ويسأل عنهم ويرغب في رؤيتهم ويرحل إليهم بادئاً بالزيارة.

وإن تعجب فعجب لهذا الرجل الذي اتَّسع أفقه حتى ألّف ما أناف على مائتي كتاب فيها موضوعات عجيبة لم يسبق إليه بمثل تحقيقه ودقّته على الأسلوب الذي يفهمه عن أهله، ومن عرف مذاهب القوم في كتبهم ومؤلفاتهم.

* * *

ومنهم: عبد الحميد العلوجي:

كان رئيس تحرير مجلّة المورد العراقية المشهورة. وكانت مكتبته تضمّ خمسة عشر ألف مجلد، وقد ظن بعض الأدباء أنه جمعها من إهداءات الكتَّاب، فقال يدفع ذلك[١]:

(. . . فأنا جمعتها بتبديد أرباح العلوة ورأس مالها في شراء المطبوعات، وبتحويل المكافآت المالية التي كنت أتقاضاها عن مقالاتي ومؤلفاتي إلى ما يدعم مكتبتي، أما راتبي فقد كنت أحرم نفسي من الفانيلة أو الرباط، وأحياناً أحرم زوجتي من حذاء، وأطفالي من تفاحة مستوردة، لأصرفه على شراء ما تطبعه المطابع، وهذا كله يعني أنني جمعتها بعرق جبيني، وبجوع غير قاتل، والجنون فنون. . .)!.

* * *

ومنهم: محمد جمال الدّين القاسمي:

فمن رسالة له إلى محمد نصيف يقول[٢]: ويقول لي صديقنا محمد

---

(١) موسوعة المفكّرين والأدباء العراقيين ٤/ ١٩٤.

(٢) جمال الدين القاسمي وعصره، تأليف: ظافر القاسمي.

أفندي كرد علي: إن الرحلة ضرورية لي، لما يرى من إكبابي على ما أنا عليه، ولا تجوال لي ولا رياضة في البلدة، لذلك يقول لي: إن لم تَرْتَض في مثل هذه الأوقات وتسترح، وإلاَّ فأخاف على صحتك. ولكن ماذا أصنع؟ ولا أرى والله الصحة والنشاط إلاَّ فيما أنا عليه، وإذا تركت القلم أو الكتاب فأراني كالسمك إذا فارق الماء. . .

ومن رسالة له أخرى إلى محمود شكري الآلوسي لما أهداه كتابه «غرائب الاغتراب» قال[1]:

صادف ليلة جاءني أَن كُنْتُ في صُداع، وقد عَقَدَ آلي حولي الاجتماع، وأنا أقاسي من الآلام ما يمنعني من الكلام، فلما ناولنيه شقيقي بعد العشاء رأيتني وقد سرى إليَّ نسيم النَّشاط والشِّفاء، فغالبت نفسي، ونبهتُ لمطالعتِهِ قلبي وحسي، وقلت: لأتأسينَّ بشيخ الإِسلام الأنصاري؛ فقد كان يستشفي بمطالعة العلم ومذاكرة أُولي الفطنة والفهم، وبقيت أُسامره معظم اللَّيل وهو يرقُّ لي ويُنيلني من منادمته أعظم النيل، وقد أصبحت بحمد الله وما بي ألم، وكانت بركة الاستشفاء به من أجلِّ النِّعم.

* * *

ومنهم: سليمان الشاذكوني:

حكى أبو الحسين بن قانع أنّه سمع إسماعيل بن الفضل يقول[2]:

رأيت سليمان الشاذكوني في النوم، فقلت: ما فعل الله بك

---

(١) الرسائل المتبادلة بين محمد جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الألوسي، لمحمد بن ناصر العجمي ص ١٢٠.

(٢) تاريخ بغداد ٩/٤٨، والمنتظم ١١/ ٢١٤، وتاريخ الإسلام ١٧/ ١٧٩، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٧٩، والوافي ١٥/ ٣٧٩، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٥٩ نقلاً عن فتح المغيث ص ١٥٧.

يا أبا أيوب؟ فقال: غفر الله لي، قلت: بماذا؟ قال: كنت في طريق أصبهان أمر إليها فأخذتني مطرة، وكانت معي كتب، ولم أكن تحت سقف ولا شيء، فانكببت على كتبي حتى أصبحت وهدأ المطر، فغفر لي الله بذلك.

* * *

ومنهم: إبراهيم بن إسحاق الحربي:

قال رجل له[1]: كيف قويت على جمع هذه الكتب؟ فغضب وقال: بلحمي ودمي؛ بلحمي ودمي!!

وقال أحمَدُ بن سَلْمان النجّاد القَطِيعي[2]: أَضَقْتُ إضاقةً شديدة، فمَضَيْتُ إلى إبراهيم الحربي لأبُثّه ما أنا فيه.

فقال لي: لا يَضِق صدْرُك، فإنَّ اللَّهَ من وراءِ المَعُونة، وإني أَضَقْتُ مرةً حتى انتَهَى أمري في الإضاقةِ إلى أن عَدِم عيالي قُوتَهم! فقالت لي الزوجة: هَبْ أنّي أنا وإياك نَصْبِرُ، فكيف نصنَعُ بهاتين الصَّبِيَّتَينِ؟ فإنهما لا تَصْبِرانِ على ما نَصبِرُ عليه، فهاتِ شيئاً من كُتبِك حتى نَبيعَه أو نَرْهَنَهُ! ونَتَفرَّجَ به، فضَنِنتُ بذلك، وشَحَّتْ نفسي بالكُتُب، وقلتُ لها: اقتَرِضي لهما شيئاً وأَنظِريني بقيّةَ اليومِ والليلة.

وكان لي بيتٌ في دِهليزِ داري فيه كتبي، فكنتُ أجلِسُ فيه للنَّسْخِ

---

(١) تاريخ بغداد ٦/ ٣٣، والمنتظم ١٢/ ٢٨١، وإنباه الرواة ١/ ١٩٩، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٣٢ نقلاً عن مناقب الإمام أحمد ص ٥٠٨.

(٢) تاريخ بغداد ٦/ ٣٢، وطبقات الحنابلة ١/ ٨٧، وإنباه الرواة ١/ ١٩٩، ومعجم الأدباء ١/ ١١٥، وتاريخ الإسلام ٢١/ ١٠٣، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٨، والمنهج الأحمد ٢/ ٢٥٤، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٢٧.

والنَّظَر، فلما كان في تلك الليلةِ إذا دَاقٌ يَدْقُّ البابَ، فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقال: رجلٌ من الجيران، فقلتُ: ٱدْخُل، فقال أَطفِـىءْ السِّراجَ حتى أدخُل، فكَبَبْتُ على السِّراج شيئاً وقلتُ: ٱدْخُل، فدخَلَ الدِّهْلِيزَ فوَضَعَ فيه صُرَّةً كبيرة، وقال لي: إنَّا أصلحنا لصِبيانِنا طعاماً، فأحببنا أن يكون لكَ وللصِّبْيَانِ فيه نصيب، وهذا شيء آخر، فوضَعَه إلى جانب الصُرَّة الكبيرة، وقال: تَصرِفُه في حاجتك. وأنا لا أعرِف الرجل وتركني وانصرف.

فدعوتُ الزوجة وقلتُ لها: أَسْرِجي السِّرَاج، فأسرجَتْ وجاءت، وإذا الصُّرَّةُ مِنديلٌ له قيمة، وفيه خمسون وَسَطاً في كل وَسَطٍ لونٌ من طعام، وإلى جانب الصُّرَّةِ كِيسٌ فيه ألفُ دينار، فقلتُ للزوجة: أنبِهِـي الصِّبيانَ حتى يأكلوا، ولما كان الغَدُ قَضَيْنا دَيْناً كان علينا من ذلك المال.

وكان وقتَ مجيءِ الحاجِّ من خُراسان، فجلستُ على بابِ داري من غَدِ تلك الليلة، وإذا جَمَّالٌ يَقُودُ جَمَلينِ عليهما حِملان وَرَقاً خُراسَانِيًّا، وهو يَسألُ عن منزلِ إبراهيمَ الحربـي، فانتَهَى إليَّ، فقلت: أنا إبراهيمُ الحربـي، فحَطَّ الحِملينِ وقال: هذانِ الحِملان أَنفذَهُمَا لك رجلٌ من أهل خراسان، فقلتُ: مَن هو؟ فقال: قد استحلَفَني أن لا أقولَ مَن هو. فأخذتهُما منه، ودعوتُ الله لمرسلهما وللحامل.



٤ ـ فصل في
أخبارهم في الحزن والهم على فقد الكتب والمصاب بها

عبد الحميد بن عبد الرحيم[(١)] :

أجلّ مصائب الرجل العليم ... مصائبهُ بأسفار العلوم

إذا فقد الكتاب فذاك خطب ... عظيم قد يجلّ عن العظيم

وكم قد مات من أسفٍ عليها ... أناس في الحديث وفي القديم

* * *

الْحَسَنُ بْنُ محمَّدِ بْنِ الحَسَنِ بْنِ محمَّدِ بْنِ حَمْدُون[(٢)] :

قال ياقوت: كَانَ مِنَ الْمُحِبِّينَ لِلْكُتُبِ وَاقْتِنَائِهَا، وَالْمُبَالِغِينَ في تَحْصِيلِهَا وَشِرَائِهَا، وَحُصِّلَ لَهُ مِنْ أُصُولِهَا الْمُتْقَنَةِ وَأُمَّهَاتِهَا الْمُعَيَّنَةِ، مَا لَمْ يُحَصِّلْ أَحَدٌ لِلْكَثِيرِ.

وَكَانَ مَعَ اغْتِبَاطِهِ بِالْكُتُبِ وَمُنَافَسَتِهِ، وَمُنَاقَشَتِهِ فِيهَا جَوَاداً بِإِعَارَتِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي يَوْماً ـ وَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ مُسَارَعَتِهِ إِلَى إِعَارَتِهَا لِلطَّلَبَةِ: مَا بَخِلْتُ بِإِعَارَةِ كِتَابٍ قَطُّ وَلا أَخَذْتُ عَلَيْهِ رَهْناً. وَلاَ أَعْلَمُ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ فَقَدَ كِتَاباً فِي عَارِيَّةٍ قَطُّ. فَقُلْتُ: الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَخُلُوصُ نِيَّتِكَ فِي إِعَارَتِهَا لِلَّهِ حَفِظَهَا عَلَيْكَ.

---

(١) تقييد العلم ص ١٥٠ .

(٢) معجم الأدباء ٩/ ١٨٤ ، وطرائف الأدباء ص ١٠٧ ، ومقدمة التذكرة الحمدونية ١/ ١٠ .

ثُمَّ تَقَاعَدَ بِهِ الدَّهْرُ وَبَطَلَ عَنِ الْعَمَلِ، فَرَأَيْتُهُ يُخْرِجُهَا وَيَبِيعُهَا وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ بِالدُّمُوعِ كَالْمُفَارِقِ لِأَهْلِهِ الأَعِزَّاءِ، وَالْمَفْجُوعِ بِأَحْبَابِهِ الأَوِدَّاءِ.

فَقُلْتُ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ ـ أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَكَ ـ فَإِنَّ الدَّهْرَ ذُو دُوَلٍ، وَقَدْ يُسْعِفُ الزَّمَانُ وَيُسَاعِدُ، وَتَرْجِعُ دَوْلَةُ الْعِزِّ وَتُعَاوِدُ، فَتَسْتَخْلِفُ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهَا وَأَجْوَدُ.

فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا بُنَيَّ، هَذِهِ نَتِيجَةُ خَمْسِينَ سَنَةً مِنَ الْعُمْرِ أَنْفَقْتُهَا فِي تَحْصِيلِهَا، وَهَبْ أَنَّ المَالَ يَتَيَسَّرُ، وَالأَجَلَ يَتَأَخَّرُ ـ وَهَيْهَاتَ ـ فَحِينَئِذٍ لاَ أَحْصُلُ مِنْ جَمْعِهَا بعْدَ ذَلِكَ إِلاَّ عَلَى الْفِرَاقِ، الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ تَلاَقٍ.

وَأَنْشَدَ بِلِسَانِ الحَالِ:

هَبِ الدَّهْرَ أَرْضَانِي وَأَعْتَبَ صَرْفُهُ
وَأَعْقَبَ بِالْحُسْنَى وَفَكَّ مِنَ الأَسْرِ
فَمَنْ لِي بِأَيَّامِ الشَّبَابِ الَّتِي مَضَتْ
وَمَنْ لِي بِمَا قَدْ مَرَّ فِي البُؤْسِ مِنْ عُمْرِي؟؟

* * *

أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي[1]:

قال سعيد بن المبارك بن الدهان النحوي: ذكر أبو الفتح في النوادر، أن كتب أبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي احترقت بالبصرة في ربيع الأول سنة خمس وثلاثمائة بدار أبي الريان الأهوازي الكاتب، وكان قد أسكنه إياها، ولم يكن بالدار تلك الساعة، فلما علم جاء إلى الدار فوقع من غلامه المفتاح وكان الخشب ساجاً فلم ينكسر، فصعدوا

---

(١) بغية الطالب ٥/ ٢٢٧١.

إلى السطوح وكان للدرجة باب مغلق فلم ينفتح وقويت النار فحالت بينه وبين الكتب، وكان في الدار أثاث كثير لصاحبها، فغشي على الشيخ، وحمل على الظهر إلى دار أخرى لأبي الريان، فبقي يوماً وليلة لا ينطق، وثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلاَّ العسير بالكراهية، وبقي واجماً سنة لا يقرىء ولا يقرأ.

وكان أبو الريان يخدمه ويسليه بكل ما يقدر عليه، وكانت الكتب أربعمائة مجلد، فأعطاه ثلاثمائة دينار مغربية وأربعين حزمة كاغد، وكان يستحثه ويقول له: الناس يقولون عنك صحفي لأنك عجزت عن العلم بعد مضي الكتب. وكان قد سلم له المجلد الأول من كتاب سيبويه لأنه كان معه، وكان لأبي الريان نسخة بخط السيرافي فوهبها له وعاد إلى القراءة.

وقال عثمان بن جني[1]: حدثني أبو علي أنه وقع حريق بمدينة السلام، فذهب به جميع علم البصريين، قال: وكنت كتبت ذلك كله بخطي وقرأته على أصحابنا، فلم أجد من الصندوق الذي احترق شيئاً البتَّة إلاَّ نصف كتاب الطلاق عن محمد بن الحسن، فسألته عن سلوته وعزائه عن ذلك، فنظر إليَّ معجباً ثم قال: بقيت شهرين لا أكلم أحداً حزناً وهمًّا، وانحدرت إلى البصرة لغلبة الفكر عليَّ وأقمت مدة ذاهلاً متحيراً.

وفقدُ الكتاب كفقدِ الصوابِ فيا هَوْلَ من قد أضاع الكُتُبْ

* * *

(١) بغية الطالب ٥/ ٢٢٧٢، ومعجم الأدباء ٧/ ٢٥٦، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٦٣.

ابن طباطبا[1] :

إذا فجع الدهرُ امرءاً بخليله ... تسلَّى ولا يَسْلَى لفقدِ الدفاترِ

* * *

عبد الصمد بن أحمد المقرىء المحدث[2] :

هو عبد الصمد بن أحمد بن أحمد بن عبد القادر بن أبي الحسين ابن أبي الجيش بن عبد الله البغدادي القطفتي، المقرىء المحدث، النحوي. ذكره صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق في مشيخته، فقال: هو شيخ بغداد كلها، إليه انتهت رياسة القراءات والحديث بها.

كان من العلماء العاملين، والأئمة الموصوفين بالعلم والفضل والزهد. وصنف الخطب التي انفرد بفنها وأسلوبها، وما فيها من الصنعة والفصاحة، وجمع منها شيئاً كثيراً.

ذهب في واقعة بغداد مع كتب له أخرى بخطه وأصوله، حتى كان يقول: في قلبي حسرتان: ولدي، وكتبي، فإنه كان له ولد اسمه أحمد ـ وبه يكنى ـ صالح فاضل حسن السمت، خلفه بمسجد قمرية لما رتب هو شيخاً برباط سوسيان في زمن المستعصم. وكان حسن الصوت حسن القراءة، وعدم في الواقعة، وبقي يتأسَّف عليه وعلى كتبه.

* * *

القاضي ربيع بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري[3] :

كان آخِر القضاة بقرطبة أعادها الله للإسلام! لمّا استولت الرُّوم عليها،

---

(1) محاضرات الأدباء ١/ ١٢٠، والتذكرة الحمدونية ٤/ ٢٨٦.

(2) الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٢٩٢.

(3) تاريخ قضاة الأندلس ص ١١٨.

وذلك يوم الأحد الثالث والعشرين من شوَّال من عام ٦٣٣هـ فتحوَّل إلى إشبيلية، وبها توفِّي إثر انتقاله إليها.

ويقال: إنه ما هاله عظيمُ الرزءِ في مفارقة المال والوطن عند الحاجة إليه مع سنِّ الشاخة، ولا بلغ لدَيه شيءٌ من ذلك مَبلغ الرزءِ فيما تلف له من كتبه، رحمه الله ونفعه بمصابه!

* * *

محمد بن يوسف الكريمي[1]:

فقد له مجموع بخطه فقال في ذلك:

مجموعي ضاع ردّه يا صمد ... قد بان تصبّري به والجَلَد
اتّهمت أنّي بعته من سفهٍ ... هذا ولدي وهل يباع الولد

* * *

أبو بكر بن محمد بن شاذي التّقي الحِصْني الشّافعي[2]:

ارتحل إلى حلب، ثم إلى القاهرة، ثم عاد لبلده، ثم سافر إلى هراة، وأقام هناك خمسة أعوام إلى أن برع، وعاد من العراق، فحجَّ. ودخل القاهرة بعد أن اقتطع بمكان يقال له: وادي السِّباع، وأُخذ جميع ما معه من كتب وغيرها، فأُلقيت الكتب بالبريّة لعدم التفاتهم إليها، ولكنّه لم يجد محملاً لها فتركها، ونجا بنفسه مع أخذ يسير ممّا أمكنه، وتأسّف كثيراً بسببها، حتى إنّه صار كلّما تذكّر يتألَّم.

وأنشد لنفسه:

يا عينُ لا تجزعي ممّا جرى ... وارضي بتقدير العزيز الغفورْ

---

(١) خلاصة الأثر ٤/ ٢٨٠.

(٢) الضوء اللامع ١١/ ٧٦، والقبس الحاوي ٢/ ٣٨٧.

واتلي على الطَّاغين في ظلمهمُ ألا إلـــى الله تصيـــرُ الأُمـــورْ

* * *

أبو الفتح ابن جنِّي[1]:

جاء في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقِفْطِي، في ترجمة (الشريف الرَّضِـيّ). . . . : وكان الرَّضِيُّ من أهل الفَضلِ والأدبِ والعلمِ والذكاءِ وحِدَّةِ الخاطِر من صِغَرِه. ذكره أبو الفتح بنُ جِنِّيْ في «مجموعٍ» له جَمَعَهُ، وذكَرَ في بعضِ «مَجَامِيعِه» أنَّ هذا (المجموعَ) سُرِقَ منه في طريقِ فارس! وتأوَّهَ عليه كثيراً! ! ومات وهو عَادِمٌ له!

ثم إنَّ هذا المجموع حَصَل في بعضِ وقوفِ مدينة أصبهان، ولما توجَّهَ إليها سعيدُ بنُ الدهَّان البغداديُّ، وَجَد «المجموع» المذكور، فنقل منه مجلَّداً واحداً، ولم أرَ سِوَاه بخطِّ سعيدٍ المذكور.

* * *

ابن الملقن[2]:

هو الإمام الحافظ (عُمَر بنِ علي بن أحمد الوَادِي آشي) الشهير بابن المُلَقِّن، المولود بالقاهرة سنة ٧٢٣هـ، والمتوفى سنة ٨٠٤هـ رحمه الله تعالى، وقد بلَغَتْ مؤلّفاتُهُ نحوَ ثلاثِ مِئةِ مصنَّف.

---

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٢٦٣، نقلاً عن إنباه الرواة ٣/ ١١٤.

(٢) طبقات الشافعية لابن شهبة ٣/ ٣٧٣، وإنباء الغمر ٥/ ٤٥، وذيل الدرر الكامنة ص ١١٢، ووجيز الكلام ١/ ٣٦٢، والضوء اللامع ٦/ ١٠٠، والقبس الحاوي ٢/ ١٢، وشذرات الذهب ٩/ ٧١، والبدر الطالع ١/ ٥٠٨، ومقدمة طبقات الأولياء ص ٣٥، ونزهة النظار ص ٥٥، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٧١، ومن مصادره: الاغتباط بمعرفة من رُمي بالاختلاط ص ١٩.

قال السخاوي في الضوء اللامع: قال شيخنا الحافظُ ابنُ حجر العسقلاني: وكان عنده من الكتب ما لا يدخُلُ تحت الحَصْر.

وقد أعانه على تكوين هذه الخزانة الضخمة «كثرة المال، ورخاء الأسعار، وقلة العيال» كما يقول المقريزي. ذلك أن زوج أمه «عيسى المغربي» قد أحسن استثمار ماله. . . فأنشأ ربعاً، تكلف ستين ألف درهم، فكان يكتفي ابن الملقن بأجرته، وتوفر له بقية ماله وغيرها بحيث قال شيخنا: إنه بلغه أنه حضر في الطاعون بيع كتب بعض المحدثين، فكان الوصي لا يبيع إلاَّ بالنقد الحاضر. قال ابن الملقن: فتوجهت إلى منزلي فأخذت كيساً من الدراهم، ودخلت الحلقة فصببته، فصرت لا أزيد في كتاب شيئاً إلاَّ قال: بع له، فكان فيما اشتريته مسند الإمام أحمد بثلاثين درهماً. وقال المقريزي: إنه كان يتحصل له من ريع كل يوم مثقال ذهب.

ثم إنها احتَرقَتْ مع أكثَر مُسوَدَّاتِهِ في أواخِرِ عُمُرِهِ، ففُقِدَ أكثرُها! وتغيَّرَ حالُه بعدَها! فحَجَبه ولَدُهُ إلى أن مات.

وقال شيخنا ـ الحافظُ ابنُ حجر ـ أيضاً في «معجمه»: إنَّهُ قَبْلَ احتراقِ كُتُبِهِ كان مستقيمَ الذِّهْن، ولمَّا احترقَتْ كتبُهُ أنشده شيخُنا من نَظْمِهِ مُخاطباً له:

لا يُزْعجَنَّكَ يا سِرَاجَ الدِّين إن	لَعِبَتْ بكُتبكَ أَلْسُنُ النِّيرانِ
لله قَدْ قَرَّبتَها فتُقُبِّلَتْ	وَالنَّارُ مُسْرِعَةٌ إلى القُربانِ

وقال أيضاً:

ألاَ يَا سراجَ الدِّين لاَ تأسَ إن غَنَّتْ	بكُتْبكَ نارٌ ما لمعرورها عارُ
لِرَبِّكَ قَدْ قَرَّبْتَها فَتَقُبِّلَتْ	كَذَلكُمُ القُرْبانُ تأكُلُه النارُ

* * *

فاجعة أسامة بن منقذ[1] :

وهذه فاجعةٌ كُبْرَى من فواجع العلماءِ بفقدِ الكتب، تَنزِلُ بأسامة بن منقذ أمير بلدة شَيْزَر وقَلْعَتِها، وأحَدِ الشجعانِ والعلماءِ الأدباءِ في عصره، ولد سنة ٤٨٨هـ وتوفي سنة ٥٨٤هـ، وقد حَلَّتْ به هذه الداهيةُ الدهياءُ قبلَ سنة ٥٦٩هـ، في حياةِ الملِكِ العادلِ نورِ الدين الشهيد رحمهما الله تعالى.

قال الأميرُ أسامةُ في كتابه «الاعتبار»، الذي دَوَّن فيه مُجْمَلَ سيرتِه، ــ وهو يَتحدَّثُ عن هذه الفاجعة المؤلمة على مَدَى العُمُر ــ :

ثم اتَّصَلْتُ بخِدمةِ الملِكِ العادلِ نور الدين رحمه الله، وكاتَبَ الملِكَ الصالحَ ــ بنَ رُزِّيك في مصر ــ في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلَّفوا بمصر، وكان مُحْسِناً إليهم. فرَدَّ الرَّسُولَ واعتَذَر بأنه يخافُ عليهم من الإفرنج، وكَتَبَ إليَّ يقول: تَرجعُ إلى مصر وأنت تَعرِفُ ما بيني وبينك، وإن كنتَ مستوحِشاً من أهل القصر، فتَصِلُ إلى مكة، وأُنفِذُ لك كتاباً بتسليم مدينةِ أُسْوَانَ إليك، وأمُدُّك بما تتقوّى به على محاربة الحَبَشة، فأُسْوانُ ثَغْرٌ من ثغور المسلمين، وأُسَيِّرُ إليك أهلَك وأولادَك.

ففاوضتُ الملِكَ العادلَ واستَطلعتُ أمرَه، فقال: يا فلانُ، ما صَدَّقْتَ متى تَخلُص من مصر وفِتَنِها، تعودُ إليها؟! العُمرُ أقصَرُ من ذلك، أنا أُنفِذُ ــ من ــ يأخُذُ لأهلِك الأمانَ من مَلِك الإفرنج، وأُسَيِّرُ من يُحضِرُهم. فأنفَذَ رحمه الله مَنْ أخَذَ أمانَ الملِكِ في البرِّ والبحر، وسَيَّرتُ الأمانَ مع غلام لي وكتابَ الملِك العادِل وكتابي إلى الملِكِ الصالح، فسيَّرهُم في عَشَارِيّ من الخاصِّ إلى دِمْيَاط، وحَمَل لهم كلَّ ما يَحتاجونَهُ من النفقاتِ والزاد، ووَصَّى بهم.

---

(١) صفحات من صبر العلماء ص ٢٦٩.

وأقلعوا من دِمياط في بُطْسَةٍ من بُطس الإفرنج، فلما دَنَوْا من عَكّا والملكُ ـ لا رحمه الله ـ فيها، نفَّذَ قوماً في مركبٍ صغير، كسّروا البُطْسَة بالفُؤُوس، وأصحابي يرَوْنهم، ورَكِبَ ووَقَفَ على الساحل، ونُهِبَ كلُّ ما فيه! فخَرَج إليه غلامٌ لي سِبَاحَةً، والأمانُ معه، وقال له: ما هذا أمانُك؟ قال: بلى، ولكن هذا رَسْمُ المُسْلِمين: إذا انكسَرَ لهم مَرْكَبٌ على بلدٍ، نَهَبه أهلُ ذاك البلد! قال: فَتَسبِينا؟ قال: لا.

وأَنزلهم ـ لعنه الله ـ في دار، وفتَّش النساءَ، حتى أخَذَ كلَّ ما معهم، وقد كان في المركب حُليٌّ أودَعَه النساءُ، وكِسْوَاتٌ وجواهِرُ وسُيوفٌ وسِلاحٌ وذَهَبٌ وفِضَّة، بنحوٍ من ثلاثين ألفَ دينار، فأخَذَ الجميع، ونَفَّذَ لهم خمسَ مئة دينار، وقال: تَوَصَّلوا بِهذِهِ إلى بلادِكم، وكانوا رجالاً ونساءً في خمسين نَسَمة. وكنتُ إذ ذاك مع الملِكِ العادلِ في بلادِ الملكِ مسعود: رَعْبان وكَيْسُون.

فهوَّنَ عليَّ سلامةُ أولادي وأولادِ أخي حِرْمانَ ما ذَهَب من المال، إلاَّ ما ذَهَب لي من الكتب! فإنها كانت أربعةَ آلافِ مجلَّدٍ من الكتبِ الفاخرة، فإنَّ ذهابَها حَزَازةٌ في قلبي ما عِشتُ! فهذه نكبَاتٌ تُزَعْزِعُ الجبال، وتُفْنِي الأموالَ، والله سبحانه يُعوِّضُ برحمته، ويختِمُ بلطفِهِ ومغفرتِه.

* * *

عليّ بن إبراهيم بن علي بن معتوق بن عبد المجيد بن وفا، المعروف بابن الشردة[١]:

قدم إلى دمشق مراتٍ ووعظ بها بالجامع الأموي، ثم حصل له خلط سوداويّ فتغير حاله، وكان يدَّعي في هذه الحالة أنه كانت له ببغداد كتب

---

(١) أعيان العصر ٣/ ٢٤٩، وفوات الوفيات ٢/ ٤٦٣، والدرر الكامنة ٣/ ٧٦.

تقدير ألفي مجلدة، وأن جماعة من التجار الذين قدموا دمشق اغتصبوها وقدموا بها دمشق وأباعوها، وكان ذلك كله من مخيلة السوداء، فساءت حاله وأضرَّت به.

وكان إذا دفع إليه أحد شيئاً من دراهم أو غيرها لا يقبل منه، ويقول: مَن أنت؟ أظنُّ عندك شيء من كتبي فأنت تُبرطلني على ذلك؟! ولا يقبل لأحدٍ شيئاً إلاَّ بعد الجهد.

وكان قد أتى إلى بعض الحكَام وادَّعى عنده، وهو في هذه الحالة، على التجَّار الذين أخذوا كتبه، فقال له القاضي: يا شيخ علاء الدِّين، قولك دعوى، ألك بيّنةٌ تَشْهَد بذلك؟ فقال له: كيف يكون لي بيّنة، وقد صفعوك منها بمئتي مجلد؟! يعني دفعوها بِرْطيلاً، فضحك القاضي والحاضرون منه.

وكتب ــ وهو في هذه الحالة ــ قصّة للأمير سيف الدين يلبغا اليحيوي نظماً:

يا نائبَ السُّلطانِ لا تَكُ غافِلاً ... عن قَتْلِ قومٍ للظواهِرِ زوّقوا
قَومٌ لهم وَقْعٌ وذِكْرٌ في الورى ... ويُرى عليهم في المهابةِ رَوْنَقُ
وإذا رأوا شيئاً عليه تحيّلوا ... في أخذه وتأولّوا وتملّقوا
ما هم تجارٌ بل لصوصٌ كُلُّهم ... فأْمُرْ بهم أن يُقتلوا أو يُشنقوا
المَيْنُ دأبُهُمُ إذا ما حَدَّثوا ... ما فيهم مَنْ في كلامٍ يَصْدُق
مَرَقُوا من الدين الحنيف بأسرهم ... كالسّهم ظل من الرميّة يَمْرُق
كم أستغيث وكم أضجّ وأشتكي ... منهم إليك وكَمْ لقلبي أحرقوا
سدّوا عليّ الطُّرْقَ بغياً منهم ... أنّى اتجهتُ وللأعادي أذْلَقوا
وأتَوا بمالي من لآمةِ طَبْعهم ... نحو الشآم وبينهم قد مزّقوا
وأراك لا تُجدي إليك شكاية ... إلاّ كأنك حائطٌ لا ينطق
ماذا جوابك حين تُسأل في غدٍ ... عَنهم ورأسُك من حيائك مُطْرِق

مـا أنـت راعٍ والأنـام رعيّـة | وإذا ركبت، لك الملوك تُطرَق؟
كُن مُنصفَ المظلوم من غُرمائه | فـالبغـيُ مَصْـرَعـةٌ وفعِـلٌ مُـوْبِـق
واكشف ظُلامةَ مَن شكا مِنْ خصمه | فـالحـقُّ حـقٌّ واضـحٌ هُـوَ مُشْـرق
لا تَعْفُ عن قوم سَعَوا لفسادهم | فـي الأرض بغيـاً منهـم وتجـوّقـوا
وانصب لهم شَرَكَ الرّدى إنْ أنْجَدوا | أو أتهَمـوا أو أشـأمـوا أو أعـرقـوا
لا تنبرق منهم وإنْ هُمْ أسرجوا | أو ألجمـوا أو أرعـدوا أو أبـرقـوا
ومتـى ظفـرت بمُفْسـدٍ لا تُبْقِـه | فبقـاؤه للنـاس ضُـرٌّ مُقْلِـقُ
واكْفُفْ أكُفَّ الظالمين عن الورى | ليكُـفَّ عنـك اللّـهُ شـرّاً يطـرق
لا زلـت سيفـاً لـلأعـادي قـاطعـاً | ورؤوسهـم مهمـا حَييـت تُحَلَّـق
وبقيـت فـي مَجْـدٍ رفيـعٍ لا يَهـي | وبُنُـودُ نصـرك عـاليـات تخفِـق

* * *

الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القِفطي، يعرف بالقاضي الأكرم[(١)]:

قال صاحبُه وخَدِينُه العلامة ياقوت الحَمَوي: هو أحَدُ الكتاب المشهورين المبرِّزين في النظم والنثر.

ولد في ربيع سنة ثمان وستين وخمسمائة بمينة قِفط من الصعيد الأعلى بمصر، ونشأ بالقاهرة، واجتمعتُ بخدمته في حلب، فوجدته جَمَّ الفضل،

---

(١) معجم الأدباء ١٥/ ١٨٧، ومفرجّ الكروب ٤/ ٣١٢، وتاريخ الإسلام ٤٧/ ٣٢٥، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٢٧، والعبر ٣/ ٢٥٥، والوافي ٢٢/ ٣٣٨، والطالع السعيد ص ٤٣٦، وفوات الوفيات ٣/ ١١٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٦، ومرآة الجنان ٤/ ١١٦، وبغية الوعاة ٢/ ٢١٢، وشذرات الذهب ٧/ ٤٠٨، وأعلام النبلاء ٤/ ٣٩٦، والعلماء العزّاب ص ١٤٣، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٧١، ومقدّمة إنباه الرواة ١/ ٢٠، والمحمدون من الشعراء ص ت.

كثيرَ النُّبل، عظيمَ القَدْر، سَمْحَ الكفّ، طَلْقَ الوجه، حُلْوَ البشاشة.

وكنتُ ألازِمُ منزلَه ويَحضُرُ أهلُ الفضل وأربابُ العلم، فما رأيتُ أحداً فاتَحَه في فنّ من فنون العلم، كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجَرْح والتعديل وجميع فنون العلم على الإطلاق إلاّ قام به أحسنَ قيام، وانتظم في عِقدِهم أحسنَ انتظام...

وكان القاضي الأكرم المذكورُ جَمَّاعة للكتب، حريصاً عليها جداً لم أرَ ـ مع اشْتِمَالِي على الكتب وبيعي لها وتجارتي فيها ـ أشدَّ اهتماماً منه بها، ولا أكثَرَ حرصاً منه على اقتنائها، وحَصَل له منها ما لم يَحصُل لأحد، وكان مقيماً بحلب، وذلك أنه نشأ بمصر، وأخَذَ بها من كل علم بنصيب.

وقال المؤرِّخ ابنُ شاكر الكتبي:

وجمَعَ من الكتب ما لا يُوصف، وقُصِدَ بها من الآفاق، وكان لا يُحِبُّ من الدنيا سِوَاها، ولم تكن له دارٌ ولا زَوْجَةٌ، وأوصَى بكُتُبِهِ للناصِر صاحبِ حلب، وكانت تُساوِي خَمْسين ألفَ دينار[1].

وقال النويري: كان مُحِباً للكتُب، جَمَّاعاً لها، جَمَعَ منها ما لم يجمعه أحدٌ من أمثاله، واشتهر بالرغبة فيها، والمُغالاة في أثْمانها، فقَصَدَه الناسُ بها من الآفاق، فاجتمع له منها أُلوف كثيرة، بالخطوط المَنْسُوبة، وخطوط المشايخ والمُصَنِّفين، ولم يَقَعْ له كتابٌ مَلِيح فَرَدَّه، بل يبالغ في إرضاء صاحبه بالثَّمَن، فإذا ملكه استَوْعَبَ قِراءته، ثم جعله في خَزَائِنِه، ثم يَشِحُّ في

---

(١) قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في كتابه صفحات من صبر العلماء ص ٢٧٢: ويقعُ في حِسباني أنَّ (خمسين ألفَ دينار) في زمنِهِ تُعادِلُ عشرة ملايين ريال سعودي في زمننا أو تَزِيدُ.

إِخْراجِه، فلا يكاد يُظْهِرُ عليه أَحَداً، صِيانةً له وضَنّاً به!

قال الحافظ مُحِبُّ الدين ابن النجار: كُنَّا عنده ليلة في شهر رمضان، فجَرَى بَحْثٌ أَفْضَى إلى اعتبار كَلِمة وكَشْفِها من كتاب الصِّحَاح. فقال لبعض مماليكه: اذهبْ إلى المُؤَيَّد ــ يعني أخاه ــ وأحضر من عنده نسخة من الصِّحَاح.. قال: فقلتُ له: والمولى ما عنده نُسخةٌ من الصِّحَاح؟! فقال: وحياتِك ــ يا مُحِبُّ ــ عندي خمسُ نسخ، وما يطيبُ على قلبي أن أُخْرِجَ منها نسخة ــ لا سيما بالليل، ونحتاج إلى إدخال الضوء.

وله في شغَفِه بالكتب حكايات كثيرة.

قال الصلاح الصفدي: منها أنه وقَعَ له نُسخةٌ مَليحةٌ من كتاب «الأنساب» لابن السَّمْعاني بخَطِّه، يُعوِزُها مُجَلَّدٌ من أَصْلِ خمسةٍ، فلم يَزل يَبحَثُ عنه ويَطلُبُه من مَظَانِّه، فلم يَحصُلْ عليه! وبعدَ أيام ــ من يَأْسِه من الحُصُولِ عليه ــ اجتاز بعضُ أصحابِه بسُوق القَلَانِسِيِّين بحلب، فوَجَدَ أَوْرَاقاً من كتابِ «الأنساب» المفقودِ عنده، فأحضرَهَا إليه، فأَحضَرَ الوزيرُ الصَّانِع، وسألَهُ عنه، فقال: اشتريتُهُ في جُملةِ أوراق، وعَمِلتُه قَوَالِبَ للقَلانِس!

فحَدَث عند الوزير من الهَمِّ والغَمِّ والوُجُوم ما لا يُمكن التعبيرُ عنه! حتى إنه بَقِيَ أياماً لا يَركَبُ إلى القَلْعَةِ ــ مَقَرِّ الحكم والوِزارة ــ ، وقَطَعَ جلوسَه، وأحضر من نَدَبَ على الكتاب كما يُندَبُ على الميتِ المفقودِ المؤيَسِ منه! وحضَرَ عنده الأعيانُ يُسلُّونَهُ كما يُسَلَّى من فُقِدَ له عزيز!

وفي كتابه «الإنباه» نجده كثيراً ما يفخر بأنه اقتنى كتاباً بخط مؤلف معروف، أو ناسخ مشهور، أو عثر على نسخة فريدة من كتاب لا توجد عند سواه.

وقد جمع مقداراً وافراً من التعليقات والفوائد والطرف التي تعوّد

العلماء أن يضعوها على ظهور الكتب. ولما اجتمع له قدر صالح منها رأى أنها تستأهِل أن تكون كتاباً، فكان كتاب «نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحاسن ما نقل من ظهور الكتب».

وقال ياقوت: كَانَ صَفِيُّ الدِّينِ الأَسْوَدُ عِنْدَ نُزُولِ المَلِك الأَشْرَف بِحَلَبَ قَدْ عَرَضَ كِتَاباً لَهُ يُعْرَفُ بِالتَّذْكِرَة لابْنِ مُسَيْلِمَةَ ــ وَكَانَ مَعْرُوفاً بِالْبَغَاءِ ــ أَحَدِ كُتَّابِ مِصْرَ يَشْتَمِلُ عَلَى قَوَانِينِ الْكِتَابَةِ وَآيين الدَّوْلَةِ الْعَلَوِيَّةِ، وَأَخْبَارِ مُلُوكِ مِصْرَ الْمُتَقَدِّمين، فِي ٱثْنَيْ عَشَرَ مُجَلَّداً، وَدُفِعَ لَهُ فِيهِ مَا سَمَحَ بِبَيْعِهِ. وَعُرِضَ عَلَى الصَّاحِبِ الْكَبِيرِ جَمَالِ الدِّينِ الأَكْرَم أَدَامَ اللَّهُ عُلاَهُ وَكَبَتَ أَعْدَاءَهُ، فَأَرَادَ شِرَاءَهُ ــ وَٱتَّفَقَ رَحِيلُ الْمَلِكِ الأَشْرَفِ إِلَى نَوَاحِي الجَزِيرَةِ ــ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ثَمَنَهُ وَزِيَادَةً فِي مِثْلِهِ وَافِرَةً، فَلَمَّا عَلِمَ صَفِيُّ الدِّينِ أَنَّ الْمُشْتَرِيَ هُوَ الْوَزِيرُ أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ ضَنَّ بِالْكِتَابِ وَٱعْتَبَطَ، وٱحْتَجَّ وَخَلَطَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ قَدَّمَهُ لِلْخِزَانَةِ الأَشْرَفِيَّةِ.

فكَتَبَ الصَّاحِبُ الْوَزِيرُ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ الْقَيْلَوِيِّ ــ وَكَانَ وَسِيطَهُ فِي شِرَاء الكِتَابِ الْمَذْكُورِ ــ مَا هَذِهِ نُسْخَتُهُ:

العِزَّةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ:

أَتَانِي كِتَابٌ مِنْ حَبِيبٍ فَشَاقَنِي
إِلَيْهِ وَزَادَ الْقَلْبَ وَجْداً عَلَى وَجْدِ
وكِدْتُ لِمَا أَضْمَرْتُ مِنْ لاَعِجِ الْهَوى
وَوَجْداً عَلَى مَا فَاتَ أَقْضِي مِنَ الْوَجْدِ

وقفتُ عَلَى الْكِتَابِ الكَرِيم الصَّادِرِ عَنِ الْمَجْلِس السَّامِي القَضَائِيِّ العِزِّيِّ ــ لاَ زَالَتْ سِيَادَتُهُ تَتَجَدَّدُ، وَسَعَادَتُهُ تَتَأَكَّدُ، وَفَوَاضِلُهُ تَتَرَدَّدُ، وَفَضَائِلُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ تَصْدُرُ، وَفِي المَجَالِس تُورَدُ ــ وَعَلِمتُ إِشَارَتَهُ فِي التَّذْكِرَةِ المُسَيْلِمِيَّةِ وَالنِّيَّةِ فِي حَمْلِهَا إِلَى الخِزَانَةِ الأَشْرَفِيَّةِ. وَلَقَدْ زُفَّتْ إِلَى أَجَلِّ

خَاطِبٍ، وَرَقِيَتْ بَعْدَ انْحِطَاطِهَا إِلَى أَسْنَى المَرَاتِبِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ بِكْرَ فِكْرِ أَكَابِرَ، فَمَا هِـيَ إِلَّا بِنْتُ عِدَّةِ آبَاءٍ، وُلِدَتْ عَلَى فِرَاشِ عَوَاهِرَ، كَانَ عَلَيْهِ البِغَاءُ فِـي العَالَمِينَ عَلَامَةً، أَعْنِـي ٱبْنَ مُسَيْلِمَةَ ذَا الدَّاءِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ، فَجَاءَتْ ذَاتَ غَرَامٍ لَا يَشْفِـي قَطْمَهَا إِلَّا السُّودَانُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ نَاكِحَهَا الثَّانِـي لِاتِّفَاقِ الأَلْوَانِ، وَأَبَـى اللَّهُ لَهَا إِلَّا أَنْ تُهْدَى إِلَى المَقَرِّ الأَرْفَعِ، وَأَنْ يَقَعَ الابْتِنَاءُ بِالْبَغِـيِّ مِنَ الْهُمَامِ الأَرْوَعِ، وَلَسْتُ يَائِساً عَلَى عَدَمِهَا، وَلَا رَاجِياً شِفَاءَ كَلْمِـي بِكَلْمِهَا:

تَحَمَّـلَ أَهْلُهَـا عَنِّـي فَبَـانُـوا عَلَـى آثَـارِ مَـنْ ذَهَـبَ الْعِفَـاءُ

وَكَأَنِّي بِسَامِيهِ عَرَضَ هَذَا الْكِتَابَ عَلَى مَنْ لا أُسَمِّيهِ، فَقَرَنَ حَاجِبَيْهِ، وَلَوَى شَفَتَيْهِ، وَلَمَسَ عُثْنُونَهُ تَعَجُّباً، وَأَمَالَ عِطْفَيْهِ تَظَرُّفاً، وَقَالَ: أَذْكَرَنِـي سَجْعَ الْكُهَّانِ، وَأَسْمَعَنِـي قَعْقَعَةَ صَعْصَعَةَ بْنِ صَوْحَانَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا يَصِفُونَ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْثَةُ مَصْدُورٍ، صَدَرَ نَافِثُهَا بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ.

وَأَمَّـا سُـؤَالُـهُ عَمَّـا حَصَـلَ مِـنَ الْكُتُـبِ فِـي غَيْبَتِـهِ، فَمَـا هِـيَ إِلَّا الْبَحْـرُ جَـادَ بِـدُرِّهِ، وَمَكَّنَنِـي مِـنْ لُجِّـهِ وَسَـوَاحِلِـهِ، حَصَـلَ مِـنْ نَفَـائِسِهَـا أَعْلَاقٌ نَفِيسَةٌ، وَأَضْحَتْ عَلَى بُغْضِ المُزَاحِمِ عَلَيْهَا مَوْقُوفَةً حَبِيسَةً، لَوِ امْتَدَّتْ يَـدٌ إِلَيْهَـا لَشَلَّـتْ، وَلَـوْ سَعَـتْ إِلَيْهَـا قَـدَمٌ لَمَـا أَقَلَّـتْ جُثَّتَهَـا وَلَا ٱسْتَقَلَّـتْ، لَا ٱبْـنُ الْعَـدِيـمِ يَعْـدَمُهَـا، وَلَا القِيْلَـوِيُّ يُقَلِّلُهَـا، وَلَا الصَّفِـيُّ يَصْطَفِيهَـا، وَلَا المَجْدُ يَخْـتَـزِلُهَا،

«خَلَا لَكِ الجَوُّ فَبِيضِـي وَٱصْفِرِي»

وَتَعْدَادُ الْمُجَدَّدِ مِنْهَا يَقْصُرُ عَنْهُ الْكِتَابُ، وَيَقْصُرُ دُونَهُ الخِطَابُ، واللَّهُ المُوَفِّقُ.

* * *

أبو الشبل عاصم بن وهب[1] :

أخبر الحسن بن عليّ الشَّيباني قال: دخلتُ على أبي الشبل عاصم بن وهب يوماً فوجدتُ تحت مخدّته ثُلثَ قرطاس، فسرقتُه منه ولم يَعلَم بي.

فلما كان بعد أيام جاءني فأنشدني لنفسه يَرثي ذلك الثلثَ القرطاس:

فِكَر تَعتري وحزنٌ طويلُ ... وسقيمٌ أَنْحَى عليه النُّحُولُ
ليس يبكي رَسْماً ولا طَلَلاً مـ ... ـحَّ كما تُنْدَب الرُّبا والطُّلولُ
إنما حزنُه على ثُلُثٍ كا ... ن لحاجاته فغالتْه غُولُ
كان للسرِّ والأمانة والكتـ ... ـمان إن باح بالحديث الرسولُ
كان مِثلَ الوكيل في كلّ سوقٍ ... إنْ تلكَّا أو ملَّ يوماً وكيلُ
كان للهمِّ إن تراكَمَ في الصد ... ر فلم يُشْفَ من عليلٍ غليلُ
لم يكن يبتغي الحِجَاب من الحـ ... ـجّاب إن قيل ليس فيها دخولُ
إنْ شكا حاجباً تَشدّد في الإذ ... ن فللحاجب الشقيِّ العويلُ
يُرفَع الخيرُ عنه والرزق والكُسـ ... ـوةُ فهو المطرود وهو الذليلُ
كان يُثْنَى في جَيب كلِّ فتاةٍ ... دونَها خَندقٌ وسُورٌ طويلُ
يقف الناس وهو أول من يُد ... خله القصرَ غادةٌ عُطْبولُ
فإذا أبرزَتْه باح به في الـ ... ـقصر مسكٌ وعنبر مَعْلولُ
وله الحبّ والكرامة ممن ... بات صَباً والشمّ والتقبيلُ
ليس كالكاتب الذي بأبي الخـ ... ـطّاب يُكْنَى قد شابه التطفيلُ
ذا كريمٌ يُدْعَى، وهذا طفيـ ... ـليٌّ وهذا وذا جميعاً دليلُ
ذاك بالبشر والجماعة يُلقَى ... ولهذا الحجاب والتنكيلُ
لم يفِد وفدُه الزمانَ على الألـ ... ـسن منه عطفٌ ولا تنويلُ
كان مع ذا عدل الشهادة مقبو ... لاً إذا عَزَّ شاهداً تعديلُ

---

(١) الأغاني ١٤/٢٠٩، والتذكرة الحمدونية ٤/٢٩٢.

وإذا مـا ٱلتـوى الهـوى بـالأليفيـ ـــن فلـم يَـرْعَ واصـلاً مَـوْصـولُ
فهـو الحـاكـمُ الّـذي قـولُـه بيـ ـــن الأليفَيـن جـائـزٌ مقبـولُ
فلئـن شَتَّـت الـزمـانُ بِـه شَمـ ـــلَ دَواتـي وحـانَ منـه رحيـلُ
لَقـديمـاً مـا شَتَّـت البيـنُ والأُلـ ـفَةُ من صاحبٍ، فصبر جميلُ
لا تَلُمْنـي علـى البكـاء عليـه إنَّ فقـدَ الخليـل خطـبٌ جليـلُ

قال: فرددتُه عليه، وكان ٱتَّهم به أبا الخطّاب الذي هجاه في هذه القصيدة، فقال لي: ويلك، نُجِّيتَ ووقع أبو الخطّاب بلا ذنب!! ولو عرفتُ أنّك صاحبها لكان هذا لك، ولكنّك قد سلمتَ.

* * *

أبو هلال العسكري:

قال في كتابٍ أكلته الأرضة[١]:

وجليـسٍ حسـنُ المحـ ـضر مـأمـونُ المغيـبِ
ميـتٌ يخبـرُ حيًّـا بخفيـاتِ الغيـوبِ
أبلـهٌ غيـرُ لبيـبٍ وهـو فـي حـالِ اللبيـبِ
جـاهـلٌ غيـرُ أديـبٍ وهـو عـونٌ لـلأديـبِ
أخـرسٌ غيـرُ خطيـبٍ ولـه لفـظُ الخطيـب
مفحـمٌ ينظـمُ شِعْـراً مثـلَ إقبـالِ الحبيـبِ
سـاكـتٌ يـروي حـديثـاً مثـلَ إعـراضِ الـرقيـبِ
نمّقتـهُ الكـفُّ حتـى هـو كـالـوشـي القشيـبِ
مـن سـوادٍ وبيـاضٍ كشبـابٍ ومشيـبِ
فيـه إمتـاعٌ لأبصـا رِ وأنـسٌ للقلـوبِ

---

(١) ديوان المعاني ص ٥٢٧، وديوان العسكري ص ٦٥.

دبَّ فيهـــــنّ دبيــــبٌ كــان مــن شــرٍّ الــدبيــبِ

مـــن صغيــراتِ جســوم وكبيــراتِ الــذنــوبِ

أخـــذت منهـــا نصيبـــاً فــالتــوى منهــا نصيبــي

أَفْــرَحَــتْ قلــبَ جهـولِ وكـــوت قَلْـــبَ لبيـــبِ

ويـل هــاتيـك المعـانـي مــن بــديــع وغــريــبِ

وأفـــانيــــن كــــلامِ بيـــن سهـــلِ وصليـــبِ

مـــن بـــديــعِ وفصيــحِ وصحيـــــح ومصيـــــبِ

بُـــدّلَ الإِفصـــاحُ منهــ ـــنَّ بـــإفْسَـادِ عجيـــبِ

فنجـــوم العلـــمِ والفهْـ ـــم تهــاوت للغُــروبِ

كــل شــيءٍ ســوفَ يفْنَـىٰ عـــن بعيــدِ وقـــريـــبِ

* * *

عبد الله بن محمد المعتز:

قال في أرضة وقعت في كتبه(١):

لـم أَبْـكِ رَبْعـاً مُقْفِـراً ولا طَلَـل وَلا شَبـابـاً حَـانَ مِنْـه مُـرْتَحَـل

ولا حِبيبـاً قَطَـع الـوَصْـل وَمَـل لكـن لِعظـمِ حَـادِث بـي قَـدْ نَـزل

كنـتُ امْـرءاً مِـن الأَنَـام مُعْتَـزَل عَلَـي سِتْـر دونَ ذَمِّـي مُنْسَـدِل

علـى الَّـذِي يَمْلِـك رِزْقِـي مُتَّكـل لَا رَاجِيـاً لِـدَوْلَـة مِـن الـدُّول

ولا أَخـافُ أَجَـلاً عَلـى أَمَـل شَغْلـي إِذَا مَـا كَـان لِلنَّاس شُغُـل

دَفْتَـر فِقْـه أَوْ حَـديـثٍ أَو غَـزَل لاَ عَـايِبِـى وَلاَ يَـرى مِنِّـي زَلـل

تَخَـالُـه مُكْتَحـلاً وَمَـا اكْتَحـل رَاكِـبُ كَـفٍّ أَينَمـا شَـاءَتْ رَحـل

---

(١) ديوان ابن المعتز ٢/ ٢٠٠، ورسائل ابن المعتز ص ١٢٧ وص ١٤٢، وديوان المعاني ص ٥٢٨، وريحانة الألبا ٢/ ٤٨٢.

وَإِن مَلِلتُ قُربه مِنّي اعْتَزَل أَرْقَط ذُو لَوْن كَئيبِ المُكْتَهِل
وَلاَ يَحُلُّ مَوْضِعاً حَتَّى تَحُل وَهُو دَلِيل لِمقَال وَعَمل
يقيم وَزْن العَقْل حَتَّى يَعْتَدِل وَيذكِرُ النَّاسِي مَا كَان أَفِل
كَأَنَّه يَنْشُر عَنْ رَقم الحُلَل يُخَاطِب اللَّحْظ بنُطْقٍ لاَ يكل
وَلا يَمَل صَاحِباً حَتَّى يُمَل فَدَب فِيهن دَبيبٌ قَدْ أَكل
عَصا سُليمانَ فَظَل مُنْجَدل يَبْنِي أَنَابيبَ لَه فِيها سُبُل
بالماءِ والطِّينِ وَمَا فيها بَلَل مِثْلَ العُروق لاَ تَرى فِيها خَلَل
يأْكُل أَثمارَ العُقولِ لاَ أَكل حَتَّى تَرى العَالِم مَهْجُورَ المَحل
يَعودُ وَقَّافاً وَقَد كَان بَطَل قَدْ فَاته العِلْم القَديمُ فَانْخَزل
فَأَوْدَع القَلب هُمُوماً تَشْتَعل وَصَيَّر الكُتْبَ سَحِيقاً مُنْسَحل

* * *

أحمد الصافي النجفي :

قال في عثّ الكتب[1] :

العثُّ بالكتب مولع أبداً يأكل منها ما شاء منتخِبا
يَلهم أحلى أشعارها، طرِبا لا يشتكي تخمة ولا تعبا
كم آي قول بالأكل أنقصَه لم يُبق منه رأساً ولا ذنبا
فحار فكري في كشف غائبه وعدت للعجز حائراً غضِبا
وصحتُ بالعثّ، ثائراً، صخباً يلعن شعري أمّاً له وأبا
هل يا ترى العثُّ يعشق الأدبا لذاك يهوى الأشعار والكتُبا؟
أهُو الأديب الأميُّ يعجز أن يتلو، لذا راح يأكل الأدبا؟

* * *

(١) الشلال ص ٢١٠.

علي باكثير :

قال في وصف الفَراش وتساقطه عليه حين المطالعة[1] :

ألا شتَّــت الله شمــل الفَــراش ... فعسكــره إن أتــى الليــل جــاشْ
يشــوِّشنــي فــي مطــالعتــي ... ويلــزمنــي نــائمــاً فــي الفــراش
فبعــداً لــه ثــم بعــداً لــه ... فيــا ليتــه مــأكــل للحنــاش
إذا مــا قــرأت كتــابــاً أتــى ... يهــرول هــرولــة بــانتعــاش
كــأن الكتــاب عــدو لــه ... فيُمضــي إليــه سهــامــاً تــراش
متــى ضــربتــه يــدي ضــربــة ... تمــاوت ثــم علــى الفــور عــاش
وقــد رمــت أهلكــه جملــةً ... فَلُبِّــي ممــا يعــانيــه طــاش
فــأقتــل هــذا وأضــرب ذا ... فذا في احتضار وذا في ارتعاش
فجئــن إلــيَّ محــاربــةً ... عظــامــاً سمــانــاً كمثــل الكبــاش
فــأصطــادهــن ولكنهــن ... هــن الظبــاء وإنــي (خــراش)[2]!
ألا قبــح الله تلــك الــوجــوه ... وتلــك الجســوم وتلــك الــريــاش

* * *

محمد بن يسير :

هجمتْ شاةُ منيع البَقَّال على دار محمد بن يسير، وهو غائب، وكانت له قراطيس فيها أشعار وآداب مجموعة، فأكلتها كلّها، فقال في ذلك[3] :

---

(١) ديوان أزهار الربا في شعر الصّبا ص ٨٥.

(٢) معنى البيت تضمين لقصةٍ معروفة في التراث عن رجل يُدعى (خراش)، أراد أن يصيد ظبيةً فتجمعت حوله ظباءٌ كثيرة، جاءت في قول الشاعر القديم:

تفــرقــت الظبــاء علــى (خــراشٍ) ... فلــم يعــرف (خــراش) مــا يصيــد

(٣) الأغــانــي ١٤/ ٣٠ مــا عــدا البيت الثــالــث، وروايــة تقييــد العلــم ص ١٤٧ : أتــى الأصمعي رجل فسأله أن يكتب له شيئاً من العلم، فكتبه له؛ فلما كان بعد أيام عاد =

قـل لبغـاة الآداب مـا وصلـت ... منهـا إليكـم فـلا تضيعـوهـا
ضمنوا علمها الـدفاتـر والحبـ ... ـر بحسـن الكتـاب أوعُـوهـا
إن اشتـريتـم يـومـاً لأهلكـم ... شـاة لبـونـاً فـلا تجيعـوهـا
فـإن عجـزتـم ولـم يكـن علـف ... يشبعهـا عنـدكـم فبيعـوهـا

* * *

أحمد الصّافي النّجفي:

قال قصيدة بعنوان «يغرق في الصحراء»[1]:

بعثت بديواني العزيز لموطني ... لأجمع من بيعي له التبرَ والدُّرَّا
فجـاء بـريـدٌ ثـم ثـان وثـالـث ... وكنت بها ما زلت أنتظر البشرى
فجاء بريد النحس من بعدُ مخبراً ... بـأن يـد الأقـدار أغـرقـت السّفـرا
فقلـت طـريـق البَـرّ كـان طـريقـه ... وهل تغرق الأقدار من سلك البرَّا
أيغـرق ديـوان لـه البـر مسلـك ... فكيف إذن لو كنت أسلكته البحرا
فقـالـوا أتـى سيـل فغطـاه غمـرهُ ... وبيـن رمـال البـرّ شـق لـه قبـرا
فقلت انظروا يا أيها الناس واعجبوا ... كتاب لسوء الحظ يغرق في الصحرا
ويظهر لي أن السما بعدما غدت ... على الأرض غضبى لا تسح لها القطرا
درتِ أنني أرسلت سفري فجهزت ... له من هوامي سُحبها عسكراً مجرا
فـلاقـت كتـابـي فـي الطـريـق كتـائـب ... مـن السحب روّى قـطرهـا السهـل والوعـرا
فأضحت جميعُ الكائنـات طروبـة ... إلى مرسل الأمطـار مسديـة شكـرا
ولم تـدر أن الغيـث لم يـك رحمـة ... لها بـل بلاء لـي، فأسعـدها قسـرا

= إليه، فقال: يا أبا سعيد، إن ذلك القرطاس الذي كتبته لي سقط مني فأكلته الشاة، فأحب أن تكتب لي غيره ثانياً فكتب له، وكتب: «الأبيات».

(١) التيّار ص ٩٦.

ولو عرفت أسدت لسفريَ شكرها　　فسفري من الأمطار في شكرها أحرى
فكانت تسليه بشكر، فقد مضى　　ضحيتها كي ترتوي، وقضى حرا
وأمسيت دون الكون وجهي عابس　　تصـوّب عينـي للسمـا نظـراً شـزرا
ولـو أنني أرسلـت سفـري مكـرراً　　لدامت به الصحراء زاهية خضرا
فيـا ليـت لـي سفـراً أكـرر طبعـه　　إذا ظـل منـه السيـل منـدفقـاً نهـرا
فتغدو أهالي البَر لا تشتكي ظما　　ولا تشتكي جدباً ولا تشتكي فقرا
وتصبح لا محتاجة من حكومة　　لـري ولا تحتـاج أن تحفـر البئـرا
ويا ليت وجه الكون ما انفك باسماً　　إذا كان وجهي عابساً منه مزوَرَّا



٥ ـ فصل في
أخبارهم في بيع كتبهم للضرورة والحزن عليها

أنشد عليّ بن محمّد بن ثابت الخولاني المعروف بالحّداد المَهْدَويّ[(١)] :

قَـــالَــتْ وَأَبْـــدَتْ صَفْحَـــةً ... كَـالشَّمْـسِ مِـنْ تَحْـتِ القِنَـاعِ
بِعْـتَ الــدَّفَــاتِـرَ وَهِــيَ آ ... خِـرُ مَـا يُبَـاعُ مِـنَ المَتَـاعِ
فَــأَجَبْتُهَــا وَيَــدِي عَلَــىٰ ... كَبِـدِي وَهَمَّــتْ بِـانْصِـدَاعِ
لاَ تَعْجَبِــــي مِمَّـــا رَأَيْـ ... ـتِ فَنَحْـنُ فِـي زَمَـنِ الضَّيَـاعِ

* * *

أبو الحسن علي بن أحمد الفالي الأديب[(٢)] :

حكى الخطيب أبو زكرياء يحيى بن علي التبريزي اللغوي: أن أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سَلَّك الفالي الأديب كانت له نسخة

---

(١) معجم السفر ص ٢٤٠، وأخبار وتراجم أندلسية ص ٧٥، ومعجم البلدان ٥/ ٢٣١، ونفح الطيب ٤/ ١٥٣، والتكملة ٣/ ١٥٢، وما عدا الثالث في المحاضرات في اللغة والأدب ٢/ ٤٧٠، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٦٧.

(٢) المنتظم ١٦/ ١٠، ومعجم الأدباء ١٢/ ٢٢٨، ووفيات الأعيان ٣/ ٣١٦، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٥، ومرآة الجنان ٣/ ٥٦، والفلاكة والمفلوكين ص ١١٧، وبغية الوعاة ١/ ٧٨، والمزهر ١/ ٩٥، وشذرات الذهب ٥/ ١٧١، ونزهة الجليس ٢/ ٦٠، ونسمة السّحر ٢/ ٣٦٤، وموسوعة الكنايات العامة ١/ ٥٣٨، وموسوعة الأدب الضاحك ١/ ٨٤، وروضات الجنات ٦/ ١٩٠، وذيل سمط اللآلىء ٣/ ٨٩، والمحاضرات في اللغة والأدب ٢/ ٤٦٩، وديوان الشريف المرتضى ١/ ٥٢، وآمالي المرتضى ١/ ٩، والمحدث الفاصل ص ٤٥، وصفحات من صبر =

بكتاب «الجمهرة» لابن دُرَيد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها واشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الطاهر بستين ديناراً، وتصفَّحها فوجد بها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن الفالي وهي:

أنِسْتُ بها عشرين حَوْلاً وبعتُها ... لقد طال وَجْدِي بعدها وحنيني
وما كان ظَنِّي أنني سأبيعُها ... ولو خَلَّدَتني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقار وصِبْيَةٍ ... صغارٍ عليهم تستهلُّ شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عَبْرَةٍ ... مقالة مكويّ الفؤاد حزينِ:
«وقد تخرج الحاجاتُ يا أُم مالك ... كرائم من ربٍّ بهن ضَنِينِ»

فلما قرأ الأبيات أرجع له النسخة ووهب له الدنانير.

* * *

عبد الكريم القيسي:

كتب على ظهر كتاب اضطر لبيعه[1]:

قَسَماً لولا معاداةُ الزّمَنْ ... واحتياجي من كتابي للثَّمَنْ

= العلماء ص ٢٦٤ (وانظر الحاشية)، ومجلة الرسالة سنة ١٦ (١٩٤٨م) مجلد ٢، عدد ٧٩٣ ص ١٠٣٦.
وفي بعضها وقع تحريف في اسمه إلى القالي وأن المشتري هو أبو بكر بن بديل التبريزي وفي بعضها دون ذكر اسمه.
والبيت الأخير تضمين وهو لأبي سلمة الكلابي في ذيل الأمالي ص ١٩٠، وسمط اللآلىء ٣/ ٨٩، ومع بيت آخر في مجموعة المعاني دون نسبة ص ٤٠٤، والأعرابي في معجم الأدباء ١٢/ ٢٢٩، وعيون الأخبار ١/ ٢٣٧، وحماسة الظرفاء ١/ ١٨٤، ومجالس ثعلب ص ١٨، ومحاضرات الأدباء ١/ ٤٧١ و ٢/ ٦٣٨، وبهجة المجالس ١/ ٣٣٠، والعقد الفريد ٣/ ٤٦٩، والفاضل للوشاء ص ١٩٩.

(١) ديوان عبد الكريم القيسي ص ٣٣٢.

مـا بـه نفسـي لبيـعِ سَمَحَـتْ   ولَـوَ اعْتَضْـتُ بـه مُلْـكَ اليَمَـنْ

* * *

أنشد أحمد الصافي النجفي[1]:

قـد جاءنـي يومـاً لشِعـريَ مشترٍ   يغـدو علـيَّ لِبَيْعِـهِ ويـروح

فـأجبتُـهُ شِعـري إذا حقّقتَـه   روحي، فقل لي هل تُباع الروح!

* * *

الأديب محمد بن إبراهيم السحولي[2]:

قال: وقد اضطر إلى بيع كتاب «حاشية الخبيصي على الرضي»:

فـارقتـه واحتيـاجـي   إليـه مثـل قميصـي

علـى سـواه فـؤادي   مـا عشـت غيـر حـريـص

لكننـي لـم أجـد عـن   فـراقـه مـن محيـص

فمـر حـالـي لمـا   أن مـر وهـو خبيصـي

وفيه تورية بالخبيص، الأكل المعروف.

* * *

أنشد العبديُّ[3]:

إنّـي أتيـتُ بـأمـرٍ تقشعـرُّ لـه   أعلى الـذؤابة أمـراً مفظعـاً عجبـا

لمّـا عمـدتُ كتـابَ اللّـهِ أرهنُـه   أيقنـتُ أنّ زمـانَ النـاسِ قـد كلبـا

---

(١) أشعة ملونة ص ٢٣.

(٢) الأدب اليمني ص ٨٩.

(٣) أخبار الدولة العباسية ص ٤٠٥.

ومــا عمــدتُ كتــابَ الله أرهنُــه إلاَّ ولم يبقِ هذا الدهرُ لي نشبا

* * *

عيسى بن عبد العزيز بن يللبخت بن عيسى العلامة أو موسى الجُزُولي اليزدكتني المرَّاكشي النحوي[1]:

حج ولزم العلامة عبد الله بن بري وأخذ العربية عن جماعة، وكان علامة لا يشق غباره في النحو مع جودة التفهيم وحسن العبارة، وأتى في مقدمته بالعجائب حتى إن الشخص يعرف المسألة من النحو معرفة جيدة وإذا رآها في الجزولية يدور رأسه فيها، واسم هذه المقدمة «القانون»، وكان ينكر أنها له تورعاً لأنها نتائج بحوثه على ابن بري وبحوث رفقائه، ويللبخت جده رجل بربري، وجزولة بطن من البربر.

وقال الذهبي: وقرأت بخط محمد بن عبد الجليل الموقاني أن الجزولي قاسى بمدة مقامه بمصر كثيراً من الفقر ولم يدخل مدرسة، وكان يخرج إلى الضياع يؤم بقوم فيحصل ما ينفقه في غاية الصبر، ورجع إلى المغرب فقيراً مدقعاً، فلما وصل إلى المرية أو نحوها رهن كتاب ابن السراج الذي قرأه على ابن بري وعليه خطه فأنهى المرتهن أمره إلى الشيخ أبي العباس المغربي أحد الزهاد بالمغرب، وكان يصاحب بني عبد المؤمن، فأنهى أبو العباس ذلك إلى السلطان فأمر بإحضاره وقدمه وأحسن إليه.

* * *

---

(١) تاريخ الإسلام ٤٣/ ٢٦٤، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٤٩٧، والفلاكة والمفلوكين ص ٩٦، وصفحات من صبر العلماء ٢١٥.

محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيرُوزَآبادي، صاحب «القاموس»[1]:

اقتنى كتباً كثيرة حتى قيل عنه أنه قال: اشتريت كتاباً بخمسين ألف مثقال ذهباً.

وكان لا يسافر إلاَّ وصحبته منها أحمال، ويخرجها في كل منزل وينظر فيها ويعيدها. وكانت طلبته، ومع ذلك فكان يملق أحياناً بحيث يحتاج إلى بيع بعض كتبه.

* * *

بعض أهل العلم[2]:

قال: ينبغي للمرء أن يَذْخر أنواع العلوم، وإن لم تكن له بمعلوم، وأن يستكثر منها ولا يعتقد الغنى عنها، فإنه إن استغنى عنها في حال، احتاج إليها في حال؛ وإن سئهما في وقت، ارتاح إليها في وقت؛ وإن شغل عنها في يوم، فرغ لها في يوم؛ وأن لا يسرع ويعجل، فيندم ويوجل؛ فربما عجل المرء على نفسه بإخراج كتاب عن يده، ثم رامه فتعذر عليه مرامه، وابتغى إليه وصولاً، فلم يجد إليه سبيلاً؛ فأتعبه ذلك وأنصبه، وأقلقه طويلاً وأرَّقه، كالذي حكي عن بعض العلماء، قال:

بعت في بعض الأيام كتاباً ظننت أني لا أحتاج إليه، فلما كان ذات يوم هجس في صدري شيء كان في ذلك الكتاب، فطلبته في جميع كتبي فلم

---

(١) ذيل الدرر الكامنة ص ٢٧٩، وأنباء الغمر ٧/ ١٦١، وبغية الوعاة ١/ ٢٧٤، والضوء اللامع ١٠/ ٨١، ودرة الحجال ٢/ ٣١٧، ونزهة الجليس ٢/ ١٩٠، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٧٣.

(٢) تقييد العلم ص ١٣٦، ١٣٧.

أجده، فاعتمدت أن أسأل عنه عالماً عند الصباح؛ فما زلت قائماً على رجلي إلى الصباح، قيل: فهلاَّ قعدت؟ قال: لطول أرقي وشدة قلقي.

وباع آخر كتاباً، ظن أنه لا يحتاج إليه، ثم إنه احتاج إليه فالتمس نسخة به، فلم يجدها بعارية ولا ثمن؛ وكان الذي ابتاعه قد خرج به إلى بلده فشخص إليه، وسأله الإقالة وارتجاع الثمن منه، فأبى عليه. فسأله إعارته لنسخ الكلمة منه، فلم يجبه، فانكفأ قافلاً وآلى على نفسه أن لا يبيع كتاباً أبداً.

وباع آخر كتاباً ظن أنه لا يحتاج إليه ثم إنه احتاج إلى كلمة منه، فقصد صاحبه، وسأله أن يُكتبه تلك الكلمة، فقال: والله ما تكتبها إلاَّ بثمن الكتاب كله، فرد عليه ثمن الكتاب وكتب تلك الكلمة.

وقيل لآخر: ألا تبيع من كتبك التي لا تحتاج إليها؛ فقال: إن لم أحتج إليها اليوم احتجت إليها بعد اليوم.

واحتاج بعض النجارين إلى بيع فأسه ومنشاره فباعهما، وحزن عليهما، وندم على بيعهما، إلى أن رأى جاراً له من أهل العلم في سوق الوراقين، وهو يبيع كتبه، فقال: إذا باع العالم آلته، فالصانع أعذر منه؛ وسلا بذلك.

* * *

جحظة البرمكي[(١)]:

أَلْحَمْـدُ للَّـهِ لَيْـسَ لـي كـاتِـبْ	وَلا على بـابِ مَنْـزِلـي حَـاجِـبْ
وَلا حِمـارٌ إذا عَـزَمْـتُ علـى	رُكُـوبِـهِ، قِيـلَ: جَحْظَـةٌ رَاكِـبْ

(١) ديوان جحظة ص ٣٥، ومعجم الأدباء ٢/ ٢٥١، والمنتخب من كنايات الأدباء ص ١٨.

وَلا قَمِيصٌ يَكُونُ لِي بَدَلاً　　مَخافَةً مِنْ قَمِيصِيَ الذَّاهِبْ
وَأُجْرَةُ الْبَيْتِ فَهْيَ مُقْرِحَةٌ　　أَجْفَانَ عَيْنَيَّ بالوابِلِ السَّاكِبْ
إِنْ زَارَنِي صاحِبٌ عَزَمْتُ على　　بَيْعِ كِتابٍ لِشَبْعَةِ الصَّاحِبْ
أَصْبَحْتُ في مَعْشَرٍ تَشَمُّتُهُمْ　　فَرْضٌ مِنَ اللَّهِ لازِبٌ واجِبْ
فِيهِمْ صَدِيقٌ في عُرْسِهِ عَجَبٌ　　إِذَا تَأَمَّلْتَ أَمْرَهَا، عَاجِبْ
تَحْسِبُها حُرَّةً وَحافِرُها　　أَرَقُّ مِنْ شِعْرِ خالِدِ الكاتِبْ

* * *

وأنشد أيضاً[١]:

حَسْبِي ضَجِرْتُ مِنَ الأَدَبْ　　وَرَأَيْتُهُ سَبَبَ العَطَبْ
وَهَجَرْتُ إِعْرَابَ الكَلاَ　　م وَمَا حَفِظْتُ مِنَ الخُطَبْ
وَرَهَنْتُ دِيوانَ النَّقَا　　ئِضِ وَاسْتَرَحْتُ مِنِ التَّعَبْ

* * *

مجير الدين محمد ابن تميم الإسعردي[٢]:

قال على لسان من باع مجلّداً بدرهم ورُدَّ عليه:

عرضتُ كتابي كي يُباعَ بدرهم　　على مشترٍ عند الوفاءِ شحيح
رأى خطَّهُ ذا عِلَّةٍ فأعادَهُ　　«ومن يشتري ذا عِلَّةٍ بصحيح؟»

* * *

محمد بن عبد الله المعروف بحافي رأسه[٣]:

كتب إلى الأمير نور الدين علي بن مسعود الصوابي:

---

(١) ديوان جحظة ص ٣٧، ومعجم الأدباء ٢/ ٢٥٥.

(٢) ديوان مجير الدين ابن تميم ص ٢٤، والغيث المسجم ١/ ١٥، وقطر الغيث ص ٩، والمخلاة ص ٤٥٨، والمسلك السهل ص ٤٣٤.

(٣) الوافي ٣/ ٣٦٦، وفوات الوفيات ٣/ ٤١٠.

شكوتُ إليكَ نورَ الدين حالي ... وحسبي أن أرى وجه الصوابِ (ي)
وكُتبي بِعتُها ورهنتُ حتى ... بقيتُ من المجوسِ بلا كتابِ

* * *

العبّاس بن العبّاس الهمداني[1] :

كان العباس قد باع بعض كتبه، فكتب إليه الأستاذ أبو محمد القرطبي في ذلك:

نُبِّئْتُ عَبّاساً تَوَزَّعَ كُتْبَهُ ... نَهْباً وَأَصْبَحَ عَنْ سِوَاهَا مُعْزَلاً
فَعَجِبْتُ مِنْ بَطَلٍ يَبِيعُ سِلاَحَهُ ... عَمْداً وَيُصْبِحُ فِي الكَتِيبَةِ أَعْزَلاَ

فأجابه أبو الفضل رحمه الله:

يَا مَوْئِلِي وَلَقَد تَخِذْتُكَ مَوئلاً ... أَقْصِرْ فَإِنَّكَ غَيْرُ مُتَّهِم القِلَى
بِعْتُ الدَّوَاوِينَ الأُصُولَ لِكَي أَرَى ... بِأُصُولِ أَشْجَارٍ شَرَيْتُ مُمَوَّلا

❑ ❑ ❑

(١) الذيل والتكملة ٥/ ١١٢، وأعلام مالقة ص ٢٧٨ .

٦ ـ فصل في
قتلى الكتب والمكفوفين بها

ممّن قتله الكتاب: عمرو بن بحر الجاحظ[(١)]:

وقد تقدَّم أن موت عمرو بن بحر الجاحظ كان بسقوط مجلّدات العلم عليه سنة ٢٥٥هـ رحمه الله تعالى.

ومنهم: العلامة المحدّث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني المشهور بثعلب[(٢)].

كان سبب وفاته أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر وكان قد لحقه صمم لا يسمع إلاَّ بعد تعب، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق، فصدمته فرس فألقته في هُوَّة، فأُخْرِجَ منها وهو كالمختلط، فحمل إلى منزله على تلك الحال، وهو يتأوه من رأسه، فمات ثاني يوم، سنة ٢٩١هـ رحمه الله تعالى.

* * *

(١) شذرات الذهب ٣/ ٢٣٢. وانظر ص ١٨ من هذا الكتاب.

(٢) نور القبس ص ٣٣٧، وإنباه الرواة ١/ ١٨٥، ومعجم الأدباء ٥/ ١٠٦، ووفيات الأعيان ١/ ١٠٤، وإشارة التعيين ص ٥٢، وتاريخ الإسلام ٢٢/ ٨٤، والبداية والنهاية ١١/ ٩٨، ومرآة الجنان ٢/ ٢١٩، والبلغة ص ٦٦، وبغية الوعاة ١/ ٣٩٧، وشذرات الذهب ٣/ ٣٨٤، وروضات الجنّات ١/ ٢١٢، وموسوعة الكنايات ٣/ ١٥٦.

ومنهم: الإمام العلم، صاحب العربية، ومنشىء علم العروض، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، البصري المتوفى سنة ١٧٠هـ رحمه الله تعالى[١]:

كان سبب موته أنه قال: أريد أن أُقَرِّبَ نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البياع فلا يمكنه ظلمُها. ودخل المسجد وهو يُعْمِل فِكْرَه في ذلك، فصدمته سارية وهو غافل عنها بفكره، فانقلب على ظهره، فكانت سبب موته. وقيل: بل كان يقطع بحراً من العروض.

* * *

ومنهم: الإمام العلّامة، بحر العربية، (أبو جعفر النحّاس) أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري المتوفى سنة ٣٣٨هـ رحمه الله تعالى[٢]:

كان سبب وفاته أنه جلس على دَرَج المقياس على شاطىء النيل وهو في أيام زيادته، وهو يُقَطِّع بالعروض شيئاً من الشعر، فقال بعض العوام: هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الأسعار، فدفعه برجله في النيل فلم يوقف له على خبر.

* * *

---

(١) إنباه الرواة ١/ ٣٨١، ومعجم الأدباء ١١/ ٧٣، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٤٨، والوافي ١٣/ ٣٨٦، والغيث المسجم ١/ ٥٦، وسرح العيون ص ٢٦٩، وبغية الوعاة ١/ ٥٦٠، ونزهة الجليس ١/ ١١٨، وقطر الغيث ص ٢٤.

(٢) إنباه الرواة ١/ ١٣٧، ومعجم الأدباء ٤/ ٢٥٥، ووفيات الأعيان ١/ ١٠٠، وإشارة التعيين ص ٤٥، والمقفىٰ ١/ ٧١٥، وتاريخ الإسلام ٢٥/ ١٥٦، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٠٢، والوافي ٧/ ٣٦٤، والغيث المسجم ١/ ٥٦، والبلغة ص ٦٢، والفلاكة والمفلوكين ص ٨٥، وبغية الوعاة ١/ ٣٦٢، ونزهة الجليس ١/ ١١٧، وقطر الغيث ص ٣٠.

ومنهم: أَبُو أُسَامَةَ اللُّغَوِيُّ النَّحْوِيُّ، جُنَادَةُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ الهَرَوِيُّ[1]:

قَتَلَهُ الحَاكِمُ مِنَ المُلُوكِ المِصريَّةِ، المُنْتَسِبَةِ إِلَى العَلَوِيِّينَ، فِـي سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلاَثِمائَةٍ.

فلقد كان يقرأ في مَجْلِسِه بِمِصْرَ فِي جَامِـعِ الْمِقْيَاسِ، وَهُوَ الَّذِي فِيهِ العَمُودُ، الَّذِي يَعْتَبِرُونَ بِهِ زِيَادَةَ النِّيلِ مِنْ نَقْصِهِ.

وَاتَّفَقَ فِـي بَعْضِ السِّنِينَ، أَنَّ النِّيلَ لَمْ يَزِدْ زِيَادَةً تَامَّةً، فَقِيلَ لِلْحَاكِمِ حِينَئِذٍ: إِنَّ جُنَادَةَ رَجُلٌ مَشْؤومٌ، يَقْعُدُ في الْمِقْيَاسِ، ويُلْقِـي النَّحْوَ، وَيُعَزِّمُ عَلَى النِّيلِ، فَلِذَلِكَ لَمَ يَزِدْ.

وَكَانَ مِنْ حِدَّةِ الحَاكِمِ وَتَهَوُّرِهِ، وَمَا عُرِفَ مِنْ سُوءِ سِيرَتِهِ، لاَ يَتَثَبَّتُ فِيمَا يَفْعَلُهُ، وَلاَ يَبْحَثُ عَنْ صِحَّةِ مَا يَبْلُغُهُ، فَأَمَرَ مِنْ سَاعَتِهِ بِقَتْلِهِ، فَقَتَلَهُ ـ رحمه الله ـ.

* * *

ومنهم: محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرَّحمن، الحافظ العلاّمة، أبو عبد الله القَضَاعيّ، البَلَنسيّ، الكاتب، الأديب، المعروف بالأَبّار وبابن الأبّار[2]:

قُتِل مظلوماً بتونُس على يد صاحبها في العشرين من المحرَّم سنة ٦٨٥هـ، وذلك أن بعض أعدائه ذكر عند صاحب تونُس أنه ألّف تاريخاً، وأنّه تكلَّم فيه في جماعة، وقيل هذا فُضُوليّ يتكلَّم في الكِبار، فطُلِبَ وأحسّ بالهلاك، فقال لغلامه: خُذ البَغْلة وٱمضِ بها حيث شئتَ، فهي لك. فلمّا

(١) معجم الأدباء ٧/ ٢١٠، وبغية الوعاة ١/ ٤٨٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٤٨/ ٣٦٤، وانظر الحاشية.

دخل قتلوه. فنعوذ بالله من شرّ التّاريخ، ومن شرّ كل ذي شرّ، رحمه الله تعالى.

* * *

ومنهم: محمد بن زكريا الرازي الطبيب[1]:

كان سبب عماه أنه صنّف للملك منصور بن نوح بن سامان أحد الملوك السامانية، كتاباً في الكيمياء فأعجبه ووصله بألف دينار وقال: أُريد أن تُخرج ما ذكرتَ من القوّة إلى الفعل، فقال: إن ذلك مما يحتاج إلى مُؤَن وآلات وعقاقير صحيحة وإحكام صنعة، فقال له الملك: كلّ ما تريده أُحضره إليك وأمدّك به.

فلما كعّ عن مباشرة ذلك وعملِه فقال الملك: ما اعتقدتُ أن حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها إلى الحكمة يشغل بها قلوب الناس ويُتعبهم فيما لا فايدة فيه، والألف دينار لك صلة، ولا بد من عقوبتك على تخليد الكذب في الكتب. وأمر أن يُضرَب بالكتاب الذي عمله على رأسه إلى أن يقطَّع، فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء في عينيه، ولم يسمح بقدحها، وقال: قد رأيت الدنيا.

* * *

ومنهم: أبو محمد، سعيدُ بن المبارك بن الدهان البغداديُّ النحويُّ[2]:

خرج عن بغداد قاصداً إلى دمشق، فاجتاز بالموصل وبها وزيرها

---

(١) عيون الأنباء ص ٤١٩، ووفيات الأعيان ٥/ ٦٠، والوافي ٣/ ٧٦، ونكت الهميان ص ٢٤٨، وروضات الجنات ٧/ ٢٨٨.

(٢) خريدة القصر (قسم العراق) ٣/ ٢١، وإنباه الرواة ٢/ ٤٨، ومعجم الأدباء ١١/ ٢٢٢، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٨٣، وتاريخ الإسلام ٣٩/ ٣٤٢، وسير أعلام =

جمال الدّين محمد الإصبهانيّ الجَواد، فأكرمه وصدَره بالموصل للإفادة، وكانت كُتبه قد تخلّفت ببغداد، فاستولى الغرق في تلك السّنة على البلد، فسيّر من يحضرها إليه إن كانت سالمة، فوجدها قد غرقت، وكان خلف داره مَدبغَة قد غرقت أيضاً، وفاض الماء منها إلى داره، فتلفت الكتب بهذا السّبب زيادة على إتلاف الغرق، وكان قد أفنى في تحصيلها عمره.

فلمّا حملت إليه على تلك الصّورة أشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلح منها ما أمكن، فبخرها باللاذن ولازم ذلك إلى أن بخّرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لاذناً، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه فأحدث له العمى وكفّ بصره.

* * *

ومنهم: الإمام مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري:

قال الحافظ أبو عَمْرو بن الصلاح في كتابه «صيانةُ صحيح مسلم من الإخلال والغَلَط، وحمايتُهُ من الإسقاطِ والسَّقَط»[1]، وهو يترجم للإمام مسلم بن الحَجَّاج القُشَيري النيسابوري، صاحب «الصحيح»، المولود سنة ٢٠٤هـ، والمتوفى سنة ٢٦١هـ رحمه الله تعالى:

«وكان لموتِهِ سببٌ غريب، نَشَأ من غَمْرةٍ فكريةٍ عِلميّة، فقرأتُ بنيسابور حَرَسها الله وسائرَ ديارِ الإسلام وأهلَه، فيما انتخبتُه من «تاريخها» ــ للحاكم النيسابوري ــ، على الشيخ الزكيّ أبي الفتح منصور بن

= النبلاء ١٠/ ٥٨٢، والمختصر المحتاج إليه ص ١٩١، والوافي ١٥/ ٢٥٣، ونكت الهميان ص ١٥٩، والفلاكة والمفلوكين ص ١٣١، وروضات الجنان ٤/ ٥٥، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٦٨.

(١) صفحات من صبر العلماء ص ١٢٣، وتاريخ بغداد ٣/ ١٠٣.

عبد المنعم حفيد الفُرَاوي، وعلى الشَّيْخَةِ أمِّ المؤيَّد زينب ابنةِ أبـي القاسم عبد الرحمن بن الحسن الجُرْجاني رحمهما الله وإيانا، عن. . .

قال الحاكمُ أبو عبد الله الحافظ: سمعتُ أبا عبد الله محمد بن يعقوب، سمعتُ أحمد بن سَلَمة ـ رفيقَ مسلمٍ في الرحلةِ ـ يقول: عُقِدَ لأبـي الحُسَين مسلم بن الحجاج مجلسٌ للمذاكرة، فذُكِرَ له حديثٌ لم يَعرفه، فانصرف إلى منزِلِهِ وأَوقَدَ السِّرَاج، وقال لمن في الدار: لا يَدْخُلَنَّ أحدٌ منكم هذا البيت.

فقيل له: أُهدِيَتْ لنا سَلَّةٌ فيها تَمْر، فقال: قَدِّموها إليَّ، فقدَّموها إليه، فكان يَطلُبُ الحديثَ ويأخذُ تمرةً تمرةً يَمْضَغُها، فأَصبَحَ وقد فَنِـيَ التمرُ! ووجَدَ الحديث.

قال الحاكم: زادني الثقةُ من أصحابنا أنه منها مَرِضَ ومات!



٧ ـ فصل في
تعظيمهم وإجلالهم للكتب

بـدر الدِّين محمد بن جماعة في الآداب مـع الكتب التي هي آلـة العلم[١]:

قال: إذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسي الكتب المعروف كيلا يسرع تقطيع حبكه.

وإذا وضعها في مكان مصفوفة فلتكن على كرسي أو تخْت خشب أو نحوهِ، والأولى أن يكون بينه وبين الأرض خلو، ولا يضعها على الأرض كيلا تتندَّى أو تبلى.

وإذا وَضعها على خشب ونحوه جعل فوقها أو تحتها ما يمنع تآكل جلودها به، وكذلك يجعل بينها وبين ما يُصادفها أو يُسندها من حائط أو غيره.

وإذا وضع الكتاب على أرض أو تخت فلتكن الغاشية التي من جهة البسملة وأول الكتاب إلى فوق، ولا يكثر وضع الردة في أثنائه كيلا يسرع تكسيرها، ولا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات الصغير كيلا يكثر تساقطها.

ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس أو غيرها، ولا مخدّة ولا مروحة ولا مكبساً ولا مسنداً ولا متكأً، ولا مقتلة للبق وغيره ولا سيما في الورق، فهو على الورق أشد.

---

(١) تذكرة السامع ص ١٧٠، وعرف البشام ص ١٧.

ولا يطوي حاشية الورقة أو زاويتها، ولا يعلِّم بعود أو شيء جاف، بل بورقة أو نحوها، وإذا ظفر فلا يكبس ظفره قوياً.

ويراعي الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها وشرف مصنفيها وجلالتهم، فيضع الأشرف أعلى الكل، ثم يراعي التدريج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل، والأولى أن يكون في خريطة ذات عروة في مسمار، أو وتد في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثم كتب الحديث الصّرف كصحيح مسلم، ثم تفسير القرآن ثم تفسير الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب، ثم العروض.

فإن استوى كتابان في فن فالأعلى أكثرهما قرآناً أو حديثاً، فإن استويا فبجلالة المصنّف، فإن استويا فأقدمهما كتابة وأكثرهما وقوعاً في أيدي العلماء والصالحين، فإن استويا فأصحهما.

* * *

الإمام برهان الدين الزّرنوجي[1]:

قال: من تعظيمِ العلمِ تعظيمُ الكتابِ، فينبغي لطالبِ العلْمِ ألاَّ يأخذَ الكتابَ إلاَّ بطَهارةٍ.

وحكيَ عن الشَّيخ الإمامِ شمسِ الأئمة عبد العزيز بن أحمد بن نصر الحلْواني، أنه قال: إنما نلتُ هذا العلمَ بالتَّعظيم، فإني ما أخذتُ الكاغِدَ إلاَّ بطهارةٍ.

والشيخُ الإمام شمسُ الأئمة السَّرْخسي محمد بن محمد كان مبطوناً، وكان يكرِّرُ في ليلة، فتوضَّأ في تلك الليلةِ سبعَ عشرة مرةً، لأنه كان لا يكرِّر إلاَّ بطَهارةٍ، وهذا لأنَّ العلمَ نورٌ، والوضوء نورٌ، فيزدادُ نورُ العلمِ به.

---

(١) تعليم المتعلّم ص ٥١.

ومن التعظيم الواجب ألاَّ يَمُدَّ الرِّجل إلى الكتاب، ويضعَ كتبَ التفسيرِ فوق سائرِ الكتبِ، ولا يضعَ على الكتابِ شيئاً آخرَ من محبرةٍ وغيرِها.

وكان أستاذُنا شيخُ الإسلامِ بُرهان الدِّينَ رحمه الله، يحكي عن شيخٍ من مشايخنا، أنَّ فقيهاً كان وَضع المِحبَرَة على الكتابِ، فقال له بالفارسيّة: برنيابـي (لا تجد النفع من علمك).

وكان أستاذُنا القاضي الإمامُ الأجلُّ فخرُ الدين الحسن بن منصور الفرغاني المعروفُ بقاضي خان يقولُ: إنْ لم يُرد بذلكَ الاستخْفاف فلا بأسَ بذلك، فالأوْلى أنْ يُحترزَ عنهُ.

* * *

علي بن محمد التالوتي[1]:

سئل عن وضع الكتاب على الأرض، فقال: اختلف في جوازه ومنعه متأخِّرو أهل تونس وبجاية.

* * *

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري[2]:

كان جميلَ الكُتُب متهمِّماً بها، كان يمسكها في سبابـي[3] الشَرْب وغيرها إكراماً لها وصيانة.

* * *

عبد الكريم زاده الحنفي[4]:

كان من عادة المولى محمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم، الشهير

---

(١) كفاية المحتاج ١/ ٣٦٤.

(٢) المكتبة الأندلسية ١٢/ ٤٣٧، ومقدمة سمط اللآلىء ١/ ١.

(٣) السبائب: شقق رقاق من الكتان.

(٤) شذرات الذهب ١٠/ ٥٥٥.

بعبد الكريم زاده الحنفي، أن لا يكتب بالقلم الذي يكتب به اسم الله تعالى، ولا ينام ولا يضطجع في بيتِ كُتُبِه؛ تعظيماً للعلم.

* * *

أحمد بن الحُصَيْن بن عبد الملك بن عطاف[1]:

كان أعلى أهل عصره همّة في اقتناء الكتب وأشدّهم اعتناءً بها. ينتخبها ويتخذ لأعلاقها صوانات وحفائظ، وجمع منها في كل فنّ الكثير النفيس.

* * *

الإمام أبو محمد عبد الرحيم بن محمد ابن الزجاج[2]:

قال محمد بن عمر بن رشيد: جرى لي مع الشيخ الإمام أبي محمّد عبد الرحيم بن محمد ابن الزجّاج في حالة سماع جزء عليه في ليلة: أني رمقت الشيخ وهو قد ضعف عن القعود، فإنّه كان غايةً في ضعف البدن، قد نهكه السنّ والمرض والسفر. وكان لي وعاء أحمل فيه كتبي، فدعمت ركبته به، فنظر إليّ نظر المغضَب، وأشار إليّ أنّ استعمال مثل هذا امتهان، وأبى من ذلك رضي الله عنه.

* * *

بعض الحكماء[3]:

رأى بعض الحكماء رجلاً يبتذل كتاباً، فقال له: بيّنتَ عن نقصك، وبرهنت عن جهلك؛ فما أهان أحد كتاب علم إلاّ لجهله بما فيه، وسوء معرفته بما يحويه.

ورأى آخر رجلاً قد جلس على كتاب، فقال: سبحان الله يصون ثيابه

---

(١) الذيل والتكملة ١/ ٩٧، وتاريخ الإسلام ٣٧/ ٩٧.

(٢) ملء العيبة ٥/ ٢٥٧.

(٣) أدب الإملاء ص ١٤٦.

ولا يصون كتابه؛ لصون الكتاب أولى من صون الثياب.

* * *

أنشد عبد الله بن عمر بن أحمد الوحيديُّ[1]:

صُـن الكِتـابَ ولا تجعلـه مِنْديـلاً ولا يكُـنْ صـونـه للـدرْس تعطيـلا
وسَـلْ فقيهَـك فيمـا أنـت جـاهِلُـهُ فَـرُبَّمـا كنـتَ بعـد اليـوم مسْـؤولا

* * *

أحمد بن حنبل[2]:

قال نعيم بن ناعم أبو حاتم: وسألتُ أحمدَ بن حنبل: أَيَضَعُ الرجلُ الكتبَ تحتَ رأسه؟ قال: أيّ كتب؟ قلتُ: كتبَ الحديثِ، قال: إذا خافَ أن تُسْرَقَ فلا بأسَ، وأما أن يَتَّخذه وِسادةً فلا.

* * *

القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي[3]:

قال: كل كراسة لا يحزم أنفها، ولا يكون الجلد دفّها عرضة للضياع، وما مكانها من الخزانة إلاّ مسترق الوداع.

❑ ❑ ❑

---

(١) صلة الصلة ٣/ ١٠٢، وتاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٤.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٣٩١، والمقصد الأرشد ٣/ ٦٩، والمنهج الأحمد ٢/ ١٦٧.

(٣) مطالع البدور ٢/ ١٧٨.

٨ ـ فصل في
عزلتهم وأنسهم بمجالسةِ الكُتُبِ وَمَنادَمتها عوضاً عن الأصحاب

قال بعضهم[١] :

ولفساد الزمان، وقلة من يسكن إلى مودته، ويؤمن من خلته آثر أهل الفضل مجالسة الكتب، وجعلوها عوضاً مما فاتهم من مجالسة الأصحاب، ووصفوها ووصفوا نفوسهم بالإقبال عليها.

ومن ذلك قول الشاعر أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجانيّ[٢] :

مَـا تَطَعَّمْـتُ لَـذَّةَ الْعَيْـشِ حَتَّـى ... صِـرْتُ لِلْبَيْـتِ وَالْكِتَـابِ جَلِيسَـا

لَيْسَ شَيْءٌ أَعَزَّ عِنْدِي مِنَ الْعِلْـ ... ـمِ فلم أَبْتَغِـي سِـوَاهُ أَنِيسَـا

إِنَّمـا الـذُّلُّ فِـي مُخَـالَطَـةِ النّـ ... ـاسِ فَدَعْهُم وَعِشْ عَزِيزاً رَئِيسَا

* * *

---

(١) عين الأدب والسياسة ص ٢٤٨.

(٢) اللطائف والظرائف ص ١٢٥، وتحسين القبيح ص ٥٠، والمنتظم ١٥/ ٣٦، وصفة الصفوة ٢/ ٢٦٧، ومعجم الأدباء ١٤/ ١٩، ووفيات الأعيان ٣/ ٢٨٠، وشرح المضنون ص ٤، وغرر الخصائص ص ٤٦٦، ومرآة الجنان ٢/ ٣٨٧، والبداية والنهاية ١١/ ٣٣٢، والمخلاة ص ٥٩، والكشكول ص ٦٩١، وشذرات الذهب ٤/ ٣٥٥، ورحلة ابن معصوم ص ٢٨٨، ونفحة اليمن ص ٢٤٩، وروضات الجنات ٥/ ٨٧، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٥٦، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٨، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥٠٩، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٢٨.

ومن كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي[1]:

قال الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي رحمه الله تعالى، في العزلة ومجالسة الكتب:

مَن عَرَفَ الشرعَ كما ينبغي، وعَلِمَ حالةَ الرسولِ ﷺ وأحوالَ الصحابةِ وأكابرِ العلماءِ؛ عَلِمَ أنَّ أكثر الناس على غير الجادَّةِ، وإنما يَمْشونَ مع العادةِ. . .

يتزاوَرونَ فيغتابُ بعضُهم بعضاً، ويطلُبُ كلُّ واحدٍ منهم عورةَ أخيهِ، ويحسُدُه إن كانتْ نِعْمَةٌ، ويَشْمَتُ به إن كانت مُصيبةٌ، ويتكبَّرُ عليه إنْ نَصَحَ له، ويخادِعُه لتحصيل شيءٍ من الدُّنيا، ويأخُذُ عليه العَثَراتِ إن أمكنَ. . . هذا كلُّه يجري بين المنتمينَ إلى الزُّهْدِ لا الرَّعاع.

فالأولى بمَن عَرَفَ الله سبحانه وعَرَف الشرعَ وسِيَرَ السلفِ الصالحينَ الانقطاعُ عن الكُلِّ.

فإنِ اضْطُرَّ إلى لقاءِ منتسبٍ إلى العلم والخير؛ تلقَّاه وقد لَبِسَ دِرْعَ الحَذَر، ولم يُطِلْ معهُ الكلامَ، ثم عَجَّلَ الهربَ منه إلى مخالطةِ الكتبِ التي تحوي تفسيراً لنطاقِ الكمال.

وقال: ولا تَحْسُنُ اليومَ المجالسةُ إلاَّ لكتابٍ يحدِّثُكَ عن أسرارِ السَّلَفِ؛ فأمّا مجالسةُ العلماءِ؛ فمخاطرةٌ؛ إذ لا يجتمعونَ على ذِكْرِ الآخرةِ في الأغلبِ، ومجالسةُ العوامِّ فِتنةٌ للدِّين؛ إلاَّ أن يَحْتَرِزَ في مجالِسِهم، ويمنَعَهم من القول، فيقولُ هو، ويكلِّفُهُمُ السماعَ، ثم يَسْتَوْفِزُ للبعدِ عنهم.

ولا يمكنُ الانقطاعُ الكلِّيُّ إلاَّ بقطع الطَّمَع، ولا ينقطِعُ الطمعُ إلاَّ

---

(١) ص ٤٧٦ و ٥٦٠ و ٥٨٣ و ٣٩٤.

بالقناعة باليسيرِ، أو يتَّجِرُ بتجارةٍ، أو أن يكون له عَقارٌ يَسْتَغِلُّه؛ فإنه متى احتاجَ تشتَّتَ الهمُّ، ومتى انقطعَ العالِم عن الخَلْقِ وقَطَعَ طَمَعَهُ فيهم وتَوَفَّرَ على ذِكْرَ الآخرةِ؛ فذاكَ الذي يَنْفَعُ ويُنْتَفَعُ به.

والله الموفقُ.

وقال: كانَ المريدُ في بدايةِ الزَّمانِ، إذا أَظْلَمَ قلبُهُ أو مَرِضَ لُبُّهُ، قَصَدَ زيارةَ بعضِ الصالحينَ، فانْجلى ما أظلمَ.

واليومَ؛ متى حَصَلَتْ ذَرَّةٌ من الصِّدقِ لمريدٍ، فردَّتْه في بيتِ عُزْلَةٍ، ووجد نَسيماً مِن رَوْح العافيةِ، ونوراً في باطن قلبِهِ، وكاد همُّه يجتمعُ وشتاتُه يَنْتَظِمُ، فخرجَ، فلقي مَن يُومَأُ إليه بعلم أو زُهدٍ؛ رأى عندَهُ البطالينَ، يجري معهُم في مَسْلَكِ الهَذَيانِ الذي لا ينفعُ، ورأى صورتَه صورةَ مُنَمِّس، وأهونَ ما عليه تضييعَ الأوقاتِ في الحديثِ الفارغ؛ فما يرجِـعُ المريدُ عن ذلك الوطن؛ إلاَّ وقدِ اكْتَسَبَ ظُلْمَةً في القلبِ، وشَتاتاً في العزم، وغَفْلَةً عن ذِكرِ الآخرةِ، فيعودُ مريضَ القلبِ، يَتْعَبُ في معالجتِهِ أياماً كثيرةً، حتّى يعودَ إلى ما كانَ فيه، وربَّما لم يَعُدْ؛ لأنَّ المريدَ فيه ضَعْفٌ؛ فإذا رأى شيخاً قد جَرَّبَ وعَرَفَ، ثم يُؤثرُ البطالةَ؛ لم يأمنْ أن يَتْبَعَه الطبعُ.

فالأوْلَى للمريدِ اليومَ أنْ لا يزورَ إلاَّ المقابِرَ، ولا يفاوِضَ إلاَّ الكُتُبَ، التي قد حَوَتْ محاسِنَ القوم، ولْيَسْتَعِنْ باللَّهِ تعالى على التوفيقِ لمراضيهِ؛ فإنَّه إن أرادَه؛ هيأَهُ لما يُرضيهِ.

وقال: فإنْ أردتَ اللّذَّة والراحةَ؛ فعليكَ أيُّها العالم بعقر بيتك، وكنْ معتزلاً عن أهلكَ؛ يَطِبْ لك عيشُك، واجعلْ للقاءِ الأهل وقتاً؛ فإذا عَرَفوهُ؛ تَصَنَّعوا للقائِكَ، فكانتِ المعاشرةُ بذلك أجودَ.

وليكنْ لك مكانٌ في بيتِكَ تَخْلو فيه، وتحادِثُ سطورَ كُتُبِكَ، وتجري

في حَلباتِ فِكْرِكَ! واحترسْ من لقاءِ الخَلْقِ، وخُصوصاً العوامَّ! واجْتَهِدْ في كَسْبٍ يُعِفُّكَ عن الطمع! فهذه نهايةُ لَذَّةِ العالِـمِ في الدُّنيا.

وقد قيلَ لابنِ المباركِ: ما لكَ لا تجالِسُنا؟ فقالَ: أنا أذهبُ فأجالِسُ الصحابةَ والتابعينَ. وأشارَ بذلك إلى أنه يَنْظُرُ في كُتُبِهِ.

ومتى رُزِقَ العالمُ الغنى عن الناس والخَلْوةَ؛ فإنْ كان له فَهْمٌ يَجْلِبُ التصانيفَ؛ فقدْ تكاملتْ لذَّتهُ، وإنْ رُزِقَ فَهْماً يرتقي إلى معاملة الحقِّ ومناجاتِه؛ فقد تَعَجَّلَ دُخولَ الجنةِ قبل المماتِ.

نسألُ اللَّهَ عزّ وجلّ همَّة عاليةً تَسْمو إلى الكمال، وتوفيقاً لصالحِ الأعمال؛ فالسالكونَ طريقَ الحقِّ أفرادٌ.

* * *

وأنشد محمد بن أحمد ابن الحدّاد الأندلسي[1]:

ذهبَ الناسُ فانفرادي أنيسي ... وكتابي محدِّثي وجليسي
صاحبٌ قد أمنتُ منه مَلالاً ... واختلالاً وكلَّ خُلْقٍ بئيسِ
ليس في نوعه بِحَيٍّ ولكِنْ ... يلتقي الحيُّ منهُ بالمرمُوسِ

* * *

عبد الله بن المبارك[2]:

كان عبد الله بن المبارك يُكثر الجلوسَ في بيته، فقيل له: أَلا

(١) ديوان ابن الحدّاد ص ٢٢٨، ونفح الطيب ٤/ ١١٥، والتكملة ١/ ٣٢٣.
(٢) الجليس الصالح ١/ ١٦٣، وحلية الأولياء ٨/ ١٦٤، والزهد الكبير ص ٩٧، وتاريخ بغداد ١٠/ ١٥٤، ومحاضرات الأدباء ١/ ٣٣، الجامع لأخلاق الرّاوي ٢/ ٣٧١، وتقييد العلم ص ١٢٦، والآمالي الخميسية ١/ ٢١، وترتيب المدارك ١/ ٣٠٣، وتاريخ دمشق ٣٢/ ٤٥٨، وصفة الصفوة ٤/ ١٣٧، وسلوة الأحزان =

تسْتَوحِشُ؟ فقال: كيف أَستوحِشُ وأنا مع النبـي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

وفي رواية قال: قيل لابن المُبَارك: يا أبا عَبْد الرَّحْمٰـن، تكثر القعود في البيت وحدك، قال: أنا وحدي؟ أنا مع النبـي ﷺ وأصحابه. ـ يعني النظر في الحديث ـ .

وفي رواية أخرى: وأنا مع الأنبياء والأولياء والحكماء والنبـي ﷺ وأصحابه.

وقالِ شقيق بن إبراهيم البلخي[1]: قلنا لعبد الله بن المبارك: إذا صلَّيتَ معنا، لم لا تَجْلس معنا؟ قال: أَذهب أَجلس مع الصحابة والتَّابعين.

قلنا له: ومن أَين الصحابة والتابعون؟ قال: أَذهب أَنظرُ في علمي فأدرِكُ آثارهم وأَعمالهم، ما أَصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس، فإذا كانت سنة مائتين فالبُعد من كثير من الناس أَقربُ إلى الله، وفِرّ من الناس كَفِرَارِك من أَسد، وتمسّك بدينك يسلَمْ لك لحمك ودمك.

* * *

بعض مشايخ محيي الدين بن عربـي[2]:

قال محيـي الدِّين بن عربـي: دخلت على بعض من مشايخي وقد

= ص ٨٢، وشرح المضنون ص ٥، وصيد الخاطر ص ٣٩٤، والروضتين ص ٦٦٥، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٢٣٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٣٨٢ وص ٣٩٨، ونظم العقيان ص ٤، والزهد والرقائق ص ٤٤، وديوان ابن مبارك ص ١٦ وص ٧٧.

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٣٧، وتقييد العلم ص ١٢٦، وحلية الأولياء ٨/ ١٦٤، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٢٣٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٣٩٨، والزهد والرقائق ص ٤٤.

(٢) محاضرة الأبرار ١/ ٨.

جلس في حضيرة من كتبه وقال: إذا أردتُ محادثة الحق أُحدِّث المصحف، فلا أزال أُناجيه ويناجيني، وإذا أردت محادثة الرسول ﷺ، أخذت كتاب حديث، وكذلك كل من أردت مناجاته من الأولين والآخرين، ثم إني أجالس من لا يَنِمُّ بمجلسي ولا ينقل حديثي.

* * *

محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري[1]:

قال يحيى بن محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري: دخلت على أبي في الصيف الصائف وَقْتَ القائلة وهو في بيت كتبه وبين يديه السِّراجُ وهو يُصَنِّف، فقلتُ له: يا أبةِ هذا وقتُ القائلة ودخانُ هذا السراج بالنهار يؤذيك، فلو نَفَّسْتَ عن نفسِك. فقال: يا بُني تقول لي هذا وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين؟!

* * *

محمد بن زياد أبو عبد الله ابن الأعرابي[2]:

عَنْ أَبِي عِمْرَانَ قالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي أَيُّوبَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمدِ بْنِ شُجَاعٍ،

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٤١٩، ومعجم الألقاب ٣/ ٢٦٩، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٨٠، وصفحات من صبر العلماء ص ١٢٤، وتاريخ دمشق ٧٣/ ٢٧٢.

(٢) طبقات النحويين ص ١٩٦، وبهجة المجالس ١/ ٥١، وجامع بيان العلم ص ٥٧٩، وإنباه الرواة ٣/ ١٢٩، ومعجم الأدباء ١٨/ ١٩٥، وشرح المضنون ص ٤، والفخري ص ٦، والجواهر المضيّة ١/ ٢٧٨، وبغية الوعاة ١/ ١٠٦، وروضات الجنّات ٧/ ٢٥٩، وطرائف الأدباء ص ١٠٨.
وورد الشعر فقط ودون نسبة في الجليس الصالح ١/ ١٦٣، والبصائر والذخائر ٣/ ١٦٤ و ١٩٠، ومحاضرة الأبرار ١/ ٨، وسراج الملوك ص ٥٨١، وربيع الأبرار ٣/ ٢٣١، والآداب الشرعية ٣/ ٥٧٠، والكنز المدفون ١٢٩، والمخلاة =

فَبَعَثَ غُلاَمَهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الأَعْرَابِيِّ محمد بن زياد يَسْأَلُهُ الْمَجِيءَ إِلَيْهِ، فَعَادَ إِلَيْهِ الغُلاَمُ فَقَالَ: قَدْ سَأَلْتُهُ ذَلِكَ فَقَالَ لِي: عِنْدِي قَوْمٌ مِنَ الأَعْرَابِ، فَإِذَا قَضَيْتُ أَرَبِي مَعَهُمْ أَتَيْتُ. قَالَ الغُلاَمُ: وَمَا رَأَيْتُ عِنْدَهُ أَحَداً، إِلاَّ أَنِّي رَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُتُباً يَنْظُرُ فِيهَا، فَيَنْظُرُ في هَذَا مَرَّةً وَفِي هَذَا مَرَّةً.

ثُمَّ مَا شَعَرْنَا حَتَّى جَاءَ، فَقَالَ لَهُ أَيُّوبُ: يا أبا عبد الله، سبحان الله العظيم! تخلَّفت عنا، وحرمتَنا الأنس بك، ولقد قال لي الغلام: إنه ما رأى عندك أحداً، وقد قلت له: أنا مع قوم من الأعراب، فإذا قضَيْتُ أربي معهم أتيت!!

فقال:

لَنَا جُلَسَاءُ مَا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ ... أَلِبَّاءُ مَأْمُونُونَ غَيْباً وَمَشْهَداً
يَفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ مَا مَضَى ... وَعَقْلاً وَتَأْدِيباً وَرَأْياً مُسَدَّدا
بِلاَ فِتْنَةٍ تُخْشَى وَلاَ سُوءِ عِشْرَةٍ ... وَلاَ نَتَّقِي مِنْهُم لِسَاناً وَلاَ يَدَا
فَإِنْ قُلْتَ أَمْوَاتٌ فَمَا أَنْتَ كَاذِبٌ ... وَإِنْ قُلْتَ أَحْيَاءٌ فَلَسْتَ مُفَنَّداً
يُفَكِّرُ قَلْبِي دائِباً في حديثهم ... كَأَنَّ فُؤَادِي ضَافَهُ سَمٌّ أَسْوَدَا

* * *

أبو الفرج المعافى بن زكريا[1]:

قال: وقد كان بعض من كان له في الدنيا صيت ومكانة عاتبني على ملازمتي المنزل، وإغبابي زيارته، وإقلالي ما عودته من الإلمام به وغشيان

= ص ٢١، ودرّة الحجال ١/ ٢٥٢، وديوان ابن المبارك ص ٧٧، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥٠٩، وقاموس الحكم والأمثال ص ٥٠٩، ونسبت لكلثوم العتابي في الفهرست ص ٣٧، وطراز المجالس ص ٢٦٦، وانفرد بزيادة البيت الأخير تقييد العلم ص ١٤٣.

(١) الجليس الصالح الكافي ١/ ١٦٤.

حضرته، وقال لي: أما تستوحش الوحدة؟ ونحو هذا من المقالة، فقلت له: أنا في منزلي إذا خلوت من جليس يقصد مجالستي، ويؤثر مساجلتي، في أحسن أنس وأجمله، وأعلاه وأنبله، لأنني أنظر في آثار الملائكة والأنبياء والأئمة والعلماء، وخواص الأعلام الحكماء، وإلى غيرهم من الخلفاء والوزراء، والملوك والعظماء، والفلاسفة والأدباء، والكتّاب والبلغاء، والرجَّاز والشعراء، وكأنني مجالس لهم، ومستأنسٌ بهم، وغيرُ ناء عن محاضرَتهم لوقوفي على أنبائهم، ونظري فيما انتهى إليّ من حِكمَهم وآرائهم.

* * *

بعض محبي الكتب[1]:

سئل أحد المنزوين بين الكتب للدراسة والتأليف بين أقوام لا يعملون مثله، ولا يودون من يعمل مثله وأي عمل صالح، سئل: لماذا لا تلتقي بالناس كما يلتقي غيرك؟

فأجاب: أأخرج إلى محبٍّ متخاذل، أو مبغض مخاتل، أو منافق مجامل، أو حسود مزامل، أو جاهل متطاول، أو عاقل مماطل، أو لذي برّ غير عاجل، أم لجمع حطام زائل بين متكالب عليه وصائل...؟

يا ترى أأنفق الوقت ــ والوقت من ذهب ــ، أأنفقه في أجواء تأخذ بالأنفاس؟ أم في أجواء بين جلّاس، أفيد وأستفيد من بينها ما هو خير لي وللناس.

أما إذا ابتغيت لي باللقاء، وغرة المال، فالمال إلى زوال والعلم باق مدى الأجيال.

* * *

---

(١) الكشكول مهدي ص ١٠٢.

أبو العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب[1]:

قيل له: توحشت من الناس جدًّا، فلو تركت لزوم البيت بعض الترك وبرزت للناس كانوا ينتفعون بك وينفعك الله بهم.

فمكث ساعة ثم أنشأ يقول: وفي روايةٍ: دخل رجل على أبي العبَّاس ثعلب وهو ينظر في الكتاب فقال: إلى متى هذا؟ فأنشد:

إنْ صَحِبْنَا المُلُوكَ تَاهُوا وَعَقُّوا ... واسْتَخَفُّوا كِبْراً بِحَقِّ الجَلِيسِ
أَوْ صَحِبْنَا التِّجَارَ صِرْنَا إِلَى البُؤْ ... س وعُدنَا إِلَى عِدَادِ الفُلُوسِ
فَلَزِمْنَا البُيُوتَ نَسْتَخْرِجُ العِلْـ ... ـمَ وَنَملاَ بِهِ بُطُونَ الطُّرُوسِ
وقنعنا بما رزقنا فصرنا ... أمراء على الملوك والرؤوس
لو تركنا ذاك كنا ظفرنا ... من أمانينا بعلق نفيسِ
غير أن الزمان أَغْنَى بنيه ... حسدونا على حياة النفوسِ

* * *

أبو حيّان محمد بن يوسف بن حيّان[2]:

أَرَحْتُ نَفْسِي من الإيناس بالنَّاسِ ... لما عنيتُ عن الأكياس بالياسِ
وصِرْتُ في البيت وحدي لا أرى أحداً ... بنات فِكْري وكُتبِي هُنَّ جُلَّاسِي

* * *

(١) الأبيات الثلاثة الأولى لثعلب في جامع بيان العلم ص ٥٨٠، وبهجة المجالس ١/ ٥١، ودون نسبة في تقييد العلم ص ١٤٥، وبزياد البيت الرابع ودون نسبة في سراج الملوك ص ٥٨٠، وكلّها ما عدا الرابع في المخلاة ص ٢٥٤.

(٢) الإحاطة ٣/ ٥٧، والكتيبة الكامنة ص ٨٤، ووجيز الكلام ١/ ٩، والمقاصد الحسنة ص ٢٤٣، ونفح الطيب ٢/ ٥٦٤، وكشف الخفاء ١/ ٥٥٢.

أبو عيسى ابن لَبُّون[1] :

وهو من قواد المأمون بن ذي النون.

قال في زهده وإقلاعه والتزامه بيته عند انخلاعه:

نَفَضْتُ كَفّي عَنِ الدُّنيا وقُلْتُ لَها ... إليكِ عنّي فما في الْحقِّ أَغْتَبِنُ

مِنْ كِسْرِ بَيْتِيَ لي رَوْضٌ ومن كُتبي ... جَليسُ صِدْقٍ على الأسرارِ مُؤْتَمَنُ

أَدْري بِهِ ما جَرَىٰ في الدَّهْرِ من خَبَرٍ ... فَعِنْدَهُ الحقُّ مَسْطورٌ ومُخْتَزَنُ

وما مُصَابي سِوَى مَوْتي ويَدْفِنُني ... قَوْمٌ وَمَا لَهُمْ علمٌ بِمَنْ دَفَنُوا

* * *

مجير الدِّين أحمد بن الحسن الخيّاط[2] :

ومصاحب الأيام لم يترك له ... كر اللّيالي والخطوب صحابا

والمرء يحقر معدماً فإذا بدا ... إثراؤه للناس كان مهابا

والدهر ما برحت هموم صروفه ... تعشى العيون وتشغل الألبابا

وإذا نبت بالأكرمين مواطن ... سكنوا السروج وحرّكوا الأقتابا

وإذا قست كبد الزمان فلن ... يمكره نهاب كل غنيمة وهّابا

وممارس الدنيا الدنيّة لم يهب ... منها طعان حوادث وضرابا

حامي الحقيقة ليس يُخفر ذمّة ... ومتى دعاه الصارخون أجابا

إن قال أودع في المسامع حكمة ... أو صال ودعت الرؤوس رقابا

---

(١) قلائد العقيان ١/ ٢٩٦، والذخيرة ٥/ ١٠٨، وخريدة القصر (المغرب) ٣/ ٣٧٩، والحلّة السيراء ٢/ ١٧١، والمغرب في حلي المغرب ٢/ ٣٧٦، ونفح الطيب ٣/ ٥٩٧.

(٢) تذكرة النبيه ٢/ ٢٥٢ من قصيدة. وقال المحقق: وردت بعض هذه الأبيات في درة الأسلاك.

فاهجر بني الدنيا وسالمهم تفز ... وبمحض نصحي لا تكون مرتابا
وإذا أردت مجالساً ومؤانساً ... فاجعل جليسك والأنيس كتابا

* * *

عمر بن المظفر ابن الوردي[1]:

مُجالِسٌ مؤتَمَنٌ ... يحملُ عني الكَلَفا
يأتي إذا جالسني ... بالكبرا والخلَفَا
أراهُ لي في خلوتي ... عنْ كلِّ خلٍّ خَلَفا

* * *

أحمد الصافي النجفي[2]:

أهوى الهدوء، وبلدتي ... فيها الضجيج مخيمُ
فأفر للصحرا فتزعجني ... الوحوش تهمهم
فأؤمُّ بستاناً فأسمع ... طيره يترنم
فأزور مقبرة لأن ... بها الأهالي نُوّم
لكن من الأرواح ... يزعجني صراخ مؤلم
فأجالس الكتب التي ... لي بالإشارة تُفهم

* * *

سعيد بن المسيب[3]:

قال: إنَّ في العزلة لسلامةً؛ فانبُلِ أن تُرى في مجالس السُّفهاء، فإذا اغتَمَمْتَ وحدَك؛ فادرس كتاباً من فعل الفقهاء.

* * *

---

(١) ديوان ابن الوردي ص ٣٩٠.
(٢) الأغوار ص ١٠٧، قصيدة بعنوان «الضّجيج».
(٣) العزلة والانفراد ص ٧٢، وانظر تخريجه في الحاشية.

شاعر[1]:

عائش في وحدتي والله قربي ... ونـدامـاي قـوافـي وكتبـي

يـا لهمـا مـن رفقـة صـادقـة ... لم تخن عهدي ولا فاهت بكذب

أنـا أهـواهـا وأهـوى قـربهـا ... مـن قـديـم ولهـا يخفـق قلبـي

كشمـوع ومنـارات لمـن ... سهروا الليل وناجوا بعض شهب

لا أنيس مثل كتبي في الحمى ... لا جليـس مثلهـا يعـرف حبـي

لا رفيـق ههنـا يـرفـق بـي ... فـرفـاقـي كتبـي مـن بعـد أبـي

* * *

عبد الكريم القيسي[2]:

ولمّا رأيتُ البَغْيَ في الناس ظاهراً ... ولـم أرَ منهـمْ جـانِحـاً لِمَثـابِـي

وكنتُ خَصَصْتُ البعضَ منهم بخُلَّةٍ ... عتبـتُ عليهـا النفـسَ أيَّ عِتـابِ

رغبتُ بنفسي عنْ مراعاةِ وُدِّهِم ... وأصبحـتُ عنهـم أُمَّـةً بكتـابِ

* * *

لسان الدين ابن الخطيب[3]:

قال: أَنْشَدْتُ مَنِ ٱسْتَفْهَمَنِـي عَنْ حَالِـي:

أَمَلِـي مِـنَ ٱلـدُّنْيَـا تَـأَتِّـي خَلْـوَةٍ ... فِـي مَنْزِلٍ بَـادٍ خَصِيـبِ ٱلْجَـانِـبِ

أُذْكِـي بِـهِ زَنْـدَ ٱلْقِـرَاءَةِ وَٱلْقِـرَى ... رَحْبُ ٱلْجَنَابِ لِطَارِقٍ أَوْ طَالِـبِ

حَتَّى أُلَاقِي اللَّهَ لَمْ تَصْرِفْنِي ٱلْـ ... ـأَوْهَامُ عَنْهُ بِشَاغِلٍ أَوْ شَاغِبِ

* * *

---

(١) أنيس الجليس ص ١٣.

(٢) ديوان عبد الكريم القيسي ص ٢٣١.

(٣) ديوان لسان الدين ابن الخطيب ص ١، ص ١٤٥.

أحمد بن أبـي سليمان الصّواف[1]:

رأيـت حليـم القـوم فيهـم مقـدَّمـاً ... ومن نال علماً نال جاهاً وسؤددا
ويحيا من الزلفى غداً في معاده ... بأضعاف ما يحيا الذي قد تعبدا
أراني بحمد الله في المال زاهداً ... وفي شرف الدنيا وفي العز أزهدا
فخليـت مـن دنيـاي إلَّا ثـلاثـة ... دفـاتـر مـن علـم وبيتـاً ومسجـدا
غنيت بها عن كل شيء حويته ... وصرت به أغنى وأفتى وأسعدا
وقـد ذم قـوم مـا فعلـت جهَـالـةً ... فعدّوا من الجهّال والجهل أحمدا
ولو فهموا أمري ورأيـي لأبصروا ... وقـالـوا رأى رأيـاً رشيـداً مسـددا

* * *

أبو الفتح علي بن محمد البستي[2]:

لمـا رأونـي فـريـداً حِلْـس زاويـة ... مستوحشاً في أناس حلمهم سفهُ
قالوا وضيع سلا عن حظّه ورأى ... أن النبيـه هـو المستحقـر النبـه
لو أنصفوني أصاخوا للنداء وهل ... ترجى إصاخة قوم بعدما انتبهوا
أنّى يكون وضيع النفس ذا همم ... لـه بـإبـلاغهـا أقصـى العـلا ولـهُ
ما عابني غير أني عبت شهوته ... إليـه ظنّـاً بـأن الهمـة الشـرهُ
رضيتُ نفسي لنفسي مؤنساً حَدِباً ... إن ظُنَّ بـي وَلَهٌ أو ظُنَّ بـي وَرَهُ
ففي بلاغات أهل العلم لي بُلَغٌ ... وفي رياض الرياضات لي نُزَهُ
وليس يَزْري بنفسي فَقْدَ مؤنسها ... وهـل يضـر بعيـن الأكحـل المَـرَهُ
مـا أشبهـونـي فعـادونـي لِنَقْصِهِـمُ ... وليـس يشبـه تِبْـراً خـالصـاً شَبَـهُ

* * *

---

(١) ترتيب المدارك ٢/ ٢٤٥ من قصيدة.

(٢) أبو الفتح البستي حياته، شِعره ص ٣٢٧.

عمر بن شبَّة[1] :

حدّث أبو علي العنزي، قال: امتحن عمر بن شبة بسُرَّ من رأى بحضرتي فقال: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، فقالوا له: فتقول مَنْ وقف فهو كافر؟ فقال: لا أكفر أحداً، فقالوا له: أنت كافر. ومزقوا كتبه، فلزم بيته وحلف أن لا يحدِّث شهراً، وكان ذلك حدثان قدومه من بغداد بعد الفتنة، فكنت ألزمه أكتب عنه، وما امتنع مني من جميع ما أسأله، فأنشدني قصيدة له أنشدها في محنته:

لمَّا رأيت العلم وَلّى ودثر ... وقام بالجهل خطيبٌ فهمر

لزمت بيتي معلناً ومستتر ... مخاطباً خير الورى لمن غبر

أعني النبي المصطفى على البشر ... والثانيَ الصدِّيق والتالي عمر

* * *

عمر بن خلف ابن مكي[2] :

اجعل صديقك نفسَكْ ... وجَوفَ بيتك حِلْسَكْ

واقنع بِخبْز ومِلْح ... واجعل كتابَك أُنْسَكْ

واقطع رجاءَك إلاَّ ... ممن يُصَرِّفُ نَفْسَكْ

تَعِش سليماً كريماً ... حتى تُوَافِيَ رَمْسَكْ

* * *

محمد بن إبراهيم المفضل[3] :

وجدت في صحبة كتبي غِنىً ... عن حال من أن تصفه الود حال

(١) تاريخ بغداد ١١/٢٠٨، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٧٠.

(٢) خريدة القصر (المغرب) ١/١٢٧، والدرّة الخطيرة ص ١٥٠.

(٣) طيب السّمر ص ٥٨، والأدب اليمني ص ٣٨٠.

صـــامِتَــــةٌ لكنهـــا دائمـــاً ... تخبـر عـن مـاضٍ وآتٍ وحـال
وصِرْت فـي حضـرة أنْسـي بهـا ... أحمـد منهـا الجَبْرَ في الاعتـزال

* * *

عمر بن مظفر ابن الوردي[1]:

إني تركتُ عقودَهُمْ وفسوخَهم ... وفروضَهـم والحكَـم بيـنَ اثنيـنِ
ولـزمـتُ بيتـيَ قـانِعـاً ومطـالِعـاً ... كتـبَ العلـومِ وذاكَ زيـنُ الـزيـنِ
أهـوى مِـنَ الفقـهِ الفـروقِ دقيقـةً ... فبهـا يصـحُّ تفـرّزُ النصَّيْـنِ
وأحبُ في الإعراب ما هو غامضٌ ... عـن نصـفِ نحـويّ وعـابـرِ عيـنِ
وأقـولُ فـي علـمِ البـديـعِ معـانيـاً ... مقسـومـةً بيـنَ البيـانِ وبينـي
وتـركـتُ نظـمَ الشعـرِ إلّا نـادراً ... كـالبيـتِ فـي سنـة أو البيتيـن
ما الشعرُ كالعلمِ الشريفِ نباهةً ... فـالعلـمُ فيـه سعـادةُ الـداريـنِ

* * *

أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم[2]:

رغيـفُ خبـز يـابـسٍ ... تـأكلـه فـي زاويَـهْ
وكـوزُ مـاءٍ بـاردٍ ... تشـربـه مـن سـاقيـه
وغـرفـةٌ ضيّقـةٌ ... نفسُـك فيهـا خـاليـه
أو مسجـدٌ بمعـزل ... عـن الـورى فـي نـاحيـة
تـدرسُ فيـه دفتـراً ... مستنـداً بسـاريـه

---

(١) ديوان ابن الوردي ص ٣٥٧، والأبيات ١ و ٢ في الدرر الكامنة ٣/ ٢٧٤، وما عدا الرابع في وجيز الكلام ١/ ٣٩، والأول فقط في المقاصد الحسنة ص ٣٩١، وكشف الخفاء ط ٥٥٢، والأوّلان في أعلام النبلاء ٥/ ٨.

(٢) أبو العتاهية أشعاره ص ٤٤١، ونزهة الجليس ١/ ٤٢٤.

معتبــراً بمـــن مضـــى | مـــن القــرون الخــاليــه
خيــرٌ مــن الســاحــات فــي | فَــيْءِ قصــور عــاليــه
تعقبهـــا عقـــوبـــة | تُصلـــى بنـــار حـــاميــه
فهـــذه وصيتـــي | مخبـــرةٌ بحـــاليـــه
طـــوبـــى لمـــن يسمعهـــا | تلـــك لعمـــري كـــافيـــه
فـــاسمـــع لنصـــح مُشفـــق | يُـــدعـــى أبـــا العتـــاهيـــة

* * *

سعيد فيّاض[1]:

لا يَسْلَـمُ الإنْســانُ مِــن كــارِهِ | حتَّى ولَوْ عاشَ الهُدَى والصَّوابْ
ولا يَــرى السَّــرَّاء فــي عُمْــرِهِ | إلَّا ومِيضــاً خــادِعــاً كــالسَّــرابْ
فــاصْبِــرْ ولا تَجْــزَعْ إذا أَمْطَــرَتْ | دُنْيــاكَ هَمّــاً عــاصِفــاً في العَــذابْ
واقْنَــعْ مِــنَ النُّعمــى بِسَــدِّ الطَّــوى | فَكُـــلُّ شَـــيءٍ آيِـــلٌ للتُّـــرابْ
وادْفَــعْ هَــوى النَّفْــسِ وطُغْيــانَــهُ | تَنْعَــمْ بِعَيْــشٍ هــانِــىءٍ مُسْتَطَــابْ
وابعَــدْ عَــنِ النَّــاس وضَــوْضــائِهِــمْ | واسْتَبْــدِلِ اللَّغْــوَ بِصَمْــتِ الكِتــابْ
فَفــي الكِتــابِ العَقْــلُ مُخضَــوْضِــلٌ | تُبْصِــرُ فيــهِ مــا تَبَــدَّى وَغــابْ
يُعْطِيــكَ كُــلَّ الحَــقِّ فــي حَمْلِــهِ | أَو تَــرْكِــهِ، لا لَــوْمَــةٌ أَو عِتَــابْ
صَــوتُ النُّهــى فــي صَمْتِــهِ نــاطِــقٌ | وفي حَديثِ النَّاسِ ظُفْرٌ وَنابْ!

* * *

محمد الأسمر[2]:

مجالسُ الناس صارتْ لا حديثَ بها | إلاَّ فـلانٌ بـه كيْـتٌ، وفيـه كـذا!!

---

(١) هتاف الوجدان ص ٣٢٣، قصيدة بعنوان: «قناعة».
(٢) ديوان الأسمر ص ٤٦٢، قصيدة بعنوان: «مجالسُ الناس».

حتى إذا جاءهُمْ هَشُّوا لمقدمهِ
كمن يداعبُ صيْداً بعد ما أُخِذا

فاحبِسْ لسانَكَ إن وافيتَ مجلسهمْ
فلو أتيْتَ بقرآنٍ لقيلَ هَذا

وإن نطقتَ فخيرُ القولِ أوْجَزُهُ
فلا تثرثِرْ به، بل ألقهِ نُبَذا

وليس يُغنيكَ هذا عن حِذارِهم
في كُلِّ شيءٍ، وعن تعليقك العُوَذا

خيرٌ من الناس كُتْبُ الناس تقرؤها
وأن تَظلَّ بِعُقْر الدار مُنْتَبذا

أو صاحِب الناسَ وانهلْ من مناهِلِهم
وعاطِهِمْ وتعاطَ الودَّ وهو أذى!!

واعلَمْ بأنَّهُمْ حَرْبٌ مُسَعَّرةٌ
فالبَسْ لديهمْ دروعَ الحرب والخُوَذا

واشحذْ سلاحَكَ واعلمْ أنَّ كُلَّهُمُ
مُقَلَّدٌ صَعْدَةً، أو صارماً شُحِذا

كمْ من أخيذٍ لديهمْ، وهو صاحِبُهم
فلا تكُنهُ وكُنْ أخَّاذ من أَخذا!!

* * *

جمال الملاّح[1]:

تخليت للقوم عن موضعي
وعدت لنفسي وديني معي

تركت المناصب مستغنياً
أسير إلى المنصب الأرفع

أرى الفضل ينسج لي حلة
من الأدب الغض لم تنزع

وأعرضت عن شرف كاذب
به لم أغر ولم أخدع

تركت السياسة للمدعين
وكم في العشيرة من مدع

وفضلت في عزلتي وحشة
هي الأنس يملأ لي مخدعي

فلا العين تنظر ما لا تحب
ولا الأذن تسمع ما لا تعي

وما استوحش المرء في كتبه
يحاط بكل فتى ألمعي

لدى مجلس حافل بالبدور
نطل على السفر من مطلع

محاسن من أدب واسع
تضاف إلى شرف أوسع

---

(١) المركب التائه ص ١٤، قصيدة بعنوان: «العزلة والسياسة».

وفضـــل أهِــم بكتمـــانـــه ... فيعلــو سنــاه علــى البــرقــع
سنــاء علــى رغـم أنـف الحسـود ... ومــن يــرفــع الله لا يــوضــع
أحـــب حيـــاة تعـــودتهـــا ... حيــاة الفتــى البــاســل الأروع
وأحفـــظ للنفـــس حـــريـــة ... طــويــت علــى حبهــا أضلعــي

* * *

عامر البحيري[1] :

جلــس العــالــم فــي منــزلــه ... وعــن البــاطــلِ واللغــو اعتــزلْ
يطلــب الكتــب ويُعلــي قــدرهــا ... مــا لــه مــن صحبــة العمــر ملــل
ينفــق المــال لكــي يبتــاعهــا ... لا يبــالــي بغــذاهــا مــن أَكــل
كــلَّ يــوم منــه شطــر صــالــحٌ ... لقـــراءاتِ، ودرس، وشُغـــل
صحبــه الأدنــوْن هــم أصحــابهــا ... ســادة الــرأي، وأربــاب النِّحــلْ
الغــزالــي وابــن رشــدٍ عنــده ... أرشــد الحُلْــم لصــاح مــا غفــل
وسمـــاءُ العبقـــريـــات لـــه ... حيــن يــرضــى فكــرة خيــرُ نُــزُلْ
هـــذه الكتـــب غـــدت أَبنـــاءه ... فهــو منهــا فــي ســرور وجــذلْ
أُنشـــروهـــا تنشـــروا أفكـــاره ... وتطيلــوا منــه للــدهــرِ الأَجــل!

* * *

إسماعيل أبو شقرة[2] :

تَأَسَّيْتُ عن هَجْرِ الأَحِبَّةِ والورَىٰ ... وفقـدي لأيـامِ الصَّبـابـةِ والْهَـوىٰ
بعــوْدي إلــى دارِ أُحِــسُّ بــأنّهــا ... هي الجنةُ الخضراءُ تَرْقُصُ في الهوا
وأشعُرُ أنّي حينَ عُدْتُ لحضْنِها ... هَــزارٌ إلــى وَكْــرِ لَــهُ آبَ أوْ أوىٰ

---

(١) ديوان عامر البحيري ص ٣١٠، من قصيدة «العقّاد».

(٢) أغاريد الطيور ص ٧٠، قصيدة بعنوان: «العودة إلى الفردوس».

فَلا أَنَا بِالآسي على فَقْد صحْبتي ... ولا أنا بِالْباكي عَلى جُنُبٍ خَوىٰ
أُلاعِبُ أطْفالي، فَيَرْجِعُ ضَحْكُهُمْ ... إلى هَشِّ أَوْصالي، مَزيداً من القُوىٰ
وأَهْفو إلى زوْجي، فَتُشْعِلُ في دَمي ... حنيناً إلى الماضي يَضِجُّ مِنَ الجَوىٰ
وَإِنْ طَلَبَتْ نفسي السَّكينةَ أَسْرَعَتْ ... تُلَبِّي لها زَوْجي السَّكينَةَ بِالنَّوى
فَأسْتَلُّ من رُكنِ الخزانةِ (دارِساً) ... أعزَّ على جُرْحي البَليغِ من الدَّوا
ففي الكُتُبِ الصَّفراءِ أَحظى بِمُتْعَةٍ ... أطيرُ بها عَنْ عالَم اللَّغْوِ والهَوىٰ
وأسْمو بها عَنْ كُلِّ أرضٍ تَشُدُّني ... إلى أقرَبِ اللَّذاتِ نَوْلاً لِمَنْ نَوَىٰ
وَفي كُتُبِ الأشعارِ أسمو لِرُتْبَةٍ ... تُريني بني الإنسانِ كالنَّمْلِ في الكُوىٰ
فلا تَبْتَئِس إن عَقَّكَ النّاس ساعةً ... فهذا سُلوكُ النّاس مُذْ خُلِقَتْ طُوى
تَعَوَّدْ على نارِ القَطيعَةِ والأسى ... وَلاَ تَشْكُ من بِالغَدْرِ سِيمَ أو اكتوىْ
فَلَم أرَ أغبىٰ أو أجَنَّ مِن الذي ... يُخَالِطُ أقْواماً تَعيشُ على الغِوىٰ

* * *

أحمد الصافي النجفي[(١)] :

أطالع ما استطعت وجوه كتب ... فراراً من مطالعة الوجوه

* * *

عباس محمود العقّاد[(٢)] :

كل بيت من البيوت التي تعاقب عليها السكان لو ألقيت عليه طِلَّسْمَ الخيال وأمرته بالكلام فتكلم لانطلقت منه أسرار وأشباح يزدحم بها فضاء المكان، ولسمعت عجباً لا تسمع الآذان أعجب منه، وليس الذي يتحدث به «البيت» في القصيدة التالية إلاَّ قليلاً من كثيره:

---

(١) هواجس ص ٦.

(٢) ديوان العقاد ٢/ ٥٥٣، من قصيدة «بيت يتكلم».

وأَمـــا رابـــع القـــوم ... فـــذو علـــم وتبيـــان
حشـــا بـــالـــورق اليـــا ... بـس والأخضـر حيشـانـي
فمـا لـي مـوضـع فـي الأَ ... رض أو مـن فـوق عمـدان
ومـا لـي مطبـخ أو مخـد ... ع أو بهـــو ضيفـــان
ولا زاويـــــــة إلاَّ ... وفيهـا الكتـب تلقـانـي
أَبـى للنفـس دعـواهـا ... ولـم يسمـع لجثمـان
فـلا سهـرة أحبـاب ... ولا جلسـة نـدمـان
فمـا أجهلـه بـالخلـق ... ذاك العـالـم العـانـي!
أبيـن النـاس يحتـا ... ج إلـى علـم وبـرهـان؟
وهـم عميـان ظلمـاء ... سـروا فـي إثـرِ عميـان؟
كثيـر لـك يـا إنسـا ... ن فـي دنيـاك عينـان!!

* * *

أبو القاسم أحمد بن محمد البلوي الإشبيلي[1]:

لمن أشكو مُصابي من البَرايا ... ولا ألقـى سـوى رجُـلٍ مُصـابِ
أُمـور لـو تـدبَّـرهـا حكيـمٌ ... لعاش مدَى الزمان أخا اكتئاب
أمَـا فـي الـدهـر مـن أفضـي إليـه ... بـأَسـراري فيـؤنِـسَ بـالجَـواب
يئسـتُ مـن الأَنـام فمـا جليـسٌ ... سَرَّى عنِّي الهُموم سوى كتابـي

* * *

لا يكون الإنسان منفرداً إذا كان بصحبة الكتب[2].

* * *

(١) اختصار القدح المعلّى ص ١٢٠، ونفح الطّيب ٣/ ٣٢٥.
(٢) كلمات من ذهب ص ٦٦٠.

جونسون[1] :

الكُتُبُ مَرْشَدَةٌ في الصِّغَرِ، وتَسْليةٌ في الكِبَرِ، ورَفِيقٌ في العُزْلَةِ.

* * *

قال بعض العلماء[2] :

الكتاب جَليس، لا مَؤونة عليك فيه.

* * *

أبو الطيّب المتنبي[3] :

أَعَزُّ مَكَانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ   وَخَيْرُ جَلِيسٍ في الزَّمَانِ كِتَابُ

يقول: إن سرج الفرس هو أعز مكان؛ لأنه يمتطى لطلب المعالي أو محاربة الأعداء لدفع شرهم، أو للهرب من الضيم واحتمال الذل. وأن الكتاب هو خير جليس لأنه مأمون الجانب، فلا أذى ولا شر، ولا يحتاج في مجالسته إلى مؤونة، فضلاً أنه يفاد من آدابه وكل ما يحتويه.

* * *

---

(١) موسوعة روائع الحكمة ص ٥١١.

(٢) المحاسن والمساوىء ص ٦، وتقييد العلم ص ١٢٠.

(٣) شرح ديوان المتنبّي ١/ ٣١٩، والعزلة ص ٩١، ويتيمة الدهر ١/ ٢١٥، واللطائف والظرائف ص ٦٧، والتمثيل والمحاضرة ص ١١٠، والمناقب والمثالب ص ٢٤٠، وزهر الآداب ١/ ١٨٤، والعمدة ١/ ٤١٦، وأحكام صنعة الكلام ص ٥٢، وشرح المضنون ص ٤، والفخري ص ٧، وحسن التوسّل ص ٩٠، ونهاية الأرب ٣/ ١٠٥، وخزانة الأدب ١/ ٢٠٦، والمخلاة ص ٢٧٤، وأنوار الربيع ٢/ ٣٨٧، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٨، وكنوز الحكمة ص ١٣، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥٠٩، وكلمات من ذهب ٦٦٢.

عامر بن شراحيل الشعبي[1] :

نعم المحدِّثُ الدفتر .

* * *

أحمد بن عبد الله ابن زيدون[2] :

فَتَحْتَ المُنَى مِنْ بَعْدِ إِلْهَامِنَا بِهَا ... وَقَدْ ضَاعَ إِقْلِيدٌ وَأُبْهِمَ بَابُ

مَدَدْتُ ظِلَالَ الأَمْنِ تَخْضَرُّ تَحْتَها ... مِنَ العَيْشِ في أَعْذَى البِقَاعِ شِعَابُ

حِمىً سَالَمَتْ فِيهِ البُغَاثَ جَوَارِحٌ ... وَكَفَّتْ عَنِ البَهْمِ الرِّتَاعِ ذِئَابُ

فلا زلتَ تسعى سَعْيَ من حظُّ سعيه ... نجاحٌ وحظُّ الشانِئيه تَبَابُ

فَإِنَّكَ لِلدِّينِ الشَّعِيبِ لَمُلْئِمٌ ... وَإِنَّكَ لِلْمُلْكِ الثَّأْيِ لَرِئَابُ

إِذَا مَعْشَرٌ أَلْهَاهُمُ جُلَسَاؤُهُمْ ... فَلَهْوُكَ ذِكْرٌ، وَالجَلِيسُ كِتَابُ

* * *

أحمد بن أبي الفتوح[3] :

إذا لم أجِدْ يوماً جليساً مهذَّباً ... يُشاكِلُني في النَّجْر، جالستُ دفترا

يُرِيني الورى الماضينَ : مَنْ كان منهمُ ... أَلَبَّ، وأقوى في الخطوب، وأصبرا

* * *

وقال غيره[4] :

اجعل جليسك مجموعاً تطالعه ... لتستفيد من الآداب والحكم

---

(١) التمثيل والمحاضرة ص ٣٤، وبلا عزو في ربيع الأبرار ٣/ ٢٣٢، والمخلاة ص ٣٤٥.

(٢) ديوان ابن زيدون ص ٣٧٩، من قصيدة في المدح.

(٣) خريدة القصر (العراق) ٤/ ٥٥١، من قصيدة.

(٤) الكنز المدفون ص ٤٠٧.

واترك مجالس أقوام تجالسهم		فتكسب الإثم من سَمْعٍ ومن كَلِمِ

* * *

أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد الرازي اللغوي[1] :

وقَالوا كَيْفَ حَالُكَ؟ قلت خَيْرٌ		تُقضى حاجَةٌ وتَفُوتُ حاجُ

إذَا ازْدَحَمَتْ هُمُومُ الصَّدْرِ قُلْنا		عَسى يَوْماً يَكُوْنُ لها انفِرَاجُ

نَديمي هِرَّتي وأَنيسُ نَفسي		دَفَاترُ لي ومَعْشُوقي السِّراجُ

* * *

شاعر[2] :

إِذَا اسْتَوْحَشْتَ فاسْتَأْنِسْ		إِلى أُحْدوثَةٍ تُؤْثَرْ

وَلاَ تَطْلُبْ بِهِ بَدَلاً		فَنِعْمَ المُؤْنِسُ الدَّفْتَرْ

* * *

محمد بن أحمد العلوي الأصبهاني[3] :

لا وأنسي وفرحتي بكتاب		أَنا منه في حسن أَضحى وفِطرِ

ما دجا ليل وحشتي قط إلاَّ		كنتَ لي فيه طالعاً مثل بدر

---

(١) يتيمة الدهر ٣/ ٤٦٩، ودمية القصر ٣/ ١٤٨٠، ونزهة الألباء ص ٢٣٧، والمنتظم ١٤/ ٢٧٤، وإنباه الرواة ١/ ١٢٨، ومعجم الأدباء ٤/ ٨٦، والمستفاد من ذيل بغداد ص ١٦٨، ووفيات الأعيان ١/ ١٢٠ و ٤٥١، وحياة الحيوان ٢/ ٣٨٦، والفلاكة والمفلوكين ص ١١٢، وشذرات الذهب ٤/ ٤٨٢، وروضات الجنات ١/ ٢٤٣، وموسوعة الكنايات العاميّة ٢/ ٨٩ و ٣/ ١٣٤، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٥٧.

(٢) حماسة الظرفاء ٢/ ٢٧٩.

(٣) تقييد العلم ص ١٢٩.

بحـديـث يقيـم لـلأنـس شـوقـاً ولثـام يكـف لـوعـة صـدري

* * *

أحمد بن عبد المنعم الحَكيم البغدادي[1] :

إذَا لم أَجد لي في الزَّمانِ مُؤَانِساً جَعَلْتُ كِتَابي مُؤنسي وَجَليسي

وأَغْلَقْتُ بابـي دونَ مَنْ كَانَ ذَا غِنَى وأَمْلَيْتُ مِنْ مَالِ القَنَاعَةِ كِيسي

* * *

عبد الله بن المعتز[2] :

لا شـيء أنفـع مـن كتـاب يـدرس فيـه السلامـة وهـو خـل مـؤنـس

رسـم يفيـد كمـا يفيـد ذو النهـى أعمى أصم عن الفواحشِ أخرس

* * *

وله أيضاً[3] :

جعلـــت كتبـــي أنيســـي مـــن دون كـــل أنيـــسِ

لأننـــي لســـت أرضـــى إلَّا بكـــــل نفيـــــس

* * *

أحمَـد بـن مُحَمَّـد بـن أَحْمَـد السُّلَمِـيّ، أَبُـو جَعْفَـر المَغْـربـيّ الأَنْدَلُسِـي، يُعْرف بِابْنِ خَوْلَة[4] :

إذا مَـا الـدَّهْـر بيَّتَنـي بجَيْـشٍ طليعَتُـــهُ اهتِمَـــامٌ وَاكْتِئَـــابُ

---

(١) شذرات الذهب ٧/ ١٩٣ .

(٢) تقييد العلم ص ١٢٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٣ .

(٤) تراجم مغربية ص ١٧٨ ، وتاريخ إربل ١/ ٣٧٧، وتاريخ الإسلام ٤٤/ ٣٩٥، وتكملة إكمال الإكمال ص ٩٠ ، ودون نسبة في معجم الأدباء ١/ ٣١، ووفيات الأعيان ٦/ ١٣٤ ، وموسوعة الكنايات ٢/ ٩٠ .

شَنَنْتُ عَلَيْه من جَلَدِي كَميناً ... أمِيراه الذُّبالةُ والكتابُ
وبتُّ أنصُّ من شِيم اللَّيَالِي ... عَجَائبَ فِي حَقَائِقهَا ارتِيَابُ
أُرِيدُ بِهَا التَّسلِّي مُستريحاً ... ولَيْس عَلَى الزَّمَان بِها عِتَابُ

* * *

بعض الحكماء[1]:

قال: من تفرَّد بالعلم لم تُوحشه خَلوةٌ، ومن تَسَلَّى بالكتب لم تفُتْه سَلْوةٌ، ومَن آنسَهُ قراءةُ القرآن لم توحِشْه مفارَقَةُ الإخوان.

* * *

بعض الوزراء[2]:

قال: يا غلام آئتني بأُنس الخلوة ومجموع السلوة؟ فظن جلساؤُه أنه يستدعي شراباً، فأتاه بسفط فيه كتب.

* * *

عبد الله بن العبَّاس:

قيل له: كم تطلب العلمَ؟ قال: إذا نَشِطتُ فهو لذتي، وإذا اغتممت فسلوتي[3].

* * *

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٣٣، ودون الفقرة الأخيرة في الحكمة الخالدة ص ١٤١، ومحاضرات الأدباء ١/ ٣٣ وعين الأدب والسياسة ص ١٢.

(٢) تقييد العلم ص ١٢٥.

(٣) تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٩١، وصفحات من صبر العلماء ص ١١٣ نقلاً من تاريخ حلب.

بعض البصريين[1]:

العلم آنس صاحب ... أخلو به في وحدتي

فإذا اهتممت فسلوتي ... وإذا خلوت فلذتي

ويروى: «وإذا نشطت فلذتي».

* * *

عمر بن الحاكم[2]:

علمي إذا ما نشطتُ ألهاني ... وهو متىٰ ما اغتممْتُ أسلاني

ودفتري، والجليسُ يخذُلني ... خيرُ جليسٍ وخيرُ ندمانِ

* * *

آخر[3]:

نِعمَ الجليسُ بِعَقبِ قَعدةِ ضُجْرَةٍ ... لِلْمَلْكِ وَالأدَبَاءِ وَالكُتّابِ

وَرَقٌ تَضمّنَ مِنْ خُطوطِ أنَامِلٍ ... مَرْعىً مِنَ الأخبْارِ وَالآدابِ

يَخْلُو بِهِ مَنْ مَلّ مِنْ أصْحابِهِ ... فيُقَالُ خِلْوٌ وَهُوَ في الأصْحَابِ

* * *

ابن المأمون:

دخلَ المأمونُ يوماً على بعض بنيه وهو ينظرُ في كتابٍ فقال: ما هذا؟ قال: كتابٌ يَشْحَذُ الفِطْنَةَ، ويؤنسُ العِشْرَة، فقالَ المأمونُ: الحمدُ للّهِ الذي جعلَ لي ذُرِّيَّةً يرى بِعَينِ عقلِهِ أَكثرَ مِمَّا يرى بعينِ جسمِه[4].

* * *

---

(١) جامع بيان العلم ص ٥٨٣.

(٢) دمية القصر ٢/ ١٠٣٢.

(٣) المحاسن والمساوىء ص ١٦.

(٤) ديوان المعاني ٥٣٤ وبعده: وظلّ مفكراً في قول ولده الطفل، وزهر الآداب =

بعض الحكماء[1]:

قال: الحكمة خلة العقل، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، وروضة الأرواح، ومزاح الهموم عن النفوس، وأنس المستوحش، وأمن الخائف، ومتجر الرابح، وحظ الدنيا والآخرة، وسلامة العاجل والآجل.

وقال بعضهم: الحكمة نور الأبصار، وروضة الأفكار، ومطية الحلم، وكفيل النجح، وضمين الخير والرشد، والداعية إلى الصواب، والسفير بين العقل والقلوب، لا تندرس آثارها، ولا تعفو ربوعها، ولا يهلك امرؤ بعد عمله بها.

* * *

وخير جليس في الأنام كتاب[2]:

هو النديم الكريم، والخدن الأمين، البريء من الذنوب، السليم من العيوب، الذي إن أدنيته لم يباعدك، وأن أقصيته لم يعاودك، وإن واصلته حمدته، وإن هاجرته أمنته، وإن استنطقته أسمعك، وإن استكفيته أقنعك، وإن استكففته كف، وإن استثقلته خف، وإن دعوته لبَّاك، وإن استعفيته أعفاك.

= ١/ ١٨٤ وفيه: الرشيد مع المأمون، وثمار القلوب ص ٣٢٧، وتقييد العلم ص ١٣٩، ومحاضرات الأدباء ١/ ١١٨، وفيه: من ينظر إليه بأدبه أكثر ممّا ينظر إليه بحسبه، وربيع الأبرار ٣/ ٢٣٦، والتذكرة الحمدونية ٥/ ٤١٢ وفيه اسم ولده الفضل، والأذكياء ص ١٨٩، وأسرار الحكماء ص ١٣٧ وفيه اسم ولده هارون، والمخلاة ص ٢١، والأنس ١/ ٢٩٤.

(١) عين الأدب والسياسة ص ١٢.

(٢) مطالع البدور ٢/ ١٧٥.

لا يعصي لك أمراً، ولا يحمِّلك إصراً، عرضك معه وافر، وهو لسرّك غير ناشر، أنيق المنظر، طيِّب المخبر، جميل المشاهد، كثير المحامد، يملأ العيون قره، والنفوس مسرَّه، يضحك الحزين اللهف، ويلهي الغضبان الأسف.

يجتلب السرور ويشرح الصدور، يطرد الهموم والأحزان وينفي بواعث الأشجّان، مجاورته أحسن مجاورة، ومسامرته أحلى مسامرة، ومجالسته أنفع مجالسة، ومؤانسته أمتع مؤانسة.

فيه مدعاة إلى الطرب ومسلاة من الوصب، وتعِلَّة لذي الغرام، وتلهية لقلب المستهام، وأنس للمستوحش، وري للمتعطش، وعمارة للمجالس، وحلية للمؤانس، تلقي القلوب محبتها عليه وتميل النفوس بكليتها إليه، ليس بينه وبين حبات القلوب حجاب، ولا يغلق بينه وبين سويداواتها باب.

* * *

عليُّ بن الجهم[1]:

لمّا سُيِّرَ عليُّ بنُ الجَهْم إلى خُراسان كتبَ إلى بعض إخوانهِ على لسان غُلامٍ له:

أمّا بعد، فإنَّ اللَّهَ إذا أراد أمراً جعلِ له من قَضائه سبَبَاً يَجْري بعلمهِ، ويَنتهي إلى قَدَره، لا إله إلاَّهُ، أَحْصَى كلَّ شيءٍ عدداً، وأَحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، وجعل لكلِّ قَدَراً.

ومن أسباب قَدَرِه أنْ سَهَّلَ لي بَعْدَكَ مِنَ الشِّعر ما أخاطبُ به الشاهدَ وأُكاتبُ الغائب، وأجتدي به وأستزيد، وأبلغُ ما أُريد، وهو يُؤْنِسُني إذا

---

(١) البصائر والذخائر ٨/ ٢٠٤.

أُوحِشت، ويُطيعُني إذا عُصِيت، ويَصدعُ عنّي إذا شِيت.

بليغُ الخطبة، جميلُ العِشْرة، كريمُ الصُّحْبة، يرِدُ الأنْدية، ويلجُ الأخبية، سائراً في البلاد، مسافراً من غير زاد، راضياً إنْ رَضِيتُ، مُؤذياً إنْ أوذيتُ، جازياً بما أُوليتُ، باقياً إذا أُفنيتُ، مُعْتَرِضاً في الأسمار، عالماً بالأخبار، ومُعَزِّياً عنِ الأَوتار.

يحضرُ إنْ غبتُ، ويجسرُ إنْ هِبْتُ، ولا يُحظَرُ بالحَظْر، ولا يُوزَعُ بالزَّجْر، إذا قُيِّدَ رتَك، إذا أُغْمِدَ بَتَك، وإذا جُرِّدَ فتَك، يلقحُ به الغزِلُ، ويُعَلَّل به الثَّمِلُ، ويأنسُ به الوجِلُ، وقد أتحفتُك منه ببعض ما يُجَدِّد عندك ذِكْرَنا، وتعرفُ به خَبَرنا.

وهو شِعْرٌ قُلْتُه في مقامٍ واحدٍ لم أزل أَعجبُ منه، وسأصفُ لك المقامَ لتحمد الله تعالى عليه:

لمَّا كان اليوم الذي وَرَدْنا نَيسابور، وقصدنا بابَ الأمير، وقد احتَشدَ لنا الناس، وكانَ مَنْ قَدَّرَ ذلك يَتَوهّمُ مع الخبر الشائع الذي حُمِلْنا له أنَّ الداعيَ علينا سيكثر، وأنّ الشَّامتَ بنا سَيَظهر، إذ كنّا في حالٍ لم يُحْمَلْ على مثلها بَابَكُ ولا المازيار[1]، وما منهما إلاَّ قد رأينا.

فَبَيْنا الناسُ كذلك إذ أقبل به في محملٍ قليلِ الوطاء، مسلوبِ الغطاء، فلمّا توسطنا الجماعة، ونظروا إليه، فلم يكن في ظاهرِه ما يَسْمُجِ، ولا في قديمه ما يُنْكَر، ولا في مَسَاعيه ما ينقم، ولا في قَدْر الذَّنْبِ الذي ذَكَر أنه فَعَله ما يبلغُ به ذلك عند الناس، وَجَد الوَلِـيُّ إلى الدُّعاء له بالخيرِ سبيلاً،

---

(١) بابك الخرّمي والمازيار من الثوار على الدول العباسية، أما الأول فإنه قتل ومُثِّل به سنة ٢٢٣هـ، (وانظر: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٧٧ ــ ٤٧٨)، وأما الثاني فكان قدومه على سامراء سنة ٢٢٥هـ، (انظر: المصدر نفسه ٦/ ٥١٠ ــ ٥١٦).

وساعَدَه مَنْ حضر، وارتجَّ الجميعُ بالدَعاءِ له، فصار ما نُعيَ عليه مَعُونةً له، وأبـى اللَّهُ تعالى، المحسنُ إلينا، أن يسلبه السِّتْرَ الجميل، إذ سلبه الآدميُّونَ الغطاء، وألَّا يزيلَ نعمه إذ زال كلّ ما كان فيه وألا يجعلَ لأعدائه إلى الشَّماتةِ به سبيلاً، والسلام.

* * *

أبو هلال العسكري[1]:

لا مـونـسٌ آنَـسُ مـن دفتـرِ | وواعـظٌ أوعـظُ مـن قبـرِ
فـلا تُـردْ غيـرَهمـا صـاحبـاً | تفـوز فـي المـوقـف و الحشـرِ

* * *

بعض الحكماء[2]:

قيل لرجل: من يؤنسك؟ فضرب بيده إلى كتبه وقال: هذه. فقيل: مِن الناس؟ فقال: الذين فيها.

وقيل لبعضهم: أما تستوحش؟ فقال: يستوحش من معه الأنس كله؟ قيل: وما الأنس كله؟ قال: الكتب.

* * *

محمد بن علي النحوي[3]:

قال: ودَّع رجل صديقاً له فقال له: استعن على وحشة الغربة بقراءة الكتب، فإنها ألسن ناطقة وعيون رامقة.

* * *

(١) ديوان العسكري ص ١٢٨.
(٢) تقييد العلم ص ١٢٥.
(٣) تقييد العلم ص ١٢٤.

بعض الحكماء[1]:

قيل لبعضهم: لم لا تعاشر فلاناً الشريف؟ فقال: أنا أعاشر أباه وجده؛ ومعاشرة أبيه وجده أحب إلي من معاشرته، فقيل: إن أَباه وجده قد ماتا، فكيف تعاشرهما؟ فقال: بأخبارهما وآثارهما في الكتب التي إذا قرأتها، قد عاشرتهما بها.

وقيل لحكيم من الحكماء: أَلا تدعو قوماً يؤنسونك، فقال: كم جهد ما يمكن مثلي أَن يدعو من الناس ليستأنس بهم؟ فقالوا: الاثنين والثلاثة؛ فقال: قد يؤنسني ألوف وألوف وعشرات ألوف، فقيل: أنى لك كل هؤلاء؟ وهل تسع دارك جمعهم؟ فقال: مجمعهم في الكتب المسطورة والأخبار المأثورة.

* * *

ملك الهند وولده[2]:

قال ملك الهِنْد لولده: وكان له أربعون ولداً: يا بَنيَّ، أكثِروا من النظر في الكتب، وازدادوا في كل يوم حرفاً، فإن ثلاثة ضروب من الناس لا يستوحشون في غربة ولا يقصر بهم عن مكرمة: الشجاع حيثما توجه، فإن بالناس حاجة إلى شجاعته وبأسه؛ والعالم، فإن بالناس حاجة إلى علمه وفهمه؛ والحلو اللسان الظاهر البيان، فإن الكلمة تجوز له بحلاوة لسانه ولين كلامه.

فإن لم تعطوا في أنفسكم رباطة الجأش وجرأة الصدر، فلا يفوتنكم

---

(١) تقييد العلم ص ١٢٦.

(٢) العقد الفريد ٢/ ٢١٠، والحكمة الخالدة ص ١٨، وعين الأدب والسياسة ص ١٥٨.

العلم وقراءة الكتب، فإنه أدب وعلم قد قيده لكم من مضى من قبلكم، تزدادون به عقلاً.

* * *

رجل بطرسوس، والقشيري[1]:

قيل لرجل بطرسوس: ما هنا أحدٌ تستأنسُ إليه؟ قال: نعم.

قلت: فمن؟ فَمَدَّ يده إلى المصحفِ ووضعه في حجرِه، وقال: هذا.

وقال القشيري في «رسالته»، وفي معناه أنشدوا:

وكُتْبُكَ حولي لا تُفارقُ مضْجَعي وفيها شِفَاءٌ للذي أنا كاتِمُ

* * *

أحمد بن الحسين الصّنعاني[2]:

وكان أقام بالحصين بحضرة المتوكل أياماً حتى ملَّ وضجر فقال:

ما في الدنىٰ من مؤنس غير اللطيف من الكتبْ
فكمصحف أنا بالحصيـ ـن وكل من فيه جُنُبْ

وفيه تشكٍّ لطيف من جفاء الإخوان وذمٌ لهم لأن الجُنُب نَجس حُكماً.

* * *

محمد بن معقل بن محمد الأزدي[3]:

ليس شيء ألذ عندي ولا آ نسُ لي من تأمل في كتابِ

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٤، والعزلة والانفراد ص ٧٦.

(٢) نسمة السحر ص ١ وص ٢١٥.

(٣) تقييد العلم ص ١٤٤.

هـو أَشهـى مـن ارتشـاف رضـاب   من حبيب من بعد طول اجتناب
فـأنـا مـع حضـوره حـاضـر الأنـ   ـسِ وإن غـاب آمـن الاغتيـاب
أَجتنـي مـن ثمـاره بـارع العلـ   ـم مشـوبـاً بلـذة الآداب
ذاك أنسـي مـن دون كـل أنيـس   وحبيبـي مـن سـائـر الأحبـاب
فـإذا مـا مللـت مـن نظـر فيـ   ـه طواه عني ظريف احتجاب
سلـة تحتـوي ضـروبـاً كثيـراً   هـي قصـر لهـم بـلا بـوّاب
لا يعيد الحديث إن خيف من لفـ   ـظ جليس يبـديـه لـلأصحـاب
فـإذا مـا فـارقتـه كنـت منـه   آمنـاً أَن يعيبنـي بمعـاب
ولنـا ثـالـث بـه يكمـل الأنـ   ـس لهـا ريقـة ألـذ شـراب
يغتـدي درّهـا أَصـمُ سميـعٌ   أَخـرس نـاطـق بغيـر خطـاب
فـإذا مـا جـرى بميـدان أَطـرا   س علـى رأسـه أَتـى بـالعُجـاب
فهـم مـألفـي وأنسـي لا أَبْـ   ـغي بـديـلاً بهـم وهـم أتـرابـي

* * *

عتاب بن ورقا[1] :

لـو علـم الجـاهلـون مـا الأَدبُ   لأيقنـوا أَنـه هـو الطـربُ
لو يعلم العاشقون ما لذة العلم   ولـم يعـرفـوه مـا نصبـوا
مـن كـان يلهـو وكـان ذا أنـس   فـالعلـم لهـوي وأُنسـيَ الكتـب
إن عجبـوا مـن مقـالتـي فهـمُ   مـا عجبـوا مـن مقـالتـي العجـب

* * *

(١) تقييد العلم ص ١٢٩ .

محمد بن أحمد بن رجاء[1]:

هو من أهل شرق الأندلس؛ كان أديباً كاتباً محسناً ذا حظ من قرض الشعر يجيد في بعضه، كتب قديماً عن بعض رؤساء عصره ثم تخلى عن التلبس بالكتابة وآثر العزلة والانفراد، ومن قوله في ذلك:

ولما رأيتُ الخيرَ قد قلَّ أهله ... ولم يبقَ إلاَّ ناقصٌ وخسيسُ
تفردتُ بالآداب حتى أَلفتها ... فما لي سوى أخبارهنَّ أنيس
وما الخيرُ إلاَّ في التفرّدِ للفتى ... وما الشرُّ إلاَّ صاحب وجليس

* * *

محمد بن إبراهيم ابن الوزير[2]:

لامَني الأهْلُ والأحِبَّةُ طُرّاً ... في اعْتِزالي مَجالِسَ التَّدْريسِ
قلتُ لا تَعْذِلوا فَما ذاكَ مِنّي ... رغْبَةً عَنْ عُلومِ تِلْكَ الدُّروسِ
هِيَ رياضُ الجِنَانِ مِن غَيْرِ شَكٍّ ... وسَناها يُزْري بنُورِ الشُّمُوسِ
غَيْرَ أنَّ الرِّياضَ تُؤوِي الأفاعِي ... وجِوارُ الحَيَّاتِ غَيْرُ أَنِيسِ
حَبَّذا العِلْمُ لو أَمِنْتُ وصاحِبْـ ... ـتُ إماماً في العُلومِ كالقاموسِ
غيرَ أني خَبَرْتُ كُلَّ جليسٍ ... فَوَجَدْتُ الكِتابَ خَيْرَ جَليسِ
ورَضيتُ المَرْوِيَّ عنْ جَدِّيَ القا ... سِمِ من جامِعِ علومِ الرُّسوسِ
فدَعوني فقدْ رَضيتُ كِتابي ... عِوَضاً عن أُنْسِ كُلِّ أَنيسِ

* * *

(١) الذيل والتكملة ٥/ ٢/ ٦٣٧.

(٢) العزلة والانفراد ص ٣٨.

عمر بن محمَّد بن عمر[١]:

قال: قرأت في كتاب جدّي عمر بن صالح الأنصاري بخطّه وأظنّه له:

إِنْ مَلَّتِ النَّفْسُ مِنَ الهَوَاجِسِ ... وَأَدْبَرَ القَلْبُ مِنَ الوَسَاوِسِ

خُذْ لَهُمَا أَخْذَ أَدِيبٍ قَابِسِ ... طَرَائِفَ الحِكْمَةِ مِنْ مُؤَانِسِ

* * *

محمد بن مروان الدمشقي، أو غيره[٢]:

لَمِحْبرةٌ تجالسُني نهاراً ... أَحَبُّ إليَّ مِن أُنْس الرفيقِ

ورُزْمة كاغدٍ في البيت عندي ... أحبُّ إليَّ مِن عِدْل الدقيقِ

ولَطمةُ عالمٍ في الخدّ مني ... أحبُّ إليَّ من شُرْبِ الرحيقِ

وأثَرُ الحِبْر في ثوبي وكفّي ... أحبُّ إليَّ من أثَرِ الخَلُوقِ

* * *

الأمير مجيرُ الدِّين عمرُ ابنُ اللَّمطيّ[٣]:

أُعيذُك إنِّي بين أهلي وجيرتي ... وحيداً عادمَ ودٍّ مُشفقِ

أقلِّبُ طرفي لا أرى ليَ مؤنساً ... لعمرك فيهم غير طرسٍ منمَّقِ

يحدّثُني عن حُسن أحوال من مضَى ... ويخبرُني عن قبح أحوال من بقِي

* * *

---

(١) معجم السفر ص ٣٨٣.

(٢) تاريخ دمشق ص ٥٥/ ٢٤٤ من إنشاد محمد بن مروان الدمشقي، وجامع بيان العلم ص ٥٨١، ٥٨٣ محمد بن هارون الدمشقي له أو لغيره، ودرة الحجال ٢/ ١٨٣ من إنشاد محمد بن الكفيف بزيادة البيت الرابع.

(٣) الطالع السعيد ص ٤٥٢.

أبو الحسن هاشم بن قاسم بن هاشم الحجازيّ[١] :

قال: قرأت في كتاب قديم:

لَـوْلا التَّعَلُّـلُ بِـالقِـرْطَـاسِ وَالقَلَـمِ ... مَا كَانَ لِـي رَاحَةٌ فِـي الخَلْقِ مِنْ أَلَمِ

إِنَّ الحكيـمَ إذَا مَـا لَـمْ يَجِـدْ أَنَسـاً ... فَلَيْسَ يُؤْنِسُهُ شَيءٌ سِوَىٰ الحِكَمِ

* * *

عليٌّ بن عبد الله بن وَرْياش بن المبارك الوَهْراني[٢] :

اصْبَحْـتُ ـ وَالحَمْـدُ لِلـرَّحْمٰـنِ ـ مُنْفَـرِداً

عَـنْ كُـلِّ وَغْـدٍ مِـنَ الأقْـوَامِ شَتَّـامِ

ما لِـي أَنِيسٌ سِوَى أَنِّي امْرُؤٌ عَكَفَتْ ... نَفْسِـي عَلَى الكُتْبِ أيَّامِـي وَأَعْوَامِـي

أُومِـي إِلَيْهَا بِطَرْفِـي، وَهِيَ تُخْبِرُنِـي ... عَمَّـنْ تَقَـدَّمَ مِـنْ سَـامٍ وَمِـنْ حَـامِ

* * *

جورج صاند[٣] :

الكتاب هو المؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمعين عند الضرَّاء، والسِّلاح على الأعداء.

* * *

شيشارون[٤] :

الكتب غذاء الشباب وعزاء الشيخوخة. وهي في النعمة زينة، وفي

---

(١) معجم السفر ص ٤٢٣.

(٢) تراجم مغربية ص ٥٦.

(٣) كلمات من ذهب ص ٦٥٩.

(٤) أنيس الجليس ص ١٧، وأقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٤٦.

البؤس راحة. وهي في وحدة الليل أنس، وفي السفر رفقة، وفي عزلة الريف صحبة.

* * *

جميل صدقي الزهاوي[1]:

يا جهل أنت برغم العلم والأدبِ ... ممتع بعلو الجاه والرتب
يا جهل يأتيك عفواً ما تحاوله ... يا جهل من غير سعي منك أو تعب
لا شيء في الشرق أعلى منك منزلة ... يا جهل حسبك هذا العز من حسب
العلم يعجز عن إدراكِ بغيته ... وأنت تبلغ ما ترجوه من كثب
تأتي المحافل محفوفاً بتكرمة ... والعلم يرجع مطروداً إلى العقب
من أين للعلم أردان مزخرفة ... من أين للعلم أطواق من الذهب

*

قد أصبح الوطن المحبوب تربته ... ألعوبة في يد الأحداث والنُّوب
الحلم ثبطه عن ثأر واتره ... وما الحليم بمأمون على الغضب
ما أنقذ القوم نصحي من غوايتهم ... ولا أفادهم شعري ولا خطبي
إذا أقمتم فإن المال منتزع ... وإن رحلتم فإن النار في الطلب

*

يا باذلاً لولاة السوء ما ملكت ... يداه من كل موروث ومكتسب
من ذا يعولك والأيام محوجة ... إذا بقيت بلا مال ولا نشب
لا يرحم القوم من بانت مفاقره ... فبات في القوم مطوياً على سغب

*

(١) ديوان الزهاوي ص ٢٩٩، من قصيدة بعنوان «يا جهل»، قالها قبل صدور الدّستور العثماني.

يا عدل من لمروع بات مرتجفاً — وصارخ قد دعا بالويل والحرب
من ذا إذا ما استجار الخائفون به — يرد عن ذي حقوق كف مغتصب
يا عدل هل أنت في يوم معاودنا — فبعدك العيش لم يحسن ولم يطب

*

وقائل قد حرمت الجاه قلت له — ما الجاه في دولة الأوغاد من إربي
والجاه ليس بألقاب مفخمة — تهدى لمنغمس في الإثم منتهب
بل إنما الجاه في مجد تطول به — وإنما المجد كل المجد في الأدب
وإنما العز مشروح خلاصته — في متن أبيض ماضي الغرب ذي شطب
لا تقربن كثيراً من حكومتهم — فإن مكروبها أعدى من الجرب

*

ألا رعى الله أوطاناً لنا امتهنت — محبوبة السهل والوديان والكثب
قد أضرم الجور ناراً في مساكنها — وأهلها بين نفاخ ومحتطب
واعصوصب الشر حتى لا ترى أحداً — إلاَّ يئن من الأرزاء والنوب
لو ساعدتني الليالي سرت من وطني
إلى مكان بعيد منه منشعب
لا غرو إن فرّ حرّ خوف محنته — فكل ذي رهب يأوي إلى هرب
إني على الرغم مني ساكن بلداً — ما إن بها من أنيس لي سوى كتبي

* * *

أبو بكر الشيطان صاحب أبي بكر بن دُريد[1] :

إذ اعتللتُ فكتب العلم تشفيني — فيها نزاهة ألحاظي وتزييني
إذا اشتكيت إليها الهم من حزن — مالت إليَّ تعزيني وتسليني

* * *

---

(١) تقييد العلم ص ١٤٣ .

أيدمر بن عبد الله المحيوي[1] :

حللتُ نفسي من عقال الهموم بعقديَ الطرف بكتب العلومْ
لمّا رأيتُ الحظّ بي قاعداً قعدتُ أستأنيه حتى يقومْ

* * *

الحسن بن عبد الله ابن أبي السرور[2] :

قال ابن أبي مخرمة: وجدتُ بخطّ بعض العلماء الفضلاء الموثوقِ بهم: أنّ الفقيه الحسن بن عبد الله بن أبي السُرور صاحب الحَلْبُوبي، شرب يوماً شربة إسهالٍ ثم تهيّأ للخروج وقد أحسّ بحركة الباطن.

فأخبره عبدُه إنّ الأمير ورعيّةَ لَحْج وصلوا، فخرج إليهم الفقيه ولم يُدْخِلْهم البيتَ لِئَلاّ يطولَ وقوفُهم، من أجلِ ما يُحِسّه من حركة الباطن، فوقف معهم واستغرق الكلامَ فيما جاءوا بصَدده حتّى كادتِ الشمس تزول، ورفع الله منه تلك الحركة في الباطن ثمَّ انصرفوا عنه. ودخل الفقيه فسمع قائلاً يقول: هذا واللّهِ المستريح دخل بيتَه وترك الناس، فوقعتْ عنده هذه الكلمة موقِعاً، فأخذ القلم وكتب هذه الأبيات على وفق حاله:

حُسِدْتُ عَلَى حالِي وإنّي لَضائِقٌ بِما أَنا مَحْسُودٌ بِهِ جَرِحُ الصَّدْرِ
وما أَنَا بالرّاضِي وَلَوْ مَلَكَتْ يَدِي ممالِكَ أَهْلِ الأَرْضِ في البَرِّ والبَحْرِ
إذا لَمْ تَكُنْ نَفْسِي عَلَى كُلِّ حالَةٍ مُطاوِعَةً لِلَّهِ فِي النَّهْيِ والأَمْرِ
وخِدْني كِتابٌ لا يَزالُ مَضاجِعِي مَنازِلَهُ ما بَيْنَ حِجْرِي إِلَى صَدْرِي
وبَيْنَ بَنانِي أَسْمَرُ اللَّوْنِ أَعْجَمٌ فَصِيحٌ إذا لَمَّظْتُهُ بِدَمِ الحِبْرِ

---

(١) المقفى ٢/ ٣٥٧.

(٢) تاريخ ثغر عدن ص ٥١.

لهُ في حَواشِي الكُتْبِ ما شِئْتُ مِنْ هَوًى
وما شِئْتُ مِنْ عِلْمٍ وما شِئْتُ مِنْ سِحْرِ

* * *

شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل بن عساكر الكناني العسقلاني[1]:

قال عنه شهاب الدِّين البوتيجي الكتبي: كان جمّاعة للكتب، خلَّف ثمانية عشر خزانة كتباً نفائس أدبية، وكانت زوجته تعرف ثمن كل كتاب، وبقيت تبيع منها إلى أن خرجت من القاهرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة. وكان إذا لمس الكتاب وجسَّه قال: هذا الكتاب الفلاني وهو لي ملكته في الوقت الفلاني. وكان إذا أراد أيَّ مجلَّدٍ كان قام إلى خزانةٍ وتناوله منها كأنه الآنَ وضعه هناك بيده.

وله وقد ليم على الاستكثار من شراء الكُتُب:

وما شغفي بالكُتب إلَّا لأنّها ... تسامرني من غير غيّ ولا ضجر
وأحسن من ذا أنّها في صحابتي ... تجنّب تكليفي وتقنع بالنظرِ

* * *

أبو مروان عبد الملك بن زهر الطَّبني[2]:

أنشد ابن أبي مروان الطَّبني لأبيه عبد الملك بن زيادة الله، يذكر كتاب العين، وبغلة له سماها النعامة:

حَسْبي كتاب العَيْن عِلْق مِضِنَّة ... ومن النَّعامة لا أريدُ بَديلَا

(١) تاريخ حوادث الزمان ١/ ٤٢٨، والوافي ١٦/ ٧٨، ومطالع البدور ٢/ ١٧٣.
(٢) المكتبة الأندلسية ٢/ ٥٢٩.

هٰـذي تقَـرّبُ كـل بعـدٍ شـاسـع وَالعَيـن يُهْـدي للعقـول عُقـولاَ

* * *

ابن قلاقس[١] :

أنشد يصف كتاباً مجلداً وقد سئل في ذلك ارتجالاً :

ومسامرٍ تُسْليكَ عن سِنَةِ الكرى ألفـاظُـهُ فـالليـلُ منـه نهـارُ
تَثْني المسامع عن سَمَاع حديثِهِ صُمّـاً فتَسْمَـعُ ذلـكَ الأَبصـارُ
ويهُـزُّ أغصـانَ القـدودِ كـأنّـهُ كـأسٌ عليهـا للمُـدَام تُـدارُ
إن أَشْكلـتْ يـومـاً عليـكَ قضيـةٌ فـاسـألـهُ تَحْـظَ فعنـدَهُ الأخبـارُ
لا شـيءَ أَنصـفُ منـه تُظْهِـرُ سرَّهُ أبـداً وتخفَـىٰ عنـدَهُ الأسـرارُ

* * *

صاحب منتخب تاريخ ابن خلكان[٢] :

نقل عنه أنّه قال ــ بعدما ذكر كيفية تلخيصه لعباراته الرائقة ــ : ليكون ذلك كالمسلي في أسفاري، وكالمحدث إذا مل سماري، وكالمذكر بـي في تنزهاتي، وكالواعظ لي في خلواتي بالنظر إلى ما جرى للقرون السالفات، وكالقهوة أديرها على سقاتي، وأستغني بها عن باسقاتي، ولله درّي إذْ قلت في ذلك :

لله درّ سـميـر يَـأْتِ يُـنشـدنـي شعرَ الأوائل من بدوٍ ومن حضر
بـلا لسـانٍ ولا الآذان تسمعـه حتـى جعلـتُ مقـام الأذن للبصـر

* * *

---

(١) ديوان ابن قلاقس ص ٤٣٨ .

(٢) روضات الجنات ١/ ١٣ .

عبد الله الطيّب[1] :

وَرُحْتُ أَطْلُبُ في الماضين تَسْلِيَةً ... تُـرِيـحُ سَـرْحَ مُنًـى أُعْـزِبْـنَ إعـزابـا
أَتلــو سبيلهــمُ فــي كُــلِّ مُسْتَطَـرٍ ... لا يملك المرءُ عنه الطرفَ إعجابا
كــأَنَّ فيــه جنــانــاً بينهــا سُعُــدٌ ... يَسْتَـنُّ فيهـا رحيـقُ الْخُلْـد منسـابـا

* * *

شاعر[2] :

لم يبق شيءٌ منَ الدنيا تسر بهِ ... إلاَّ الـدفـاتـرَ فيهـا الشعـر والسمـر
مات الذين لهم فضل ومكرمة ... وفي الدفاتر من إحسانهم أثر

* * *

توماس أ. كيمبس[3] :

لقد نشدت الراحة في كل مكان ولم أجدها إلاَّ في الجلوس بعيداً في ركن مع كتاب صغير.

* * *

أنطوني ترولوب[4] :

عادة المطالعة هي المتعة الوحيدة التي لا زيف فيها. إنها تدوم عندما تتلاشى كل المتع الأخرى.

* * *

---

(١) أصداء النيل ص ١٨٧.

(٢) عين الأدب والسياسة ص ٢٤٨، والأول في الغيث المسجم ١/ ١٢.

(٣) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٥٢.

(٤) من حصاد الفكر العالمي ص ٦٦.

جيمس شِيرْلي[1] :

لَمْ أَعْرِفْ في حَيَاتي سَاعَاتٍ أَحْلَى وَأَسْعَدَ مِنْ تِلْكَ الّتي قَضَيْتُها بَيْنَ كُتُبِـي.

* * *

جوس مارتي[2] :

الكتب تضمد الجراح التي تحفرها السيوف.

* * *

الشاعر ملتون[3] :

كنت أجذب إلى المطالعة حتى إن تسلية أخرى لم تكن تجد لدي ترحيباً أفضل.

* * *

مونتسكيو[4] :

حُبُّ المُطَالَعَةِ هو اسْتِبْدَالُ ساعاتِ السَّأَمِ بِسَاعاتٍ مِنَ المُتْعَةِ.

* * *

مونتسكيو[5] :

ما أصابني ألم أو نزلت بـي ضائقة إلاَّ خففت من هذا وفرجت من هذه بقراءة ساعة في كتاب طيّب.

* * *

---

(١) كنوز الحكمة ص ٤٦٠.

(٢) أنيس الجليس ص ١٨.

(٣) من حصاد الفكر العالمي ص ٦٥، ٦٦.

(٤) من حصاد الفكر العالمي ص ٦٥، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥١٠.

(٥) أنيس الجليس ص ١٧.

سير آرثر كيت[١] :

عندما أكون في ضائقة من الحياة، أنا أنشد الراحة في الكتب، وأفتش عن لمحة للبشرية على أحسن تقدير.

* * *

محمد بن أبي محمد اليزيدي[٢] :

نعْمَ المحدِّثُ والنديمُ كتابُ ... تلهو به إن ملَّكَ الأحبابُ

لا مفشياً سِرّاً إذا استودعْتَهُ ... وَلَدَيْهِ ما تُحيىٰ به الألبابُ

لا عيبَ فيه غير أنَّ ندامَهُ ... لا أكلَ فيه وليس ثَمَّ شرابُ

* * *

جعفر بن محمد الخُلدي[٣] :

نعم النديم إذا خلوتَ كتاب ... إن خانك الندماء والأصحاب

فأبحه سرك قد أمنت لسانه ... أو أن يغيبك عنده مغتاب

وإذا هفوت أمنت غرب لسانه ... إن العتاب من النديم عذاب

* * *

عبد الرحمن العطويّ[٤] :

أخطب لكأسك نَدماناً تُسَرُّ به ... أو لا فنادم عليها حكمةَ الكتبِ

---

(١) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٥٤.

(٢) شعر اليزيديين ص ٩٦، ونور القبس ص ٨٩، وبدون نسبة، وبرواية عجز البيت الثاني «وَتُفاد منه حِكْمَةٌ وَصَوَابُ» في العقد الفريد ٢/ ٢١٠ و ٤/ ٢٠١، والمحاسن والمساوىء ص ١٦، والجليس الصالح ١/ ١٦٣، وتقييد العلم ص ١٢٠، وجامع بيان العلم ص ٥٨٢، والحماسة الشجرية ٢/ ٨٠٠.

(٣) تقييد العلم ص ١٢١.

(٤) نهاية الأرب ٤/ ١٢٤ و ١٥١، والبيت الأول في المختار من قطب السرور =

أخطبه حرّاً كريماً ذا محافظة ترى مودّته من أقرب النسب

* * *

شاعر[1] :

إذا جفاني مألوف ومصطحب نادمت كتبي فنادمتُ الأُلى ذهبوا

* * *

الوزير أبو القاسم محمد بن عبد الغفور[2] :

تَرَكْتُ التَّصابي للصَّوابِ وأَهْلِهِ وبيضُ الطُّلَى للبيضِ، والسُّمْرُ للسُّمْرِ

مِدَادي مُدَامي؛ والكؤوسُ مَحَابري ونَدْمايَ أَقْلامي ومَنْقَلَتي سَفْري

وَمُسْمِعَتي وَرْقَاءُ ضَنَّتْ بِحُسْنِهَا فأَسْدَلَتِ الأَسْتَارَ مِنْ وَرَقٍ خُضْرِ

* * *

من كتاب بستان الحكماء[3] :

قيل: إن المودة أوكد الأسباب، والعلم أشرف الأنساب، وحسن الخلق خير قرين، والكتاب نعم النديم.

* * *

أبو محمد عبد الحميد بن عبد الرحيم التوزي[4] :

قال: الكتاب نديم، عهد وفائه قديم.

= ص ٣٥٧، ومحاضرات الأدباء ١/ ٦٩٧، وقطب السرور ص ٢٩٧، ودون نسبة في فصول التماثيل ص ٣٠.

(١) فصول التماثيل ص ٣١.

(٢) قلائد العقيان ١/ ٤٨٤، ومطمح الأنفس ص ٢٢٠، وخريدة القصر (المغرب) ٣/ ٤٣٧، والوافي ٣/ ٢٦٦، ونفح الطيب ٣/ ٥٥٢.

(٣) فصول التماثيل ص ٣٠.

(٤) تقييد العلم ص ١٢٥.

الكتاب منادم، ليس من نادمه بنادم.

الكتاب حميم، خيره عميم.

الكتاب أَخ غير خوّان، فتفرد به عن الإخوان.

الكتاب سمير، سليم الظاهر والضمير.

* * *

بعض الرؤساء[1]:

تأخر عن بعض الرؤساء نديم له فقال: يا غلام! عليّ بالنديم الذي لا يتغير ولا يتغيب، قال: من هو؟ قال: الكتاب.

وقيل لآخر: أَلا تنادم فلاناً؟ فقال: قد نادمت من لا يتكلف لي، ولا أَتكلف له، قيل: ومن هو؟ قال: الكتاب.

* * *

أبو زيد الدبوسي[2]:

إذا ما خلا الناس في دورهم ... بزهر النّدامى وعز الصحاب

وَأكل الطعام وشرب المُدام ... وتمّ السّرور بخودٍ كعاب

خلوت وصحبي كتب العلوم ... فكان الأنيس لقلبي كتابي

ودرس العلوم شراب العقول ... فطوفوا عليّ بذاك الشراب

ومن كان في دهره جامعاً ... سوى العلم جمعه للذهاب

* * *

---

(١) تقييد العلم ص ١٢٥.

(٢) مطالع البدور ٢/ ١٧٢، وفي سراج الملوك ص ٥٧٩ هي لبعض الأعاجم واختلاف في الألفاظ.

عبدُ الله بن علي الهُتَاري[1] :

أنـا فـي عيْشٍ هنـيّ خـامِـلٌ ... قـط لا أذكـر فيمـن قـد ذُكِـر
ونـديمي مـن كتـابـي حـاضـرٌ ... أتمشـى منـه فـي روضٍ مُطـر
قـط لا أسـال عـن هـذا وذا ... إذ نَهـى هـذا وهـذا قـد أمـر
فـالتـزم مـن مَـذْهبـي سمتـاً بـه ... ركـن لـذَّاتـي جميعـاً قـد عُمـر
وأطـرح صفقـة مغبـونٍ لـه ... متجـرٌ فيـه لـه الـويـل حسـر
قـد بـذلـت النصح فـاقبلـه فمن ... قِبـل النصـح فبـالخيـر ظفِـر

* * *

أبو محمد الجابري[2] :

نعـم المسـامـر والنـديـم الـدفتـر ... إن ضـاق صـدرك أو عـلاك تفكـر
يُلهي ويؤنس، وهو خِل، كلما ... أُبـدي بحضـرتـه فَغيـب مُضمَـر

* * *

أنشـد أبـو الحسـن علـيّ بـن هـارون بـن يحيـى النّـديـم، رحمه الله[3] :

إذا مَـا خَلَـوْتُ مِـنَ المُـؤنِسيـنَ ... جَعَلْـتُ المُحـدِّثَ لـي دفْتـري
فَلَـمْ أخْـلُ مـن شـاعـرٍ محسِـنٍ ... وَمِـنْ مُضْحِـكٍ طيّـبٍ مُنْـدِرِ
ومِـنْ حِكَـمٍ بَيْـنَ أثْنَـائِهَـا ... فَـوَائِـدُ للنّـاظِـرِ المُفْكِـرِ

---

(١) طيب السّمر ص ٣٦٨، ونشر العرف ٢/ ١٢٨.

(٢) تقييد العلم ص ١٢٩.

(٣) المحاسن والمساوىء ص ١٦، وبلا عزو في تقييد العلم ص ١٢٨، وسراج الملوك ص ٥٧٩، وغرر الخصائص ص ٤٦٦، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٣٠.

وَإنْ ضَـاقَ صَـدْرِي بِـأَسْـرَارِهِ وَأوْدَعْتُـهُ السّـرّ لَـمْ يُظْهِـرِ
وإنْ صَرّحَ الشِّعْرُ باسم الحبيبِ لمَـا اخْتَشَيْـتُ وَلَـمْ أحْصَـرِ
وإنْ عُـذتُ مـن ضُجـرَةٍ بـالهِجاءِ وَلَـوْ فـي الخَلِيفـةِ لـم أحْـذَرِ
فنَـادَيْـتُ منْـه كـريـمَ المَغيـبِ لِنَـدْمـانِـهِ طَيّـبَ المَحْضَـرِ
فَلَسْـتُ أرَى مُـؤثِـراً مـا حَيِيـتُ عَلَيْـهِ نَـدِيمـاً إلـى المَحْشَـرِ

* * *

قال أبو هفّان[1]:

إذا آنَـسَ النَّـاس مَـا يَجْمعـونَ أنِسْـتُ بمـا يجْمَـعُ الـدّفْتَـرُ
لَـهُ وَطَـري وَلَـهُ لَـذّتـي عَلـى الكـأس والكـأسُ لا تَحْضُـرُ
تَـدُورُ عَلـى الشَّـرْبِ مَحْمـودةً لهـا المَـوْرِدُ الخِـرْقُ وَالمَصْـدَرُ
يُغَنّيهِـمُ سَـاحِـرُ المُقْلَتَيْـنِ كَشمْـس الضّحى طَـرْفُـهُ أحْـوَرُ
وَرَيْحـانُهُـم طِيـبُ أخـلاقِهِـم وَعِنـدَهُـمُ الـوَرْدُ والعَبْهَـرُ
عَلـى أنّ هِمّتَنَـا فـي الحُـرُوبِ فَتِلْـكَ الصّنَـاعَـةُ وَالمَتْجَـرُ

قال: لما قلتُها عرضتُها على ابن دِهقان فقال: إذا سمع بها الخليفة استغنى عن الندماء.

* * *

شاعر[2]:

أنسـتُ إلـى التفـردّ طـولَ عمـري فمـا لـي فـي البـريَّـة مـن أنيـسِ
جعلـت محـادثـي ونـديـمَ نفسـي وأنسـي دفتـري بـدل الجليـسِ
قـد استغنيـتُ عـن فـرسٍ بـرجلـي إذا سـافـرت، أو بَغـلٍ كبـوسِ

---

(١) المحاسن والمساوىء ص ١٦.

(٢) تقييد العلم ص ١٤٤، وسراج الملوك ص ٥٨٠، والمخلاة ص ١٠١.

ولـي عـرسٌ جـديـد كـلَّ يـوم		بطـرح الهـم فـي أمـر العـروسِ
فبطني سُفرتي والخرج جسمي		وهِمْيَـانـي فمـي أبـداً وكيسـي
وبيتـي حيـن يُـدركنـي مسـائـي		وأهلـي كـلّ ذي عقـل نفيـسِ

* * *

عبد الصمد بن علي الطبري[1] :

ولقـد أَلِفـتُ فنـاءَ بَيتـي لابسـاً		حُلَلَ الغِنى إلفَ القَطا أُفْحُوصا
لـم أَدّرع طَمَعـاً ولا أمـدُدْ يـداً		نحـو اللئـامِ ولا زَجَـرْتُ قَلـوصـا
أَجتابُ إِن خَصَرَتْ أَناملُ راحتي		مـن نَسْـجِ دِنِّـي جُبَّـةً وقَميصـا
وإذا أردتُ منـادِمـاً لـم تَلْفنـي		إلّا علـى غُـرِّ العلـومِ حَـريصـا
فترى الكتابَ مُجالساً لي مُودعاً		سَمْعي فُصُـولاً تبتغـي وفُصـوصـا
لا مفشيـاً سـرّي ولا متنمّـراً		جهـم اللّقـاء ولا علـيّ خـروصـا

أبو النصر الهزيمي المعافى بن هزيم الأبيوردي[2] :

لمَّـا رأيـتُ الـزمـانَ نكسـاً		وليـس فـي الصحبـة انتفـاعُ

---

(1) يتيمة الدهر ٥/ ١٩١، وما عدا البيت الأخير في خاص الخاص ص ٢١٧، وتقييد العلم ص ١٤٤ .

(2) الأبيات للهزيمي في العزلة ص ٩١، ويتيمة الدهر ٤/ ١٥١، وخاص الخاص ص ١٨٠، والإعجاز والإيجاز ص ٤٢٩، ولباب الآداب ص ٢١٠، وحماسة الظرفاء ١/ ٢٩٨، والذخيرة ٤/ ٧١٣، وأنوار الربيع ٤/ ١٩١، وعزاها لمحمد الفارابي عيون الأنباء ص ٦٠٧، والوافي ١/ ١١٣، ومطالع البدور ١/ ١٨٤ و ٢/ ١٧٣، وعزاها لعبد الله بن محمد الزوزني في الوافي ١٧/ ٥٣٢، وفوات الوفيات ٢/ ٢٣٠، وموسوعة الكنايات ٢/ ٩٠، ودون نسبة في الذخيرة ٨/ ٥٦٨، والمنازل والديار ص ٢٥١، والمقاصد الحسنة ص ٣٩١، وكشف الخفاء ١/ ٥٥٢، والبيت الأخير انفرد به خاص الخاص ص ١٨٠ .

كــلّ رئيــس بــه مَــلالُ وكــل رأسٍ بــه صُــداعُ
وكــلُ نــذلٍ بــه ارتفــاعُ وكــل حُــرٍّ بــه اتّضــاعُ
لــزمــتُ بيتــي وصنـتُ عـرضـاً بــه عــن الـذلــةِ امتنـاعُ
أشــربُ ممــا ادخّـرتُ راحــاً لهــا علــى راحتــي شُعــاعُ
لــي مــن قــواريـرهـا نـدامـى ومــن قــراقيــرهــا سَمـاعُ
وأجتنــي مــن ثمــارِ قــومِ قــد أقفــرتْ منهــم البِقــاعُ
بِشــرٌ وكعــبٌ أمــامَ عينــي هــذا يَغُــوثٌ وذا سُــواعُ

* * *

ابن المعتز[1] :

إذا جفــانــيَ نَـدْمـان ومـؤتلـف نادمت كتبي فشاهدت الأُلى سلفوا
وكـانـت الـراح أيضـاً لـي منـادمـة نعم النديمان صفو الراح والصحفُ
الراح تطرب نفسي حين أَشربها والكتب يؤمن منها الزهو والصلف

* * *

أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي[2] :

ليس لي منجدٌ على ما أقاسي من كروبي سوى العليم السميع
دَفْتَري مُؤْنِسي وفكري سميري ويدِي خادمي وَحِلْمي ضجيعي
ولساني سَيْفي وبطشي قريضي وَدَواتي غيثي ودرْجي ربيعي
أتعــاطــى شجــاعــةً أدَّعيهــا فـي القـوافـي لقلبِـيَ المصـدوع
بمقــالٍ أعــزَّ مــن ليــث غــابٍ وفعــالٍ أذلّ مــن يــربــوع

---

(١) تقييد العلم ص ١٢٤ .

(٢) يتيمة الدهر ٢/٣٤٦، والأبيات ٢ و ٣ في معاهد التنصيص ٢/ ٧٤ من قصيدة في الاستتار.

كلمـا هــرَّ فــي جـواري هــرٌّ كـاد يقضـي إلـى فـؤادي المـروع
وإذا اجتـاز فـي السطـوح فمـن قبـل قبـوع الجـرذان منـه قبـوعـي

* * *

أبو محمد الخازن[1]:

فـدفتـري رَوضتـي ومحبـرَتـي غـديرُ عِلمي وصـارِمـي قَلَمِـي
وَراحتـي فِـي قَـرَار صَـوْمَعَتِـي تُعْلمنـي كيـفَ مـوقـعُ القسـم

* * *

كثير العلياوي[2]:

لَيسَ المُـدَامَـةُ ممـا أَستريـحُ لـهُ ولا مُجَـاوَبَـةُ الأَوتـار والنَّغَـم
وإنمـا لـذَّتـي كُتْـبٌ أطـالعهـا وصارمي أبداً في نُصْرتِي قَلَمي

* * *

محمد بن عمر العرضي[3]:

دواتي كاسي والكتاب حديقتي وساقي مدام الفكر قام على قدَمْ
صرير يـراعـي مطربـي فكأنمـا سطوريَ أوتـار ومضاربهـا القلَمْ

* * *

محمد بن علي عبد الله الصوري[4]:

قيمـة الكتـب أَجـلّ القيـم عنـد مـن يعـرف رضْـعَ الكلِـمِ

---

(١) محاضرات الأدباء ١/ ١١٧، ومعاهد التنصيص ٢/ ٧٤.
(٢) المغرب في حلي المغرب ١/ ٣٩٩، واختصار القدح ص ١٨٩، ونفح الطيب ٣/ ٣٢٥ ونسبتها لأحمد بن رضي المالقي.
(٣) خلاص الأثر ٤/ ١٠٢، وأعلام النبلاء ٦/ ٣١٤.
(٤) تقييد العلم ص ١٣١، وتاريخ دمشق ٥٤/ ٣٧٤.

جمعت من كل فن حسن ... وغريب من ضروب الحكم
بين منظوم بديع نظمه ... حاكه كل أَديبٍ فهمِ
ثم يتلو النظم نثر مشبه ... زَهَرَ الروض عقيب الديمِ
فإذا ما نطقت في مجلس ... تركت أَفصحنا كالأَعجمِ
فلنا منها جليس ممتع ... ليس بالعي ولا بالمُفحَمِ
ناظم طوراً وطوراً ناثر ... حِكماً فيها لقاح الفَهَمِ
نحن منه في سرورٍ لا كَمَنْ ... هو من جلاسه في مأتمِ
يكتم السر إِذا بحنا به ... في سويداه ولم يستكتمِ
وإذا الندمان يوماً سئموا ... مجلساً لم تُلفه بالسَّئِمِ
فاحفظ الكتب ففي بذلكِها ... نَدَم ما شئت كل الندم

* * *

أبو عبد الله بن عبد الرحمن[1]:

كتابي فيه بستاني وراحي ... ومنه سمير نفسي والنديمُ
يُسالمني وكلّ الناس حرْبٌ ... ويسلّيني إذا عرتِ الهمومُ
ويحْيي لي تصفّح صَفحتيهِ ... كرامَ الناس إذا فقد الكريمُ
إذا اعوج عليّ طريق أمْري ... فلي فيه طريق مسْتقيمُ

* * *

صفي الدِّين الحلِّي[2]:

وأطيب أوقاتي من الدهر خلوة ... يَقِرُّ بها قلبي ويصفو بها ذهني
ويأخذني من سَورة الفكر نشوة ... فأخرج من فنٍّ وأدخل في فنِّ

---

(١) محاضرة الأبرار ١/ ١٠.

(٢) ديوان صفي الدين ص ٦٦٧، وبلا عزو في المخلاة ص ٥٩.

ويفهم ما قد قال عقلي تصوّري ... فنقليَ عن أذني وسمعي بها منّي
وأسمع من نجوى الدفاتر طرفةً ... أزيل بها همي وأجلو بها حزني
ينادمني قومٌ لديَّ حديثهم ... فما غاب منهم غير شخصهمِ عنّي

* * *

القاضي أبو الفَتْح نصر بن سيّار الهروي[1]:

ما ترى الدَّهرَ صانعاً بِيَ إنْ لَمْ ... أَسْتَكِنْ للِّئامِ في ذا الزَّمانِ
قَدْ رَضِينا من قُوتِنا بِقَفارٍ ... وبِشُربٍ على كتاب الأَغاني
سَقِّياني كأْساً وهاتا كِتاباً ... أَتَسَلَّى به عن النّدْمانِ

* * *

أبو عبد الله محمد بن حامد[2]:

غدا دفتري أنساً وخطِّي روضةً ... وحبري مداماً وارتجالي ساقيا
ولا شدو لي إلاَّ التحفّظ قارئاً ... ولا سكر إلاَّ حين أنشد واعيا
تجشّم أوصافاً حساناً لعبده ... فطوّقه عقداً من العزِّ حاليا
فلولا امتثال الأمر لا زال عالياً ... لطار مكان النظم رجلان حافيا
على أنّني إن سرتُ أو كنت قاطناً ... فغاية جهدي أن أطوِّل داعيا
رسائله لي كالطعام وشعره ... كماء زلالٍ حين أصبح صاديا
فإن ظلّتِ الآمال تشكر ظلَّه ... فإنَّ لسان المال قد ظلّ شاكيا
كأنَّ إله الخلق قال لجوده ... أفضْ كلَّ ما تحويه وارزق عباديا

* * *

---

(١) طرائف الطرف ص ٩٢.

(٢) يتيمة الدهر ٤/ ٢٨٧، والمحمدون من الشعراء ص ٣٢١ من قصيدة في الصاحب بن عبّاد.

الشيخ عبد الغني النابلسي[1]:

ما الناس إلاَّ ذئاب ... تستروا بالثياب
فخلهمُ وتخلى ... للعلم والآداب
واجعل نديمك في كل ... محفل مستطاب
كتاب علم نفيس ... تهدي به للصواب
لا مفشياً لك سـ ... ـراً ولا مذيع خطاب
واترك التسلم ما ... عشت خلة الأحباب

* * *

عبد القادر شنون[2]:

كتابي لا أروم سوى كتابي ... فكم خففت فيه هموم ما بي
أجيل الطرف فيه فيجتلي لي ... مخائل حكمة في كل باب
إذا غمزت قناة الدهر قلبي ... أداوي في مباحثه مصابي
لأن أخطأت في فكري ببحث ... ففيه قد هديت إلى صوابي
وإن شاهدت من قومي جفاء ... يسليني بأقوال عذاب

ثم يقول:

تراه أخرساً وتراه يحكي ... بأبلغ ما تريد من الخطاب
كتوم إن بثثت إليه سراً ... وإن حابيت غيرك لا يحابي
فكم نادمته بالليل وحدي ... فيغنيني عن الخود الكعاب
وكم فيه سكرت من المعاني ... فعفت لطيبها طيب الشراب
تكفل بالعلوم فكل علم ... حواه لا يؤول إلى ذهاب

---

(١) نفحة اليمن ص ٢٤٣.

(٢) من شعرائنا المنسيِّين ص ٣٢.

فمـا حـاسبتـه إلاَّ تـراه خبيراً بـالـدقيـق مـن الحسـاب

فمـن والاه نـال هـدى وفضـلاً ومـن عـاداه راح إلـى عـذاب

* * *

عبد الحميد الأزري[1]:

ليـتَ ابـنَ آدمَ كـالثِّمـا رِ فـلا يَميـنُ ولا يُحـابـي

ثمـرٌ يقـولُ: دَعـوا القُشـورَ وعـاينُـونـي فـي لُبـابـي

هـو بـاطِنـي وسـريـرَتـي لـم يُخـفِ عنكـم كـلَّ عـابِ

ســرُّ الثّمـارِ لُبـابُهـا كـالـدُّرِّ مـن سِـرِّ العُبـابِ

كنتُـم مـلائكـةَ السَّمـا لـو كـانَ دأبُكـم كَـدابـي

فكـأنَّ ألسُـنَ حـالِهـا تُـوحـي لنـا فصـلَ الخِطـابِ

يـا للْعجَـائـبِ صـامِـتٌ يَـدعـو العقُـولَ إلـى الصَّـوابِ

*

طفـتُ الكثيـرَ مـن المَـدا ئـنِ والمجَـامـعِ والقِبـابِ

ولهـا تجشَّمـتُ المسيـرَ مـن السُّهـولِ إلـى الهِضـابِ

ودرسـتُ آلامَ الشُّيـوخِ بهـا وآمـالَ الشَّبـابِ

وكمـا رَحلـتُ قفَلْـتُ مِنـ ـهـا خـائبـاً صِفـرَ الـوِطـابِ

مـن كـلِّ مـا علَّلـتُ نَفسـي فيـه مِـن قَبـلِ اغْتِـرابـي

*

مـا فـي التُّـرابِ فَضيلـةٌ والنـاسُ مـن هـذا التُّـرابِ

أيـن الفَضيلـةُ والحَيـاةُ مَسُـوقـةٌ بِنظـامِ غـابِ؟

وهيـاكـلٌ لـم يَبـقَ لـو جـرَّدْتَهـا غيـرُ الثيـابِ

---

(١) ديوان الأزري ص ٤٢، قصيدة بعنوان «واحة الإيمان».

وجَـــوارحٌ مـــن ألْسُــنٍ طُـويَـتْ عَلَـى ظُفْـرٍ ونـابِ
حكــمُ الغَــريــزةِ واحــدٌ فــي وِلــدِ آدمَ والـذِّئـابِ
بـلْ ربَّمـا فـاقُـوا الـذِّئـابَ بمـا جَنـوا خَلـفَ الحِجَـابِ

*

أمُعَلِّلـي بـوجُـودِهـا تعليـلَ صـادٍ فـي سَـرابِ
دَعْ طَـوفَ حلمِـكَ لـو وَهَـى وتَعِبْـتَ مـن نَفـخِ الجِـرابِ
كـم مـن سُـؤالٍ فـي الحيـاةِ رجعـتُ عنـه بِـلا جـوابِ

*

فلـذاكَ قلـتُ لِعُـزلَتـي فـرحـاً بهـا بعـدَ الإيـاب:
يـا واحـةَ الإيمـانِ فـي صَحـراءِ شـكٍّ وارتيـابِ
أجِـدُ السَّكينـةَ فيـكِ تَغْـ ـمُـرنـي فيبتعِـدُ اضْطِـرابـي
وأُحِـسُّ فيـكِ بِـراحَـةٍ كُبْـرى إذا أوْصَـدْتُ بـابـي
يَحلُـو لنَفْسـي الصَّبـرُ فيـ ـكِ على تَجـرُّعِ كـلِّ صـابِ
أنْسَـى بـكِ الـدُّنيـا ومـا عـانَيْـتُ فيهـا مِـن مُصـابِ
وكـأنَّ ألْـوِيـةَ السَّـلام يحُطْـنَ بـي وَسَـطَ الحِـرابِ
وإذا سـألـتُ بـكِ الإلـهَ شَعَـرتُ فـي ردِّ الجَـوابِ
حَسْبـي يـراعـي سـاقِيـاً ومـدادُ مِحبـرَتـي شَـرابـي
وأنـا الَّـذي لـم يبـقَ لـي إلَّا منـادَمـةُ الكِتـابِ

* * *

محمود بن حسين كشاجم:

قال يصف محبرة وأقلاماً ومقلمة وسكيناً[1]:

حَسْبِي مِنَ اللَّهْوِ وَآلَاتِ الطَّرَبْ وَمِـن ثَـرَاءٍ وَعَتَـادٍ وَنَشَـبْ

---

(١) ديوان كشاجم ص ١٣، وزهر الآداب ٢/ ٥٦٣.

وَمِـنْ مُـدَامٍ وَمَثَـانٍ تَصْطَخِـبْ وَهِمَّـةٍ طَـامِحَـةٍ إِلَـى الـرُّتَـبْ
مَجَـالِسٌ مَصُـونَـةٌ عَـنِ الـرِّيَـبْ مَعْمُـورَةٌ مِـنْ كُـلِّ عِلْـمٍ يُطَّلَـبْ
تَكَـادُ مِـنْ حَرِّ الْحَـدِيْثِ تَلْتَهِبْ شِعْـراً وَأَخْبَـاراً وَنَحْـواً يُقْتَضَـبْ
وَلُغَــةً تَجْمَـعُ أَلْفَـاظَ الْعَـرَبْ وَفِقَراً كَالْوَعْدِ فِـي قَلْبِ الْمُحِبْ
أَوْ كَتَـأَتِّـي الـرِّزْقِ مِنْ غَيْـرِ طَلَـبْ نَعَـمْ وَحَسْبِـي مِـنْ دُوِيٍّ تُنْتَخَـبْ
مُحَلَّيَــاتٍ بِلُجَيْــنٍ وَذَهَــبْ مِحْبَـرَةٌ يُـزْهَـى بِهَـا الْحِبْـرُ الأَلَـبْ
مَثْقُـوبَـةٌ آذَانُهَـا وَفِـي الثُّقَـبْ مِثْلُ شُنُوفِ الْخُرَّدِ الْبِيضِ الْعُرُبْ
تَضْمَـنُ قَطْـراً فِيْـهِ لِلْكُتْـبِ عُشُـبْ أَسْـوَدُ يَجْـرِي بِمَعَـانٍ كَـالشُّهُـبْ
لاَ تَنْضُـبُ الْحِكْمَـةُ إِلاَّ إِنْ نَضَـبْ نِيطَـتْ إِلَـى يُسْـرَى يَـدَيَّ بِسَبَـبْ
كَالْقُرْطِ فِـي الجِيْدِ تَدَلَّى وَاضْطَرَبْ تَصْحَبُهَـا وَالأَخَـوَاتُ تُصْطَحَـبْ
كِنَـانَـةٌ تُـودَعُ نَبْـلاً مِـنْ قَصَـبْ لَمْ يَعْلُهَا رِيْشٌ وَلَمْ تُكْسَ عَقَبْ
لاَ تَضْحَكُ الأَوْرَاقُ حَتَّى تَنْتَحِبْ تَرْمِي بِهَا يُمْنَايَ أَغْرَاضَ الْكُتُبْ
رَمْياً مَتَى أَقْصِدْ بِهِ السَّمْتَ أُصِبْ وَمُدْيَةٌ كَالْعَضْبِ مَا مَسَّ قَضَبْ
غَضْبَى على الأَقْلاَمِ مِنْ غَيْرِ سَبَبْ تَسْطُـو بِهَا فِـي كُـلِّ حِيْـنٍ وَتَثِبْ
وَإِنَّمَا تُرْضِيْكَ فِي ذَاكَ الْغَضَبْ فَتِلْـكَ آلاتِـي وَآلاتِـي تُحَـبْ
وَالظَّرْفُ فِـي الآلاتِ شَيْءٌ يُسْتَحَبْ لاَ سِيَّمَـا مَـا كَـانَ مِنْهَـا لِـلأَدَبْ

* * *

وله أيضاً[1] :

عَجَبِـي مِمَّـنْ تَعَـالَـتْ حَـالُـهُ وَكَفَــاهُ اللَّــهُ ذِلاَّتِ الطَّلَــبْ
كَيْـفَ لاَ يَقْسِـمُ شَطْـرَي عُمْـرِهِ بَيْـنَ حَـالَيْـنِ نَعِيْـمٍ وَأَدَبْ

(١) ديوان كشاجم ص ٢١، وزهر الآداب ١/ ١٩٧، وجَمعَ الجواهر ص ٢، والأول والثاني في يتيمة الدهر ٤/ ٢٣٨.

سَـاعَـةً يُمْتِـعُ فِيْهَـا نَفْسَـهُ مِـنْ غِـذَاءٍ وَشَـرَابٍ مُنْتَخَـبْ
وَدُنُـوٍّ مِـنْ دُمـىً هُـنَّ لَـهُ حِيْـنَ يَشْتَـاقُ إلـى اللَّهْـوِ لُعَـبْ
فَـإِذَا مَـا نَـالَ مِـنْ ذَا حَظَّـهُ فَنَشِيْـدٌ وَحَـدِيْـثٌ وَكُتُـبْ
مَـرَّةً جِـدّاً وَأُخْـرَى رَاحَـةً فَـإِذَا مَـا غَسَـقَ اللَّيْـلُ انْتَصَـبْ
فَقَضَـى الـدُّنْيَـا نَهَـاراً حَقَّهَـا وَقَضَـى لِلَّـهِ لَيْـلاً مَـا يَجِـبْ
تِلْـكَ أَقْسَـامٌ مَتَـى يَعْمَـلْ بِهَـا عَـامِـلٌ يَسْعَـدْ وَيَـرْشَـدْ وَيُصِـبْ

* * *

علي الجارم[1]:

إِنِّـي طَـرَحْـتُ مِـنَ الشبـابِ رِدَاءَهُ وثَنَيْـتُ عَـنْ لَهْـوِ الصَّبَـابَـةِ جِيدِي
وَاخْتَـرْتُ مـن صُحُـفِ الأَوائِـلِ صَاحِبِـي وجَعَلْـتُ مَـأْثُـورَ البَيَـانِ عَقِيـدِي
ومَـرَرْتُ بـالتـاريـخِ أَمْـلأُ نَـاظِـرِي منـه وأُحْيِـي بـالفنـاءِ وُجُـودِي
كَـمْ عَـالـمٍ قـابَلْـتُ فـي صَفَحَـاتِـه ولَكَـمْ ظَفَـرْتُ بفـاتِـحٍ صِنْـدِيـدِ!
وإذا التمسْـتَ مِـن الدُّهورِ رِسَالَةً فصَحَـائِـفُ التَّـاريـخِ خَيْـرُ بَـرِيـدِ
أَحْنُـو إِلـى قَلَمِـي كـأنّ صَـرِيـرَه فـي مِسْمَعـي المكْـدُودِ رَنَّـةُ عُـودِ
وأَعيـشُ فـي دُنْيَـا الْخيـالِ لأَنَّنـي أَحْظَـى بهـا بـالفـائِـتِ المفْقُـودِ
كَـمْ لَيْلَـةٍ سـامَـرْتُ شِعْـرِيَ لاهِيـاً وَالنَّجـمُ يَلْحَظُنَـا بعيـن حَسُـودِ
حِينـاً يُـراوِغُنـي فـأَنْظُـرُ ضَـارِعـاً فَيَلِيـنُ بعـد تنكُّـرٍ وجُحُـودِ
ولقـد أُغَـرِّدُ بـالقـريـض فَيَنْثَنِـي فـأَنَـالُ قَـادِمَتَيْـهِ بـالتَّغْـرِيـدِ
طَهَّرْته من كلِّ ما تأبى النُّهَى ويَعَـافُـهُ سَمْـعُ الحِسَـانِ الخُـودِ
وَبَعَثْـتُ فِيـهِ تَجَـارِبـاً مَـذْخُـورَةً هِـيَ كلُّ أَمْوَالِـي وكلُّ رَصِيدِي

* * *

---

(١) ديوان علي الجارم ص ٤٤٥، من قصيدة «تهنئة المليك بالعيد».

أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا[1] :

لِلَّـه إخـوان أفـادوا مفخـراً   فبـوصلهـم ووفـائهـم أتكثـر
هـم نـاطقـون بغيـر ألسنـة تـرا   هم فاحصون عن السرائر تضمر
إن أبغ من عرب ومن عجم معاً   علماً مضى فيه الـدفـاتـر تخبر
حتـى كـأنـي شـاهـد لـزمـانهـا   ولقد مضت من دون ذلك أعصر
خطباء إن أبغِ الخطـابةَ يـرتقـوا   كَفّـي بكفّـي للـدفـاتـر مِنبـر
كـم قـد بلـوت بـه الـرجـال وإنمـا   عقـل الفتـى بكتـاب علـم يسبـر
كم قد هزمت به جليساً مبرماً   لا يستطيـع لـه الهـزيمـة عسكـر

* * *

محيي الدين محمد بن علي[2] :

سميـــري لا ينـــام ولا يَنُـــمّ   حفيـــظ للـــذي يلقـــى كتـــومُ

* * *

إسماعيل صبري[3] :

إِنَّ الكتــابَ إِذا حَــلاَ وَٱزْدَانَــا   نِعْــمَ السَّمِيــرُ إِذا أَرَدْتَ بَيَــانَــا
يُهْــدِي إِلَيــكَ فُكَــاهَــةٌ وَرِوَايَــةً   وَيَصُــونُ سِــرَّكَ إِنْ أَرَدْتَ أَمَــانَــا
تَخْلُـو بِـهِ فتَـرَى صـديقـاً مخلصـاً   كـالبَحْـرِ يحـوي ٱلـدّرَّ المَـرْجَـانَـا
وَتَـرَى بـه رَوْضـاً تَمُـجُّ غُصُـونُـهُ   ريّـاً وتشـدو طَيْـرُهُ الأَلْحَـانَـا
ولئـن بَلَـوْتَ مَـدَارِكَ الإِخْـوَانِ مـا   غَيْـرَ الكِتَـابِ يُقَـدِّمُ البـرهـانـا
تتـراوح الأسفـار بيـن محـدِّث   عمـا جـرى لـلأقـدميـن وكـانـا

---

(١) الفهرست ص ٣٨، وطراز المجالس ص ٢٦٦ .

(٢) محاضرة الأبرار ١/ ٩ .

(٣) ديوان إسماعيل صبري ص ١٤٨ ، من قصيدة «تقريظ» .

ومخبــرٍ عــن رحلــةٍ ومنســق عِقْـدَ الـدَّرَاري يُنْعِشُ الأَبْـدَانـا
ومنظّـمٍ روضَ العُلُـومِ وبـاحـثٍ عــن كُنْـهِ لَفْـظِ حَيَّـرَ الأَذْهَـانَـا

* * *

جمال عبد اللطيف[1]:

نشــازٌ أنــا، أم تــرانــي غبيــاً عصــيٌّ أنــا، أم تــرانــي تَقِيَّــا
نشــازٌ أنــا، قــال عنِّــيَ صحبــي تعيســاً، أعيــش حيــاتــي شقيَّــا
فــأحلــى سـويعــاتِ يـومـى إلــيّ ســويعــات أخلــو لنفســي مليَّــا
أفكــرُ فيمــا فعلــت بيــومــي ومــاذا جَنَيْــتُ، ومــاذا عليّــا
وبعــد الحســابِ أقيــم بــداري أنــا وكتــابــي نعيــشُ ســوِيَّــا
فخيــرُ صــديــقٍ أراه كتــابــاً يبــادلنــي الــرأيَ حقّــاً وفيَّــا
يغــذِّي فـؤادي، وروحـي وعقلـي كــريمــاً أراه فصيحــاً ذكيَّــا
رفيقــاً لطيفــاً يُــرَوِّحُ عنــي دوامــاً يــوضّــحُ شيئــاً خفِيَّــا
بــرفقتــه كــلُّ همــي يضيــعُ وأغــدو نشيطــاً وأحيــا هنيَّــا
وتصفو حياتي، وأبدو صَبُوحاً وأمضــي نهــاري، وليلــي نَقِيَّــا
فخــذه دوامــاً صــديقــاً حميمــاً ولــي فــادع ربَّ العبــادِ العليّــا

*

فــإنَّ الكتــابَ جلِيــسُ الصفــاء عــن الشــرِّ يسمــو ويعلــو نئِيَّــا
يصــاحــبُ ركبـك طـول الحيـاةِ صــديقــاً عــزيــزاً تَقِيّــاً أبيَّــا
فــإن قــد مللــت فــلا يشتكــي ولا يــزعــمُ القــولَ فيـك فـريَّـا
وإن عــدتَ فــي لهفــةٍ للقــاءِ وجـدت لـديـه الـوفـاء جليّـا
كمـا كـان قبـل الفـراق تمـامـاً وتلـق الحـديـثَ، حـديثـاً شهيَّـا

---

(١) حماس ونشوة ص ١٩، قصيدة بعنوان «صديقي كتابي».

فـــراع انتقـــاء الكتـــاب إذا مـــا أردت صـــديقـــك جَـــدّاً قـــوِيَّـــا
وبـــارك خطـــايَ ولا تـــزدري حـــديثي وقـــولـــيَ مـــا دمـــت حيّـــا

* * *

محمد علي السنوسي[1]:

(خِـلٌّ) وهبـت لـه شبابـي رفيقـاً ووضعت بين يديه فكري مطرقا
أصغـي إليـه فمـا أمـل حـديثـه وهـو الصـدوق حـديثـه والمنتقـى
طلـــق فمـــا يلقـــاك إلاَّ بـــاسمـــاً عـــن صفحتيـه محـدثـاً ومحـدقـا
أحببتـه طفـلاً وهمـت بـه فتـى وعشقتـــه كهـــلاً وزدت تعلقـــا
رفـت علـى يـده منـاي وأزهـرت ونمـــا بعينيـــه (حجـــاي) وأورقـــا
أشتـاقـه شـوق الخمـائـل للنـدى وأذوب فيـــه صبـــابـــة وتشـــوقـــا
ألقـــاه مكتئبـــاً فيسلـــو خـــاطـــري طـــربـــاً وينشـــرح الفـــؤاد تطلقـــا
أستعـذب السهـر الطـويـل بقـربـه ويطيـــب لـــي أن يستـــريـــح وأأرقـــا
سلواي إن عبس الزمان وضامني وهواي إن هجر الصديق وضيقا
أمضيـت بيـن يـديـه عمـري كلـه مستسلمـــاً فـــي حبـــه مستغـــرقـــا
أمتص من فمه (العلوم) وأحتسي مـــن راحتيـــه زلالهـــا متـــدفقـــا
وأنـــادم العظمـــاء مـــن (أعـــلامـــه) و (النـــابغيـــن) محـــدثـــاً ومعلقـــا
فـي كـل سطـر منـه نـور (حقيقـة) و (منـــار) جـــامعـــة تشـــع تـــألقـــا
ريَّـــان مـــن أدب فمـــا حـــدثتـــه إلا تـدفـق فـي الحـديـث وأغـدقـا
قالوا لقد فقد (الكتاب) جلاله منذ استوى عصر (الجرائد) وارتقى
فـــأجبتهـــم هيهـــات تلـــك قضيـــة لا تستســـــاغ تخيـــلاً أو منطقـــا
من أين (للغدران) وهي ضحاضح أن تستطيل على (البحور) تدفقا

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر ص ٣٨٦، قصيدة بعنوان «الكتاب».

إن (الكتاب) هو اللباب ولا أرى خِـلاً يـروقـك كـالكتـاب تـذوقـا
للّـٰـه هـاتيـك (الـرمـوز) فـإنهـا (نور) أضاء بها الوجود وأشرقا

*

إن الـذي اختـرع (الكتـابـة) ملهـم أعطـى الحيـاة يـداً تخـط لهـا البقـا

* * *

الشيخ جعفر النقدي[1] :

مؤنسي العلم والكتاب الجليس لـم يـرقنـي مـن الأنـام أنيـس
يـا نفـوس الـورى دعيني ونفسي إنمـا آفـة النفـوس النفـوس
حبـذا وحـدة بهـا لـي تجلـي من زماني المعقول والمحسوس
علمتنـي أن الحيـاة كتـاب خطـه الكـون والليـالـي دروس
نلـت فيهـا مـا لـم ينلـه رئيـس حـلَّ فـي دستـه ولا مـرؤوس

*

يـا رئيسـاً ذلـت لـديـه نفـوس رغبـة وانحنـت إليـه رؤوس
كـل نفـس مـا قـدستهـا المـزايـا لـم يفـدهـا مـن غيـرهـا التقـديـس

*

يـا عُقـولا بـالجهـل يعبـث فيهـا مـن بني الـدهـر سـائس ومسـوس
فيـك قـد أشـرقـت أشعـة قـدس وأضـاءت كمـا تضـيء الشمـوس
وجمـال الهـدى لمـن يبتغيـه قـد تجلـى ونهجـه مـأنـوس
لـم تـركـت الـرشـاد وهـو ثمين وألفـت الفسـاد وهـو خسيـس
حبستـك العـادات عـن نيـل رشـد خـالفتـه أم قيـدتـك الطقـوس

*

(١) شعراء الغري ٢/ ٩٠، قصيدة بعنوان: «إنما آفة النّفوس النفوس».

آه مـن لـوعـة بـأنفـاس قلبـي | من شجاها ناراً تشب الطروس
يا حليف الكؤوس ضيعت رشداً | كنـت فيـه وأفسـدتـك الكـؤوس
وأمـت الحجـا ومـا نفـس حـي | كحجـاهـا شـيء أتـاهـا نفيـس
مـا أضـل النفـوس إلاَّ نفـوس | عـن عـداهـا ضلت وحـظ تعيس

* * *

حسن عبد الله القرشي[1] :

حَسبـي من الكونِ ألحاني وقيثاري | وأصـدقـائـيَ مِـنْ كُتُـبٍ وأسفـارِ
حَسبـي فما أَبتغِـي خِلاًّ يبادِلُني | بـالميـنِ وُدَّ بليـدِ الحِسِّ ثـرثـارِ
أكاد أحسبُ نفسي حين أَصحَبُه | منَفَّـراً يتَشَكَّـى غـربـةَ الـدّارِ
حسبي فقد عِفْتُ أنسامي وأنواري | وعـدتُ فـي مَهْمَـهٍ باليـأس مَوَّار
تكشَّفَتْ ليَ أخلاقُ الأُلى حَسِبوا | أنَّ النعيـــمَ لغـــرَّارٍ وغَـــدَّارِ
وما لهم بـيَ لم أعشَقْ مسالكَهُمْ | كيمـا أزفَّ أمـانيهـم بِمـزمـار!

* * *

صقر الشبيب[2] :

أَرَى خَيْرَ سَاعَاتِ المَسَرَّةِ سَاعَةً | يكونُ بِهَا حَوْلِـي صَدِيقٌ أُحادِثُهْ
يَبِيـتُ كِـلانَـا سِـرُّهُ لِصـديقِـهِ | بِغَيـرِ احْتشـامٍ أَوْ حَبِيـبٌ أُعَـابِثُـهْ
وإن لم يكُنْ هَذا ولا ذَاكَ حاصِلاً | فَسِفْرٌ جَليلُ النَّفْعِ تَشْفِي مَبَاحِثُهْ
فذلِكَ رَيْحَانِـي وَرَاحِـي وراحَتي | ودَاعِـي سُرورِي حين آسَى وبَاعِثُهْ
فيا قاصِدِي بالخُبثِ ما أنَا بِالَّذي | يُخَابِثُ فَاقْصِدْ فِـي الوَرَى مَنْ تُخَابِثُهْ
فَوَقْتِـي بِكُتْبِـي والحَبِيبِ وإخْوَتِـي | لَـهُ شُغُـلٌ عَـن رَدِّ مـا أَنْـتَ نَـافِثُـهْ

---

(١) ديوان القرشي ط ١ ص ٤٩١ ، من قصيدة «سجين الحياة» .
(٢) ديوان صقر الشبيب ص ١٧٤ ، من قصيدة «من عاداتي وشيمي» .

مِن الجَهْلِ إنْفَاقي مِن الوَقْتِ لَحْظَةً بِنَبْشي ثَرى أَمْثَالِ ما أَنْتَ نَابِشُهْ

* * *

عبد الله الطيب[1] :

أَلا أحْبِبْ بِدِفْءِ النَّار حين الثلج مُنْسَكِبُ
وكأْسٍ كضياءِ النَّارِ يحْبُو فَوْقَها الحَبَبُ
وحِبٍّ كبهاءِ النَّار في إسفارِهِ العجَبُ
وريمٌ ريمُ غَيْلانَ الذي أَفضى به لبب
وسِفْرٌ فيه ما غَنَّت به في بيدها العَرَب
وهذا الجِدُّ إذ نامت عُيون النَّاس والدَّأب
وتُغْنِيكَ عن الْخُلَّانِ إن خاللتها الكُتُب

* * *

إبراهيم بن هلال الصّابي[2] :

هجرت دواتي بعد تصريف حلّها وواصلت كالورَّاق قارورة الحبرِ
وعاشرْتُ من دون الأخلّاء دفتراً يحدّث عما مرّ في سالف الدهر
فطوراً يسلّيني التعلّلُ بالمنى وطوراً يكون الموت مني على ذكر

* * *

أبو العلاء أحمد المعرّي[3] :

حَادِثْ كِتَابَكَ، فهو آمنُ جانِباً من أَهْلِ تَسْبِيدٍ وأَهلِ وِفَارِ
وفَوَائِدُ الأَسْفَارِ جَمْعُ السِّفْرِ في الدْ دُنيا، تَفُوقُ فَوَائِدَ الأَسْفَارِ

* * *

---

(١) أصداء النّيل ص ٥٦، قصيدة بعنوان «ألا أحبب».
(٢) يتيمة الدهر ٢/ ٣٥١.
(٣) ديوان لزوم ما لا يلزم ١/ ٥٤٩.

أوليفر غولد سميث[1] :

عِنْدَمَا أقْرَأُ كِتَاباً لِلْمَرَّةِ الأُولَى، فَكأنّي كَسَبْتُ صَدِيقاً جَدِيداً. وَعِنْدَمَا أُقْرَأُ كِتَاباً سَبَقَ لي أنْ قَرَأْتُهُ، فَذَلِكَ يُشْبِهُ لِقَائي صَدِيقاً حَمِيماً.

* * *

الكاتب الإسباني ألونزو دو أراغون[2] :

الحَطَبُ القَدِيمُ لِلإصْطِلاءِ، والأَصْدِقَاءُ العِتَاقُ لِلاعْتِمادِ عَلَى إخْلاصِهِمْ، والكُتُبُ القَدِيمَةُ لِكُلِّ هذا مَعاً.

* * *

بومونت أند فلتشر[3] :

كتبي، الرفاق الأفضل، هي بالنسبة لي البلاط الملكي العظيم، حيث أتحادث في كل ساعة مع الحكماء والفلاسفة الكبار؛ وأحياناً على سبيل التنويع، ألتقي وأتداول مع ملوك وأباطرة، وأزن نصائحهم.

* * *

إدوارد بولْوير ليتون[4] :

قد نعيش بدون شعر، وموسيقى، وفن؛

---

(١) سنابل الزمن ص ٢٢، وكنوز الحكمة ص ٤٦٠، ومن حصاد الفكر العالمي ص ٦٥، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥١١، وقاموس الحكم والأمثال ص ٥٠٨، وأقلام كتبت عن ص ٥٨.

(٢) كلمات من ذهب ص ٦٦٤، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥١١، ومن حصاد الفكر العالمي ص ٦٤، وسنابل الزمن ص ٢٣.

(٣) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٥٥.

(٤) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٤٤.

قد نعيش بدون ضمير ونعيش بدون قلب؛
قد نعيش بدون أصدقاء؛ وقد نعيش بدون طهاة.
لكن الإنسان المتحضر لا يستطيع العيش بدون كتب.

* * *

كـولـي[1]:

تَعَالي يَا كُتُبِـي، يا أَصْدَقَ الأَصْدِقَاءِ وأرْشِدِيني.

* * *

لورد شاننغ[2]:

الكتب هي المفاتيح إلى كنز الحكمة، الكتب هي بوابات إلى أراضي السرور، الكتب هي الممرات التي تؤدي إلى فوق، الكتب هي أصدقاء، فتعال، ودعنا نقرأها.

* * *

أحمد شوقي[3]:

أنَـا مَـنْ بَـدَّلَ بـالكُتْـبِ الصِّحَـابَـا ... لـم أَجِـدْ لِـي وافِيـاً إلاَّ الكِتَـابَـا
صـاحِــبٌ إنْ عِبْتَـهُ أَوْ لَـمْ تَعِـبْ ... لَيْسَ بـالـوَاجِـدِ للصَّـاحِـبِ عَـابَـا
كُلَّمـــا أَخْلَقْتُـــهُ جَـــدَّدَنِــــي ... وكَسَانِـي مِنْ حِلَى الفَضْلِ ثِيَابَا
صُحْبَـةٌ لَـمْ أَشْـكُ مِنْهَـا رِيبَـةً ... ووِدَادٌ لـــم يُكَلِّفْنِــــي عِتَــابَــا

---

(١) كنوز الحكمة ص ٤٥٩.
(٢) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب ص ٥٢، ومن حصاد الفكر العالمي ص ٦٣.
(٣) الموسوعة الشوقية ٢/٣٠٥، وكنوز الحكمة ص ٤٥٧، وسنابل الزمن ص ٢٠، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥٠٩، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٨، وكلمات من ذهب ص ٦٦٢، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٢٩، وأنيس الجليس ص ١٣.

رُبَّ لَيْـلٍ لَـمْ نُقَصِّـرْ فيـهِ عَـنْ ... سَمَـرٍ طَـالَ عَلَى الصَّمْتِ وطَـابَا

كـانَ مِـنْ هَـمٍّ نَهَـارِي راحَتِـي ... ونَـدَامَـايَ ونَقْلِـي والشَّـرَابَـا

إنْ يَجِـدْنِـي يَتَحـدَّثْ أَوْ يَجِـدْ ... مَلَلاً يَطْوِي الأحـادِيثَ اقْتِضَابَا

تَجِـدُ الكُتْـبَ عَلَـى النَّقْـدِ كَمَـا ... تَجِـدُ الإِخْـوَانَ صِـدْقـاً وكِـذَابَـا

فَتَخَيَّـرْهَـا كَمَـا تَخْتَـارُهُ ... وادّخِرْ في الصَّحْبِ والكُتْبِ اللُّبَابَا

صَـالِـحُ الإِخْـوَانِ يَبْغِيـكَ التُّقَـى ... وَرَشِيـدُ الكُتْـبِ يَبْغِيـكَ الصَّـوَابَـا

غـالِ بـالتَّـاريـخِ واجْعَـلْ صُحْفَـهُ ... مِـنْ كِتَـابِ الله فـي الإِجْـلاَلَ قَـابَـا

قَلِّبِ الإِنْجِيلَ وانْظُرْ في الهُدَى ... تَلْـقَ للتَّـارِيـخ وَزْنـاً وحِسَـابَـا

رُبَّ مَـنْ سَـافَـرَ فـي أَسْفَـارِهِ ... بلَيَـالِـي الـدَّهْـرِ والأَيَّـامِ آبـا

واطْلُـبِ الخُلْـدَ ورُمْـهُ مَنْـزِلاً ... تَجِـدِ الخُلْـدَ مِـنْ التَّـارِيـخ بَـابَـا

عـاشَ خَلْـقٌ ومَضَـوْا مـا نَقَصُـوا ... رُقْعَـةَ الأَرْضِ ولا زادُوا التُّـرابَـا

أَخَـذَ التَّـارِيـخُ مِمَّـا تَـرَكُـوا ... عَمَـلاً أَحْسَـنَ أَوْ قَـوْلاً أَصَـابَـا

ومِـنَ الإِحْسَـانِ أَوْ مِـنْ ضِـدِّهِ ... نَجَحَ الرَّاغِبُ في الذِّكْرِ وَخَابَا

مَثَـلُ القَـوْمِ نَسَـوا تـارِيخَهُـمْ ... كَلَقِيـطٍ عَـيَّ فـي النَّـاسِ انْتِسَـابَـا

أو كَمَغْلُـوبٍ عَلَـى ذاكِـرَةٍ ... يَشْتَكِـي مِنْ صِلةِ الماضِـي انْقِضَابَا

* * *

محمد رضا الزين[1] :

أصـادق دهـري والـزمـان مكـاذب ... وكـل خليـل فـي الـزمـان مـوارب

طفـت البسيـط فلـم أجـد مـن وده ... صـاف ولكـن الأنـام عقـارب

فخيـر حيـاة للفتـى عـزل نفسـه ... عن الناس والكتب الأنيقة صاحب

فليست تذيع السر وهي صوادق ... إذا حدثت أو جونبت لا تجانب

(١) شعراء الغري ٨/ ٣٦٠.

تقـص أحـاديثـاً بـأفصـح منطـق بغيـر لسـان فهـي عجـم عـوارب

* * *

علي الجندي[1]:

نفَضْتُ يدي من كلِّ خِلٍّ عرفْتُه وإن شاقني خِلٌّ فيا حبَّذا الكُتُب

سأحيا وحيداً كالطَّريد، وربَّما يُسَرُّ الفتى بالبعد إن ساءَه القُرْبُ

* * *

ابن المقفع[2]:

قال: كل مصحوبٍ ذو هفوات، والكتابُ مأمونُ العثرات.

* * *

عجاج نويهض[3]:

الكتاب هو صديق لا يخدع أبداً.

* * *

ديبارو[4]:

اَلكِتَابُ صَدِيقٌ لا يخُونُ أبَدَاً.

* * *

(١) أغاريد السّحر ص ٢٠٧.

(٢) محاضرات الأدباء ١/ ١١٧، والتذكرة الحمدونية ٤/ ٣٧٧.

(٣) كلمات من ذهب ص ٦٦٢.

(٤) موسوعة روائع الحكمة ص ٥١٠، وكنوز الحكمة ص ٤٥٨، وقاموس الحكم والأمثال ص ٥٠٨.

جواد قسام[1]:

يا سفر أنت إذا نادمت سماري ... عند الدجنة موضع الأسرار
إني درست بك الوجود بأسطر ... بسواد أحرفها سنا الأبصار
إني درست بك الحياة وإنما ... معنى الحياة دراسة الأسفار
كم ليلة كنت السمير محدثاً ... ما في الطبيعة ثم من أخبار
إني اتخذتك لي خديناً ناصحاً ... من دون هذا العالم الغدّار
أرعاك مأمون الخديعة صادقاً ... ما فيك من بؤس ومن أضرار
أشكو إليك لواعجاً أخفيتها ... ولها بأحشائي زناد واري
لم أستطع إظهارهن وإنما ... قد طال فيها مدة إضماري
الحر يبخس قدره وحقوقه ... والعز أمسى سيد الأحرار
والبائس المسكين أمسى حقه ... نهب القوي الغاشم الجبار
والدين أصبح يشتكي من ناسك ... يسعى باسم الدين للدينار
يا سفر إني قد صحبتك في الدجى ... خلاًّ وفي الآصال والأبكار
فليال وصلك لا تمل وحبذا ... لو أنها كانت بلا أسحار
نشوان لكن من هواك بخمرة ... ومتيم بك لا بذكر نوار
النفس إن تاقت لغيٍّ عاقها ... ما فيك من وعظ ومن إنذار
ما أنت إلاَّ روضة راقت بها ... للناظرين بدايع الأزهار
طوراً وأخرى فيلسوفاً بثَّنا ... حكماً بهن ثقافة الأفكار
يا سفر حدثني فإنك عالم ... نبأ الكرام بسالف الأعصار
هل كان في عهد العروبة ترتضي ... كشف الحجاب شآمة الأحرار
هل كان يزري بالفتاة حجابها ... مذ صان زينتها عن النظار
إني أعد إلى الفتاة كمالها ... بحجابها والنقص بالإسفار

---

(١) شعراء الغري ٢/ ٤٦٧، قصيدة بعنوان «يا سفر».

إن التبرج للفتاة متوقة | نفس تروم النُّوْر بالأوطار
إن الحقائق في النفوس تعده | للمجد أكبر وصمة وشَنار
يا من تروم إلى الفتاة سفورها | ورجالها محجوبة بستار
هلا سعيت إلى الرجال محرضاً | لنهوضها عن هوة الأقدار

*

هبِّي بني العليا ولا تتخاملي | فالعصر عصر تنور وفخار
ودعي جوادك خائضاً في حلبة | الآداب بالإِيراد والإِصدار
وثبي فلا يحمي الغضنفر غابه | ما لم يكن بالواثب الهدار
سيري ولا تتريثي فذوو العلى | تأبى المقام بذلة وصَغار
سيري على النهج السوي وحاذري | في السير عند مواضع الأخطار
جدي لحفظ كيان مجدك واقتفي | في سيرك الآباء والآثار

* * *

آخر[1]:

بلوت الناس من غرب وشرق | فلم تظفر يدي بصديق صدق
فقلت مجانباً للخلق طرًّا | يبيت منادمي قدحي وزقي
وفي الآداب لي ألف وأنس | وفضل الله يأتيني برزقي

* * *

عبد الله بن خليفة القرطبي المعروف بالمصري[2]:

قالوا الصديقُ شقيقُ النفسِ قلتُ لهم | إنَّ الصديقَ مع العنقاءِ قد طارا
اسمٌ لعمري بلا جسمٍ ولا نَفَس | إلاَّ كلاماً بزورِ القولِ قد سارا

---

(١) غرر الخصائص ص ٤٦٤.

(٢) الذخيرة ٧/ ٣٤٧.

فما ترى غيرَ من يسقيك من يده　　أرْياً وفي قلبه قد أضمر النارا
فنادمِ الكُتْبَ ما عمِّرتَ إنَّ لها　　عندي وعَيْشِكَ أسراراً وأخبارا

* * *

عبد الجبار بن حمديس من قصيدة(١) :

وفي خُلُق الزّمان طباعُ خُلْفٍ　　تُمرِّرُ في فمي النُّغَبَ العذابا
وقد بُدِّلتُ بعد سَرَاةِ قومي　　ذئاباً في الصّحابة لا صِحابا
وألفيتُ الجليسَ على خلافي　　فلسْتُ مجالِساً إلاَّ كِتابَا
وما العنقاءُ أعوزُ من صديقٍ　　إذا خَبُثَ الزمانُ عليك طابا

محمد بن علي بن عبد الله بن محمد الصُّورِي(٢) :

نعم الأنيس كتاب　　إن خانك الأصحاب
يحوي ضروب علوم　　تزينها الآداب
تنال منه فنوناً　　تحظى بها وتناب
لا مظهراً لك سوءاً　　ولا عليه حجاب
ولا يصدك عنه　　ـ إن جئته ـ بواب
ولا يسوءك منه　　تغضب وعتاب
ولا يعيبك إن كان　　فيك شيء يُعاب
خلاف قوم تراهم　　ليست لهم ألباب
لكنهم كذئاب　　طلس عليهم ثياب
إذا تقربت منهم　　أرضاك منهم خطاب
وإن تباعدت منهم　　فكلهم مغتاب

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٥ .

(٢) تقييد العلم ص ١٣٢، وتاريخ دمشق ٥٤/٣٧٣، والأول والثالث في النجوم الزاهرة ٥/٤٨ .

مـــا هـــؤلاء بنـــاس بـــل لعمـــري كـــلاب
فـــالبعـــد منهـــم ثـــواب والقـــرب منهـــم عقـــاب

* * *

أمية بن عبد العزيز بن أبـي الصلت الحكيم[1] :

مارست دهري وجربت الأنامَ فلم أحمـدهـمُ قـطّ فـي جـد ولا لعبِ
وكـم تمنيـت أن ألقـى بـه أحـداً يسلي من الهم أو يعدي على النُّوبِ
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا كانت مواعيدهم كالأل في الكذبِ
وكان لي سبب قد كنت أحسبني أحظى بـه وإذا دائـي مـن السببِ
فمـا مقلـم أظفـاري سـوى قلمـي ولا كتائب أعدائي سوى كتبي

* * *

محمد الصمدي[2] :

أنت لصديق يصون عهد وفائه إن لان دهـري أو قسـا بجفـائـه
مـا أنـت ذا الـوجهيـن يبـدي وده فـي ظـل كـرمـي مسرفـاً بـريـائـه
وإذا يبسـت هـوى علـيّ بفـأسـه ليحيلنـي حطبـاً لنـار شتـائـه
إن شئت نصحاً كنت من أسررته شـأن الجـواد أسـرّ أمـر عطـائـه
ثنّـى بـه الإحسـان فضـل تكتـم مـا أنـت فـي نصـح وفـي إسـدائـه
أنـت المعلـم روض كـل درايـة أيـان تثمـر فهـي مـن أنـدائـه
روض يضـم مـن العقـول ثمـارهـا ومن الخيال جنى رحاب سمائه
قـد نلـت منـه مـا اجتهـدت لنيلـه غيـض تـلازمنـي منـى إغنـائـه
لكـن جهـدي تـارة لتثـاقـل يـؤذي الـرغـاب وتـارة لمضـائـه

---

(١) ديوان الحكيم أبـي الصلت ص ٢٠ وص ٥٩، ومعجم الأدباء ٧/ ٦٤، وعيون الأنباء ص ٥١١.

(٢) جذاذة من جريدة الوطن الكويتية.

فتروح للأستاذ تشكوني المنى ... هذا المريد مقصر بأدائه
فيردها رداً جميلاً إنما ... يأبى عليها الفوز باستعدائه
إني لأدري ما يعاني صاحبي ... ولأنت أولى باجتلاء عنائه
أعباء عيش بات عيشاً مرهقاً ... وضياع جهد في شراع تائه
وأذى الشعور مخصص ومعمم ... لينال في الحالين من إيذائه
يا للمعلم شاء غير تحيز ... فنجا المريد من اتهام رجائه
ومسامح خلّى عتاب معاتب ... تتسابق الأعذار لاسترضائه
عاد الصديق فأشرقت شمس الرضا ... في الروض شاع المسك في أفيائه
مسك الصحائف خبأته بصدرها ... لتعطر الأجواء عند لقائه
هذي السجايا ليتها في عصرنا ... سمة السمات تفوز في أبنائه
عصر به المنحى لغير تسامح ... هو للتناحر ضج في أرجائه
ولغير نصح خالص وتناصح ... بهما يضيق الزخم من ضوضائه
ولغير ما هو في الزهور بنفسج ... خد التراب لخد سحر بهائه
فالزهو من هذا الزمان لنرجس ... يزهيه مرأى ذاته في مائه
ما ذاك إن صدى الغراب بمسمعي ... وبخاطري وقع اكتئاب سمائه
والقول مني ليس نسج تشاؤم ... يلقي على العصر اسوداد غشائه
قانا إلى جهد الطبيب وقد مضى ... في كشف داء قبل وصف دوائه
سيان كان الكشف مبعث فرحة ... أو أحزن المعلول جاهل دائه
ما ضرني من قال مسعى شاعر ... والعصر ما أغناه عن شعرائه
طير عن السرب اغتواه تفرد ... فغدا الغريب بنوحه وغنائه
البرء في جهد الجميع ولا أرى ... درب التفرد غير درب التائه
هو هدي ما علمتني يا صاحبي ... وعلى المدى أنا أهتدي بضيائه

* * *

محمد الأسمر[1] :

عـاتبتُهـا حتـى مللـتُ عتـابِـي ... دُنيـا بـرِمـتُ بهـا وبـالأصحـاب

حتى هوى الأحبابِ أصبح زاوياً ... عنـدي عَشِيَّةَ غـاض مـاء شبـابـي

فـالآن بعـد أن انتهـى عهـدٌ مضَـى ... دُنيـاي بيتـي، والصـديـقُ كتـابـي

وهـوايَ أطفـالٌ أبـوهُـم غـائـبٌ ... فمتـى يـؤوبُ لهـمْ مـع الأُيَّـاب

مـا دَقَّ بـابـي زائـرٌ إلاَّ جَـرَوْا ... يتصـايحـونَ هنـاك عنـد البـاب

(بابا) أتى، (بابا) أتى، وأبوهُم ... فـي السِّجـنِ معتقـلٌ مـع الغُيَّـاب

فأظلُّ أخدعهمْ، وأضحكهمْ بما ... يلهيهـمُ، والله يعلـمُ مـا بـي

إن غبـتُ عنهـمْ ثـم أُبـتُ إليهـمُ ... أبصـرتُهـمْ يتـرقبـون إيـابـي

أحنـو عليهـم ضـاحِكـاً، وَمُقَبِّلاً ... ومُـداعبـاً، ومُخلِّصـاً جلبـابـي

وأنا الذي ربَّى اليتامَى صابراً ... لمَّـا تجهمهـم ذوو الأنسـاب

حتَّـى غَـدَوْا وهُـمُ كبـارٌ حـولهـمْ ... أطفـالهـمْ فـي جَيْئَـةٍ وذهـاب

*

مـا لِـي وللـدُّنيـا، ولـلأصحـاب ... وتعتُّبـي حتـى مللـتُ عتـابـي؟!

وهَوى الأحبَّةِ كيف أصبح زاوياً ... وأنـا حبيبهـمُ وَهُـمْ أحبـابـي؟!

سـأمٌ وضيـقٌ بـالحيـاةِ مَـردُّهُ ... للضغـطِ أحيـانـاً ولـلأعصـاب

لكـأنَّ مـوجـاً لاعـبٌ بعـواطِفـي ... تجري على خطأ لهُ وصواب!!

يا ربِّ هَبْ لي من لدنك رعايةً ... أحيـا بهـا، واختِـم بحسـن مـآب

* * *

---

(١) بين الأعاصير ص ١٢٦ ، قصيدة بعنوان «دنياي» .

أحمد الزَّين[1] :

إنْ عـزَّتِ الأصحـابُ وقلَّـتِ الأحبـابُ
وأعـوز النصيـرُ وأَبْطـأَ المُجِيـرُ
وكثُـر اللئـامُ وقلَّـت الكـرامُ
وغـاضَ مـاءُ الـوُدِّ وفـاضَ نكـثُ العهـدِ
حتَّـى ذوَى الإخـاء وأَمْحَـل الـوَفـاء
فـلا تـرَى صَفِيّـا ولا أَخـاً وَفيَّـا
عَـوْنـاً علـى الـزمـانِ ومَعْقِـلَ الإخـوانِ
إن تَـدْعُـه لـم يـأْتَـلِ لَيْـسَ بنكْـسٍ ذُمَّـلِ
فـاتـركِ الأصحـابَـا واصْطَحـب الكِتـابـا
فَهْـوَ الجليسُ الصـالـحُ وهْـو الصديـقُ النـاصـحُ
وداده لا يَخْلـقُ وحبّـهُ لا يُمْـزَقُ
وحَبْلُـه مَـوْصـولُ إنْ قَـاطـعَ الـوَصُـولُ
لَيْـسَ يُـرائِـي صـاحِبَـا ولا يَـرُدُّ طـالبَـا
يَـزيـدُ فـي نـوالِـه مـا زِدْتَ فـي سُـؤالِـه
يُجْـزِلُ فـي الإحسـانِ ولَيْـسَ بـالمنَّـان
لا يَسْتَعيـدُ سـائـلاَ ولا تـراهُ مـاطِـلا
مُـؤدَّبٌ لا يُصغِـرُكْ ومُحْسـنٌ لا يَحقِـرك
إن تَـدْعـه لمُعضـلِ لبَّـاك غيـر مُـؤْتَـلِ
ذاكَ الصَّـديـقُ الأطْـوعُ وهْـوَ الـرفيـقُ الأخْضَـعُ
لـم أَرَ كـالكتـابِ أَحْفَـظَ لـلآداب
أبعَـدَ عَـنْ مُشَـاغَبَـهْ أَزْهَـد فـي مُعـاتَبَـهْ

---

(١) ديوان أحمد الزين ص ١٧٤ ، قصيدة بعنوان «صحبة الكتب».

أَرْغَبَ عَنْ جِدَالِ | أكَفَّ عَنْ قتال
أَجْمَعَ للأَخْبَارِ | وَطيِّبِ الآثار
وحسن الصفاتِ | وأبْلغ العِظاتِ
تَرَى بِهِ سَخيفاً | وجَيِّداً طَرِيفَا
والغَثَّ والسَّمينَا | وشِدَّةً ولينَا
أما تراهُ نَاسِكا | ثم تَراهُ فاتِكا
أمْنعُ للأحْرارِ | مِنْ صُحبةِ الأشْرَارِ
أَوْعظُ للإنسانِ | مِنْ غِيَرِ الزَّمانِ
خيرُ جليسٍ في الدُّنا | وشاغلٌ عَنِ المنَى
إن المُنَى ضلاَلُ | قُصُورُها أَطْلالُ
وماؤها سَرَابُ | وبَرْقُها خَلاَّبُ
يقْنعُ بالدَّنِيَّه | مَنْ أكْثَرَ الأمنيَّة
فإنّها أحْلام | أصْحابها نيامُ
ليْسَ بها عَلاء | فإنَّها هَباء
سَرْعانَ ما تَزُولُ | وحالُها يَحُولُ
أَحبالُها رِمامُ | وسُحْبُها جَهَامُ
وإنَّما الأَماني | تَعِلَّةُ الجَبَانِ
إن فَاتَهُ ما يَطْلبُ | أو نَالَه ما يَرْهَبُ
أَكْثَرَ في التَّمني | وقَوْلِه لو أنِّي

* * *

مَثَل إنكليزي[١] :

ٱلْكِتَابُ ٱلجَيِّدُ صَدِيقٌ حَمِيمٌ.

---

(١) موسوعة روائع الحكمة ص ٥١١ ، وكنوز الحكمة ص ٤٥٩ .

تولوستوي[١] :

إن أفضل ما يجده المرء بعد الصديق الطيب الكتاب الطيب .

* * *

سعيد بن عبد ربّه[٢] :

افتصد يوماً فبعث إلى عمه أحمد بن محمد بن عبد ربّه الشاعر الأديب راغباً إليه في أن يحضر عنده مؤانساً له، فلم يجبه عمه إلى ذلك وأبطأ عنه، فكتب إليه :

لما عـدمـت مـؤانسـاً وجليسـاً ... نـادمـت بُقـراطـاً وجـالينـوسـا

وجعلـت كتبهمـا شفـاء تفـرّدي ... وهمـا الشفـاء لكـل جـرح يـوسـا

ووجـدت علمهمـا إذا حصلتـه ... يـذكـي ويحيـي للجسـوم نفـوسـا

فلما وصل الشعر إلى عمه جاوبه بأبيات منها :

ألفيـت بقـراطـاً وجـالينـوسـا ... لا يـأكـلان ويـرزآن جليسـا

فجعلتهـم دون الأقـارب جُنَّـة ... ورضيـت منهـم صـاحبـاً وأنيسـا

وأظن بخلك لا يرى لك تاركاً ... حتـى تنـادم بعـدهـم إبليسـا

❑ ❑ ❑

---

(١) أنيس الجليس ص ١٨ .

(٢) يتيمة الدهر ٢/ ٧٤، وعيون الأنباء ص ٤٩٠، والمغرب في حلي المغرب ١/ ١٢٠، والذيل والتكملة ٤/ ٢٦، وديوان ابن عبد ربّه ص ١٤٩، والفكاهة في الأدب ٢/ ٣٠، وموسوعة الأدب الضاحك ١/ ٤٥ .

٩ ـ فصل في
متنزّهات وبساتين الكتب

الأمير عبد الله المأمون[١] :

لا نزهة ألذّ من النظر في عقول الرجال.

* * *

الحسين بن أبي بكر أحمد بن الخياري[٢] :

طلبُ العِلم فات أوّلَ عُمْري ... في زمانٍ بالكسب كان اشتغالي

فتسليتُ بالمجاميع عنه ... وتنزّهت في عقول الرِّجال

* * *

أبو الحسن بن طباطبا العلوي[٣] :

قرأ في بعض الكتب: الكتب معاقل العقلاء إليها يلجؤون، وبساتينهم فيها يتنزهون، فقال:

اجعلْ جليسَكَ دفتراً في نَشْرِهِ ... لِلْمَيْتِ من حِكَمِ العُلُومِ نُشُورُ

---

(١) تاريخ الإسلام ١٥/ ٢٣٨، وعين الأدب والسياسة ص١٥٨، وتاريخ الخلفاء ص٢٧٣، والأذكياء ص٥.

(٢) تاريخ إربل ١/ ٢٧٧، وتاريخ الإسلام ٤٤/ ٣٣٤.

(٣) اللطائف والظرائف ص٦٦، وشرح المضنون ص٦، وأنوار الربيع ٢/ ٣٨٧، والأول والثالث في التذكرة الحمدونية ٤/ ٣٧٧، وعزاها للسريّ الرّفاء في محاضرات الأدباء ١/ ١١٧، وديوان السري الرفاء ٢/ ٨٠٠، والخبر دون الشعر في مطالع البدور ٢/ ١٧٤، وكنوز الحكمة ص ٤٦١، ومعجم حكمة العرب ص٣٣٩، ودون عزو في كنوز الحكمة ص ٤٥٨.

فكتـاب علـم لـلأديـب مـؤانـسٌ ومـؤدبٌ ومبشّـرٌ ونـذيـرُ
ومفيـدَ آدابٍ ومـؤنِـسَ وحشـةٍ وإذا انفـردتَ فصـاحِـبٌ وسميـرُ

* * *

عيون متنزهات القلوب:

قَـالَ الأَمِيـرُ أَبَـا نَصْـرِ أَحْمَـدَ بْـنَ الحُسَيْـنِ بْـنِ أَحْمَـدَ بْـنِ عُبَيْـدِ اللَّـهِ ٱبْنِ أَحْمَدَ بْنِ الميكَالِـيِّ: تَذَاكَرْنَا الْمُتَنَزَّهَاتِ يَوْماً وَٱبْنُ دُرَيْدٍ حَاضِرٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَنْزَهُ الأَمَاكِنِ غُوطَةُ دِمَشْقَ[1]. وَقَال آخرُونَ: بَلْ نَهْرُ الأُبُلَّةِ. وَقَالَ آخَـرُونَ: بَـلْ سُغْـدُ[2] سَمَـرْقَنْـدَ. وَقَـالَ بَعْضُهُـمْ: نَهْـرَوَانُ بَغْـدَادَ[3]. وَقَـالَ بَعْضُهُمْ: شِعْبُ بَوَّانَ[4] بِأَرْضِ فَارِسَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نُوبَهَارُ بَلْخَ[5].

فَقَالَ: هَذِهِ مُتَنَزَّهَاتُ الْعُيُونِ، فَأَيْنَ أَنْتُمْ عَنْ عُيُونِ مُتَنَزَّهَاتِ الْقُلُوبِ؟

قُلْنَا: وَمَا هِـيَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟

قَالَ: عُيُونُ الأَخْبَارِ لِلْقُتَيْبِيِّ، وَالزَّهْرَةُ لابْنِ دَاوُدَ، وَقَلَقُ الْمُشْتَاقِ لابْنِ أَبِـي طَاهِرٍ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

وَمَـنْ تَـكُ نُـزْهَتَـهُ قَيْنَـةٌ وَكَـأْسٌ تُحَـسُّ وَأُخْـرَى تُصَـبْ

---

(١) غوطة دمشق: موضع بالشام كثير الماء والشجر.

(٢) السغد بالغين المعجمة: أماكن كثيرة المياه، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيار بسمرقند.

(٣) نهروان بغداد: ثلاث قرى بين واسط وبغداد.

(٤) شعب بوان: مرج خصيب في بلاد فارس يوصف بالنضارة حتى يقال: إنه إحدى الجنان الأربع.

(٥) هو بناء للبرامكة. معجم الأدباء ١٨/ ١٤٣، والمجتنى ص ١١، وديوان ابن دريد ص ٨٣، والمنتخب من معجم الشيوخ ١/ ١٥٥، والخبر دون الشعر في مقدمة الزهرة ١/ ٢٨، وحاشية نشوار المحاضرة ٢/ ٢١٠.

فَنُــزْهَتُنَــا وَاسْتِــرَاحَتُنَــا ... تَـلاَقِــي العُيُـونِ وَدَرْسُ الكُتُــبْ

* * *

أحمد بن محمد بن أحمد[1] :

قال يوسف بن عبد البر : أنشدني أحمد بن محمد بن أحمد رحمه الله :

أَلَـذُّ مـا طَلَـبَ الفتَـى بَعْـدَ التُّقـىٰ ... عِلْــمٌ هُنــاكَ يــزينُــهُ طَلَبُــهْ

وَلِكُــلِّ طــالِــبِ لَــذَّةٍ مُتَنَــزَّهٌ ... وَأَلَــذُّ نُــزْهــةِ عــالِــمٍ كُتُبُــهْ

وسألني أن أزيد فيها فزودته بحضرته :

يُسْلـي الكتـابُ همـومَ قـارئِـهِ ... ويبيــنُ عنــهُ إن قــرأ نَصَبُــهْ

نِعْــمَ الجليــسُ إذا خلـوتَ بــه ... لا مَكــرُهُ يُخشــى ولا شَغَبُــهْ

* * *

قالوا[2] :

الكتبُ بساتينُ العقلاء .

* * *

وقالوا[3] :

روضةُ العلم أَزينُ من روضة الرّياحين .

* * *

---

(١) جامع بيان العلم ص ٥٨٢ ، والجامع لأخلاق الراوي ٢/ ١٧٢ ، والبيت الثاني وحده دون نسبة في العقد الفريد ٢/ ٢١٠ و ٤/ ٢٠١ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٦ ، والمحاسن والمساوىء ص ٦ ، والتمثيل والمحاضرة ص ١٦٠ .

(٣) بهجة المجالس ٣/ ١٩١ .

بعض العلماء[1]:

قيل لبعض العلماء: ما بَلَغَ من سرورك بأدبك وكُتُبك؟

فقال: هي إن خَلَوْتُ لذّتي، وإن اهتممتُ سَلْوَتي. وإن قلتَ: إنَّ زهْرَ البستان، ونَوْر الجنان، يَجْلُوان الأبصار، ويُمْتِعَان بحسنهما الألحاظ؛ فإن بستانَ الكتب يَجْلُو العقل، ويَشْحَذُ الذِّهْن، ويُحيي القلب، ويقوِّي القريحة، ويُعِينُ الطبيعة، ويَبْعَثُ نتائج العقول، ويستثير دفائنَ القلوب، ويُمتِعُ في الخَلْوَةِ، ويُؤْنِسُ في الوَحْشَة، ويُضْحِكُ بنوادره، وَيُسرُّ بغرائبه، ويفيد ولا يَستفيد، ويُعْطي ولا يأخذ، وتَصِلُ لذَّته إلى القلب، من غير سآمة تُدْرِكُك، ولا مشقةٍ تَعْرِض لك.

* * *

المأمون[2]:

قال الفضل بن سهل للمأمون وهو بدمشق بدَيْرِ مَرّان مشرف على غوطتها: يا أمير المؤمنين، هل رأيت في حسنها شبيهاً في شيء من ملك العرب؟ ـ يعني الغوطة ـ .

قال: بلى والله، كتاب فيه أدب يجلو الأفهام، ويذكي القلوب، ويؤنس الأنفس، أحسن منها.

* * *

أحمد بن محمد بنّاني:

قال عبد الفتاح أبو غدّة[3]: ولشيخنا العلامة الفقيه الأديب القاضي

---

(١) زهرة الآداب ١/ ١٨٤.

(٢) المحاسن والمساوىء ص ٦.

(٣) صفحات من صبر العلماء ص ٣٢٣.

أحمد بن محمد بَنَّاني، المغربيِّ الرِّبَاطيِّ، حفظه الله تعالى وأمتَعَ به، أبياتٌ لطيفةٌ في التعلُّق بالكتب ومطالعتها، سمعتُها منه مراتٍ متعددة في مدينتِهِ الرِّباط بالمغرب، آخِرها في يوم الخميس ٢٥ من شوال سنة ١٤٠٣هـ، وقد بَلَغ من العُمر المِئة إلاَّ سنتين وكُفَّ بصرُه، أحسن الله إليه، قال:

إذا رُمْتَ الجِنَانَ وساكِنيها ... وإمتاعَ العُيُون بما يُفِيدُ
فكُتْبُكَ جَنَّةُ الفِرْدَوْس فيها ... ثمارُ الخُلْدِ تَجْني ما تُرِيدُ
وغَذِّ الرُّوحَ منها كلَّ وقتٍ ... ولا تَشْبَعْ فُروحُك لا تَحيدُ
وإن فاتَ الزَّمانُ عليكَ جَنْيَاً ... فعُدْ واْقطِفْ ثِماراً لا تَبيدُ
وإيَّاك التخلِّي عن جَنَاهَا ... فعَقْلُك من غِذاها يَستفِيدُ

* * *

أنشد علي بن الجهم[1]:

سميرٌ إذا جالسته كان مسلياً ... فؤادك مما فيه من ألم الوجدِ
يفيدك علماً أو يزيدك حكمةً ... وغير حسودٍ أو مصر على الحقد
ويحفظ ما استودعته غير غافلٍ ... ولا خائناً عهداً على قدم العهد
زمان ربيع في الزمان بأسره ... يبيحك روضاً غير ذاوٍ ولا جعدِ
ينوّر أحياناً بورد بدائعٍ ... أَحَقُّ وأولى بالنفوس من الورد

* * *

أَحمد بن محمد العروضي[2]:

إن جمع الدفاترِ ... عدة للبصائرِ
قد حوت كل فاخر ... من صنوف الجواهر

(١) ديوان علي بن الجهم ص٢٥٩، وسراج الملوك ص٥٧٩.

(٢) تقييد العلم ص١٢٩، ودون نسبة في المخلاة ص٢٦٥ من قصيدة في الدفاتر وفضلها.

وعلــوم قــد أوضحــت ... كــل مــاضٍ وغــابــر
وعجيــب مــن الأمــو ... ر بعيــدٍ وحــاضــر
يكتفــي كــل عــالــم ... بــارع اللفــظ بــاهــر
بــريــاض مقيمــة ... فــي بطــون الــدفــاتــر
يتنــاجــون صــامتيــن ... بمــا فــي الضمــايــر
وهــم إن خبــرتهــم ... بيــن نــاهٍ وزاجــر
ومشيــر بمــا يــراه ... وداع وآمــر
فتمســك بهــا تفــز ... بسنــي الــذخــائــر

* * *

عبدُ الله بن المظفّر بن المُسلمة، أبو جعفر ابن أبي شُجَاع[(١)] :

خير ما جالس اللبيبَ كتابٌ ... لا قريناً فيه رياً ونفاقُ
هو مثل الرياض حقّاً كما أو ... راقها بينها لها أوراقُ

* * *

محمود بن عمر الشيباني المعروف بابن رقيقة[(٢)] :

لمّا رأيت ذوي الفضائل والحجا ... لا ينفقون وكل فدم ينفق
ألزمت نفسي اليأس علماً إن لي ... رباً يجود بما أروم ويرزق
ولزمت بيتي واتخذت مُسامري ... سِفراً بأنواع الفضائل ينطق
لي منه أنَّى جئته متصفحاً ... عما حوى روض نضير مونق

* * *

(١) خريدة القصر (العراق) ١/ ١٥٤، ومعجم الألقاب ٣/ ٥٢٤، وتاريخ الإسلام ٤٢/ ٩٥، والوافي ١٧/ ٦٢٧.
(٢) عيون الأنباء ص ٧٠٩.

الحسن بن أحمد المخل(١) :

يا من غدا نحو أشجارِ البَساتين ... يبغـي التّنـزّه فـي تلـكَ الميـاديـنِ
الكتب عندي أسرى نزهة خُلقت ... سائل بذلك أهلَ العلم والدينِ
إن البسـاتيـن فـي وقـتٍ لتُعجبني ... والكتب ويحك شيءٌ ليس بالدّونِ
يا طالب الكتب توعيها وتجمعها ... أبشـر فـإنّـك ميمـونُ الميـاميـنِ

* * *

عبد الحليم أخي زاده الحنفي(٢) :

كتب لبعض الأصدقاء بهذا الاستدعاء :

أنـا فـي البستـان وَحْـدي ... والصَّبـا فيـه تَهُـبُّ
فيـه محبـوبـي كتـابـي ... فليكـن مَعْـهُ المحـبُّ

* * *

السّري بن أحمد الرّفّاء(٣) :

له من قصيدة يدْعُو أبا بَكْرٍ مُحمَّدَ بنَ عليٍّ المَرَاغِـيَّ النَّحويَّ ويصِفُ لهُ كُتُباً عِندَه وبُستاناً في دَارِهِ . . . ويُرغّبُه في المَجيء إليه :

عِنْدِي إذا ما الرَّوْضُ أَصْبَحَ ذَابِلا ... تُحَفٌ أَغضُّ مِنَ الرِّياضِ شَمَائِلا
خُـرْسٌ تُحَـدثُ آخِـراً عـن أوّلٍ ... بِعَجَـائِـبٍ سَلَفَـتْ وَلَسْـنَ أَوائِـلا
سُقِيْت بأطرافِ اليَراعِ ظُهُورُها ... وَبُطُـونُهـا طَـلاًّ أَحَـمَّ وَوَابِـلا
تَلْقاكَ في حُمْرِ الثِّيابِ وسُودِها ... فَتَخـالُهُـنَّ عَـرائِسـاً وثَـواكِـلا

---

(١) تاريخ دمشق ٧/ ٢٢٨ .

(٢) سانحات دمىٰ القصر ١/ ٢١٣ .

(٣) ديوان السّري الرّفاء ٢/ ٥٩٠ ، والحماسة الشجرية ٢/ ٨٠٠ ، وتقييد العلم ص ١٣٠ ، ونفحة الرّيحانة ١/ ٢١٣ .

وتُريكَ ما قَدْ فَاتَ مِنْ دَهْرٍ مَضَى ... حتَّى تَراهُ بِعَيْنِ فِكْرِكَ ماثِلا
وإذا خَلَوْتَ بِهِنَّ ظَمآنَ الحَشَا ... مَنَحَتْكَ منْ صَوْبِ العُقُولِ مَنَاهِلا
وَلَها إذا حُلَّتْ نَتاجُ غَرائبٍ ... يَمكُثْنَ ما زُرَّتْ بِهِنَّ حَوامِلا
يَلْبَسْنَ أَردِيَةَ الأَديم كأنَّما ... رَقْرَقْتَ فِيهِنَّ الخَلُوقُ السَّائِلا
وإذا مَدَدْتَ لَها يَمِينَكَ فاتِحاً ... عَبِقَتْ يَمينُكَ راحَةً وأَنامِلا
نَشَرَتْ حَدَائِقُها على أَمثالِها ... حُلَلاً مُدَبَّجَةً وحَلْياً كامِلا
رَوْضٌ تُزَخرِفُهُ العُقُولُ وَرَوْضَةٌ ... بَاتَتْ تُزَخْرِفُها الغُيُوثُ هَواطِلا

* * *

يوسف البديعي، من قصيدة[1]:

وكم نَمَّقتْ أفكارُه غَلَسَ الدُّجى ... رياضاً سقَاها الفضْلُ طَلًّا ووَابِلاَ
حدائقُ لم يكْسُ الهجيرُ نَظِيرَها ... ذُبُولاً وقد تلْقى الرياضَ ذَوَابِلاَ
عَرائِسُ تلْقاها بضَافِي ثِيابِهَا ... فإنْ لاَحَ ما فيهنَّ قُلْتَ ثَواكِلاَ
تُجِيبُكَ عَمَّا رُمْتَ وَهْيَ صوامِتٌ ... ومَن ذا رَأَى خَرْساً تُجيب المُسائِلاَ
بدائعُ فِكْرٍ للأَواخِرِ وَطَّدتْ ... محاسِنَ ذِكْرٍ تَسْتَقِلُّ الأَوَائِلاَ

* * *

أبو القاسم بن حسان الإشبيلي[2]:

قال ابن سعيد علي بن موسى: ودخلت إليه مع والدي وهو بهذا القصر في بهوٍ قد ملأه من الكُتب، وحَلّ منها بمنزلة البدر من الشُّهب، لا بل الشمس في تكاثف السُّحب؛ فسافرت أبصارنا في تلك الساحة العريضة الطويلة، وتقيدت بمحاسن رياضه البديعة الجميلة؛ ثم جالس والدي بما

(١) نفحة الرّيحانة ١/ ٢١٣.
(٢) اختصار القدح المعلّى ص ١٤٨.

لديه من فنون الآداب فأطنب وما قَصَّر، فلما أخَذَتِ المحاضرةُ والمؤانسةُ حقَّها سأله والدي أن يُنشدني شيئاً من شعره أتشرّف بين أقراني بذكره؛ فأنشدنا فيما بين يديه من الأسفار والأزهار عجِلاً، حتى قلنا: إنه قال ذلك مُرتجلاً:

إني اطرحت سوى ما تستلذّ به ... عيني وسَمعِي من زَهر ومن أدَبِ
فلستُ أبرح والأيام شاغلةٌ ... أُقسِّم الطرف بين الرّوض والكُتب
كم رُمْت حيث نجومُ الأُفق مَرتبةً ... فعارضتْني خُطوب الدّهر في الرُّتب
فحين أعطتْني الأيام خِبرتها ... أَرحتُ نفسيَ من هَمٍّ ومن تَعب
وإنْ بُليت بشخص دون منزلتي ... فالبدرُ يُبلَى على عَلياه بالذَّنب

* * *

علي أحمد[1]:

حَسْبِي الكِتَابُ أَهِيمُ في رَوْضَاتِهِ ... لا مُخْلِفاً وَعْداً ولاَ يَرْتَابُ
يُعْطِيكَ دُنْيَا بِالْجمال تَوَشَّحَتْ ... وَتَضُوعُ مِنْ جَنبَاتِهَا الأطْيَابُ
ويُرِيْكَ مَنْ غَابُوا بِكُلِّ شِيَاتِهِمْ ... يَتَحَاوَرُونَ كَأنَّهُمْ مَا غَابُوا

❑ ❑ ❑

(١) عن الحب ومنى الحلم ص ١٥.

١٠ـ فصل في
عشق الكتب على النساء

الإمام ابنُ الجوزي رحمه الله تعالى:

قال في كتابه «ذمّ الهوى»: إنَّ أربابَ اليَقَظَة عِشقُهم للفضائل من العلوم والعِفَّة، والصِّيانةِ والكرم، وغيرِ ذلك من الخلال الممدوحةِ، أَوْفى من مَيْلهم إلى شهوات الحِسّ، لأن شهوات الحِسّ حظُّ النفس، وتلك الخلالُ حظُّ العقل، والنفسُ الناطقةُ إلى ما يؤثره العقلُ أمْيَل، وإن جرَّها الطبع إلى الشهواتِ الحِسّيَّات.

* * *

الإمام أبو بكر ابن الأنباري محمد بن القاسم النَّحْويُّ[1]:

ومن أعجب ما نُقل إلينا من ذلك: خبر الإمام أبـي بكر ابن الأنباري.

فقد مَضَى يوماً إلى النخَّاسِين ـ بيَّاعي الرَّقيق من العَبيد والإماء ـ، ورأى جاريةً تُعرَضُ حسنةَ الصُّورةِ كاملَة الوصف، قال: فوقعَتْ في قلبـي، ثم مضيتُ إلى دار أمير المؤمنين الراضي بالله، فقال لي: أين كنتَ إلى الساعة؟ فعرَّفتُه، فأمَرَ بعضَ أَسْبابِه ـ أي غِلمانِه ـ فمَضَى فاشتراها،

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ١٨٤، وطبقات الحنابلة ٢/ ٧١، ونزهة الألباء ص ٢٠٠، وذم الهوىٰ ص ٤٩٤، والجامع في الحث على حفظ العلم ص ٣٠١، وإنباه الرواة ٣/ ٣٠٤، ومعجم الأدباء ٨/ ٣١٦، وبغية الوعاة ١/ ٢١٣، ومقدمة مجلس من آمالي ابن الأنباري ص ٦، والعلماء العزّاب ص ٨٢، وصفحات من صبر العلماء ص ٣٠٠، وعنه النقل.

وحمَلَها إلى منزلي، فجئتُ فوجدتُها، فعَلِمتُ الأمرَ كيف جرَى.

فقلتُ لها: كُوني فَوْق إلى أن أَستَبْرِئكِ ـ أي أتبيَّنَ براءةَ رَحِمكِ من الحَمْل، وذلك بحلول الحيضِ لها ـ، وكنتُ أطلُبُ مسألةً قد اختلَّتْ عليَّ، فاشتَغَل قلبـي عن علمي! فقلتُ للخادم: خُذْها وامضِ بها إلى النخَّاسين، فليس قَدْرُها أن تَشغَل قلبـي عن علمي، فأَخَذها الغلام.

فقالت: دَعْني أُكلِّمْه بحرفين، فقالَتْ: أنت رجلٌ لك مَحَلٌّ وعَقْل، وإذا أخرجَتني ولم تُبيِّن لي ذنبـي، لم آمَنْ أن يَظُنَّ الناسُ بـي ظناً قبيحاً، فعرِّفْنيهِ قَبْلَ أن تُخرِجَني، فقلتُ لها: ما لك عندي عَيْب، غيرَ أنكِ شَغَلْتِني عن علمي، فقالَتْ: هذا أسهلُ عندي.

قال: فبَلَغَ الراضيَ بالله أمرُه، قال: لا ينبغي أن يكونَ العلمُ في قلبِ أحدٍ أحلَى منه في صَدْرِ هذا الرجل!

* * *

أبو علي الحسن بن أحمد المنطقي(١):

وفي هذا المعنى قال:

غيـري يشـوقُ فـؤادَه حـدقُ الْمَهـا	ويـروقـه روضُ الخـدودِ بـوَرْدِهِ
وإذا تثنَّـى خَـوْطَ بـانٍ لـم أكـنْ	ممـن يَقُـدُّ حَشَـاه مُـرْهَـفُ قَـدِّهِ
لا أنَّ طبْعــي مسَّــهُ طَبْــعٌ ولا	أنّي صَفاً يَنْبُو الهوى عن صَلْدِهِ
لكـنَّ كنْهـي للمسـاعـي عـاقَنـي	عن عَسْف قلبـي في الْحِسان وكَدِّهِ
وإذا ابـنُ عَـزْمٍ لـم يقُـم متجـرداً	للحـادثـاتِ فصـارمٌ فـي غِمْـدِهِ
والسيفُ سُمِّيَ في النوائب عُدَّةً	لمضــائـه فيهــن لا لِفـرِنْـدِهِ

* * *

---

(١) المدهش ص ٤٩٤.

الشافعي والجارية والعلم[1]:

اشْتَرَى أصْحَابُ الشَّافِعِيِّ لَهُ جَارِيَةً، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أقْبَلَ عَلَى الدَّرْس، والجَارِيَةُ تَنْتَظِرُ اجْتِمَاعَهُ مَعَهَا، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَلَمَّا أصْبَحَتْ صَارَتْ إلى النَّخَّاس وَقَالَتْ: حَبَسُوني مَعَ مَجْنُونٍ!! فَبَلَغَ الشَّافِعِيَّ (رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى) قَوْلُهَا، فَقَال: المَجْنُونُ مَنْ عَرَف قَدْرَ العِلْم ثُمَّ ضَيَّعَهُ، أَوْ تَوَانَى فِيهِ حَتَّى فَاتَهُ.

ومن الشعر المنسوب إلى الإمام الشافعي في هذا المعنى[2]:

سَهَري لِتَنْقِيح العُلُوم أَلَذُّ لي	مِن وَصْلِ غانيَةٍ وَطِيبِ عِناقِ
وتمايُلي طَرَباً لِحَلِّ عَويصَةٍ	أَشْهَى وأَحْلَى مِن مُدامَةِ سَاقِ
وصَريرُ أقلامي على أوراقِها	أحْلَى من الدُّوكَاهِ والعُشّاقِ
وأَلَذُّ مِن نَقْرِ الفَتَاةِ لِدُفِّها	نَقْري لأُلقِي الرَّمْلَ عن أوراقي
يا مَنْ يُحَاوِلُ بالأمَانِيْ رُتْبَتي	كم بَيْنَ مُسْتَفِلٍ وآخر راقي
أأبيتُ سهرانَ الدُّجَى وتبِيتُهُ	نَوْماً وتَبغي بَعْدَ ذاك لَحَاقي؟!

* * *

---

(١) الحث عل طلب العلم ص٧٩، ونقلاً عنه في الجامع في الحث على حفظ العلم ص٣٠٣.

(٢) ديوان الشافعي ص ١٦٢، وقال المحقق: هي لتاج الدين السبكي في نور الأبصار ص ٤١٤، ومنهاج اليقين، والأبيات الثلاثة الأولى في الفائق في غريب الحديث ١/٨ للزمخشري، وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غده رحمه الله في «صفحات من صبر العلماء» ص ١٣٩: هذه الأبيات وجدتها معزوّة للزمخشري، في الترجمة المذكورة له في آخر تفسيره «الكشاف» التي كتبها الشيخ إبراهيم الدّسوقي رئيس المصحّحين بدار الطباعة البولاقية في مصر... وعزاها إلى التاج السبكي الفقيه أحمد الطحطاوي في حاشيته على «الدرّ المختار» ١/٢٢، وتابعه صاحب «ردّ المحتار على الدرّ المختار» ١/٢٣. قال الشيخ عبد الفتاح: وهي بشعر الزمخشري وأسلوبه أشبه، والله تعالى أعلم.

الحافظ الإمام أبو نصر السِّجْزِي[1] :

قال الحافظ أبو إسحاق الحبّال: كنتُ يوماً عند أبـي نصر السِّجزي، فدُقَّ الباب، فقُمتُ ففتحتُه، فدخلت امرأة وأخرَجتْ كيساً فيه ألفُ دينار، فوضعَتْه بين يدي الشيخ وقالت: أنفِقْها كما ترى. قال: ما المقصود؟ قالت: تتزوَّجُني، ولا حاجة لي في الزواج ولكن لأخدمك، فأمَرَهَا بأخذ الكيس وأن تنصرف.

فلما انصرفَتْ قال: خرجتُ من سِجِسْتان بِنيّة طلب العلم، ومتى تزوَّجتُ سقَطَ عني هذا الاسمُ، وما أُوثِرُ على ثواب طلب العلم شيئاً.

* * *

السيِّد أحمد الحموي[2] :

وقـائلـةٍ لِـمْ لا تَغَـزَّلُ فـي الظِّبَـا ... وطَبْعُك مِن ماءِ اللَّطافةِ قد رَوِي

فقلتُ لها قَدْرِي تَسَامَى عن الذي ... تَرُومِـي لِشُغْلِـي بالعلومِ وما رُوِي

* * *

عبد الله بن أبـي هاشم مسرور التجيبـي[3] :

قال أبو بكر بن عبد الرحمن: بلغني أن أهل عبد الله بن أبـي هاشم مسرور التجيبـي اشتروا له جارية، فزينوها وأدخلوها عليه. فلما كان الليل أخذ الكتاب، وكتب الليل كله، ولم يلتفت إليها، وأقام على ذلك نحواً من

---

(١) تاريخ الإسلام ٣٠/ ٩٧، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٥٥، وتذكرة الحفاظ ٣/ ١١١٩، والعقد الثمين ٥/ ٣٠٨، وصفحات من صبر العلماء ص ٨٧، والعلماء العزّاب ص ٦٧.

(٢) نفحة الريحانة ٤/ ٥٧٤.

(٣) رياض النفوس ٢/ ٤٢٤، وترتيب المدارك ٢/ ٣٤١.

شهر. فلما طال على الجارية ذلك قالت: إن كان ليس لك غرض فيَّ فبعني. فقال لها: من أنت؟ قالت: جاريتك، قال: أنا ما اشتريت جارية، امض إلى من اشتراك، يبعك. ففعلت. فأقام على حاله إلى أن مات.

* * *

شاعر[1]:

كتـاب أطـالعـه مـؤنـس   أحـب إلـيّ مـن الآنسـة
وأدرسـه فيـرينـي القـرو   ن حُضُوراً وَأعْظُمُهُم دارسة

* * *

عبد الوهَّاب بن محمد بن عبد الله التميمي الأحسائي[2]:

كَانَ ذَا حِرْصٍ وَٱجْتِهَادٍ إِلَى الْغَايَة، قَلِيلَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ حَتَّى إِنَّه ٱتَّفَقَ لَهُ سَبْعُ سِنِينَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا إلاَّ لِصَلاَةِ الْجُمُعَةِ، وَأَمَّا الْجَمَاعةُ فَفِي مَسْجِدِهَا، وَالأَكْلُ يَأْتِـي لَهُ مِن بَيْتِ وَالِدِهِ مَعَ الطَّلَبَةِ.

وَأَكَبَّ عَلَى تَحْصِيلِ العِلْم وَإِدْمَان المُطَالَعَةِ وَالْمُرَاجَعَةِ وَالْمُذَاكَرَةِ وَالْمُبَاحَثَةِ لَيْلاً وَنَهاراً، لَمْ تَنْصَرِفْ هِمَّتُهُ إِلَى غَيْرِهِ أَصْلاً، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا تَزَوَّجَ بِأَمْرِ وَالِدِهِ وَإِلْزَامِهِ أَخَذَ لَيْلَةَ الدُّخُولِ مَعَهُ الْمِحْفَظَةَ، فَلَمَّا ٱنصَرَفَ عَنْهُ النَّاسُ نَزَّلَ السِّرَاجَ وَقَعَدَ يُطَالِـعِ الدُّرُوسَ الَّتِـي يُرِيدُ أَن يَقْرَأَهَا فِـي غَدٍ، وَيُقَدِّر فِـي نَفْسِهِ أَنَّهُ بَعْدَ إِتْمَامِ الْمُطَالَعَةِ يُبَاشِرُ أَهْلَهُ، فَٱسْتَغْرَقَ فِـي الْمُطَالَعَةِ إِلَى أن أَذَّنَ الصُّبْحَ، فَتَوَضَّأَ وَخَرَجَ لِلصَّلاَةِ، وَحَضَرَ دُرُوسَ وَالِدِهِ مِنْ أَوَّلِهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ وَالِدُهُ بِذلِكَ لِكَوْنِهِ لاَ يُبْصِر.

---

(١) الرَّوضتين في أخبار الدولتين ص ٣، ونظم العقيان ص ٤، وتوشيح الديباج ص ٤٠، والعلماء العزّاب ص ٢٧٧.

(٢) السحب الوابلة ص ٢ وص ٦٨١.

وَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الدُّرُوس أَتَى إِلَيْهِ وَلَدُهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَبَارَكَ لَهُ وَبَارَك لَهُ الحَاضِرُونَ، وَفِي اللَيلَةِ الثَّانِيَةِ فَعَلَ كَفِعْلِه بِالأَمْسِ وَلَمْ يَقْرُبْ أَهْلَهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِلتَّرْكِ، لَكِن لاشْتِغَالِه بِالْمُطَالَعَةِ، فَيَقُول فِي نَفْسِه: أُطَالِعُ الدَّرْسَ ثُمَّ أَلْتَفِتُ إِلَى الأَهْلِ، فَيَسْتَغْرِق إِلَى أَن يُصْبِحَ، فَأَخْبَرَتِ الْمَرْأَةُ وَلِيَّهَا بِذلِكَ، فَذَهَبَ وَأَخبَرَ وَالِدَهُ بِالقِصَّةِ، فَدَعَاهُ وَالِدُهُ وَعاتَبَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ المِحْفَظَة، وَأَكَّدَ عَلَيْهِ بِالإِقْبَالِ عَلَيْهَا.

* * *

أحد زملاء الشيخ فيض الله الأيُّوبـي الكردي:

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة[1]: سمعتُ من شيخنا علَّامة المعقول الشيخ فيض الله الأيُّوبـي الكردي رحمه الله تعالى، أيامَ بدءِ دراستي للعلم في بلدنا حلب: أنَّ أحَدَ زملائه الذين كانوا يُحصِّلون العلم معه في مدارس الأكراد في بلاد العراق، كان رجلاً صالحاً وطالبَ علمٍ مُجِدٍّ محترقٍ بالعلم.

عَرَضَ عليه بعضُ الصالحين الأثرياء أن يزوِّجه ابنته، رغبةً في متانة دينه وعلمه وصلاحه، فعرضها عليه وخَطَبه إليها ليتزوَّجها، وأخبره أنه يَتكلَّف عنه كل تكاليف الزواج، ويُكرمُه مع ذلك بالمال الكثير والدار الواسعة الجميلة، رجاءَ أن يَقبلَ الزواجَ من ابنته، فقال له ذلك الطالبُ العالمُ الصالحُ: أرجو أن تَسمحَ لي بأن أُشَاوِر نفسي في هذا الذي تَعرِضُه عليَّ، قال الرجل: نعم، لك ذلك.

قال شيخنا رحمه الله تعالى: فالذي فَعَلَه ذلك الطالب، هو أنه كان يُشَاوِرُ نفسَه بالزَّوَاجِ وتَرْكِه، وذلك بأنه كان يُدني الكتابَ من قَلْبِهِ وصَدْرِهِ، فيَجدُ ارتياحاً عظيماً وسروراً غامراً، ثم يُبعِدُ الكتابَ ويفكر بالزوجة وبهجتها والأُنسِ بها عنده، فيجد في قَلْبِهِ انقباضاً وضِيقاً!

---

(١) العلماء العزّاب ص ٢٧٨.

فلما راجعه والدُ الفتاة قال له: بارك الله لك في ابنتك المؤمنة الصالحة، وعوَّضها غيري خيراً مني، واعذُرْني أن أَبقَى مع العلم والكتاب.

وآثَرَ العلمَ على الزوجة وبهجتها وتقديمها له هديةً كريمة، مصحوبةً بالدار والجهازِ والمال.

* * *

خليل جَوَاد الخالدي[1]:

كان خليل جَوَاد الخالدي من أعلم الناس بالمخطوطات النادرة وأماكنها، رحالةً طوَّافاً في جنبات الأرض وراء شوقه إلى الوقوف على المخطوطات في المكتبات.

لا يفتأ عن الأسفار من دار إلى دار، يتطلَّبُ المزيدَ من المعرفة، ويصبرُ على مشاق الغربة ومتاعب الارتحال، وكان يستطيب ذلك ويَلَذُّه ويراه أفضلَ المُتَع الطيبة التي يَستمتع بها. وعاش عَزَباً لم يتزوج مع الغِنى واليسار.

وفي أواخر عُمرِه ألحَّ أهلُه عليه بأن يتزوَّج، فتمنَّع كثيراً فأصرُّوا عليه فأظهر لهم الموافقة ونزل على رأيهم، فاختاروا له زوجة وعقدوا له العقدَ عليها، وزَفُّوها إليه، فاستقبلها مع من زفَّها إليه من أهله، ثم استأذنها إلى غرفة كتبه، ليراجع بعض الكتب، واستَغرَق في مراجعته وطال انتظارُ الزوجة له! فذُكِّر بها وأنها على انتظارِ عودتِهِ إليها، فأجاب قائلاً: إني عنها في شُغُل.

ثم طلَّقها وبقي عَزَباً. وقد دخلت العروسُ بيتَه، وصارت تحت كنفه ومرأى عينِه وأقربَ إليه من كل قريب، ولكنه كان تعلقُه بالعلم ومسائِلِه

---

(١) العلماء العزّاب ص ٢٣٥.

وإيثارُهُ له أقوى من تعلقه بالعروس وزينتها، وكان تحصيلُ المسألة أحبَّ إليه وأسرَّ في نفسه من اقتراب الزوجة والأُنسِ بها.

فللَّه دره ما أغلى العلمَ عنده، فمات عاشقاً للعلم وصادقَ الإيثارِ له، عوَّضه الله الحُورَ العين، في جنات النعيم.

وتُوُفِّي بالقاهرة سنة ١٣٦٠هـ رحمه الله تعالى.



١١ـ فصل في
الكتاب والزوجة

الزّبير بن بكّار القرشي[١] :

قال: قالت بنتُ أختِي لزوجتي: خالي خيرُ رجل لأهلِه، لا يتّخذ ضَرَّةً ولا يشتري جارية.

فقالت المرأة: واللَّهِ لهذه الكُتُبُ أشدُّ علي من ثلاثِ ضرائر.

* * *

محمد بن أحمد بن علي ابن مَخْلَد أبو عبد الله البغدادي الجوهري المحتسِب المعروف بابن مُحْرِم الفقيه، أحد تلامذة محمد بن جرير[٢] :

قال: لمَّا تزوجت وحُملت إليّ المرأةُ، جلست في بعض الأيام أكتب

---

(١) نثر الدرّ ٤/ ١٠٢، وتاريخ بغداد ٨/ ٤٧١، والجامع لأخلاق الراوي ١/ ١٥٠، والمنتظم ١٢/ ١١١، وروضة المحبّين ص ٦٩، وأخبار الظرفاء ص ٢٢٢، ووفيات الأعيان ٢/ ٣١٢، وتاريخ الإسلام ١٩/ ١٣٩، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٣١٣، والعلماء العزّاب ص ٢٥٦، وصفحات من صبر العلماء ص ٢٥٦، وظرفاء ولكن حكماء ص ١٧٠، وحاشية معجم الأدباء ١١/ ١٦١، والجامع في الحث على حفظ العلم ص ٤٧، وجاء في الوافي ١٤/ ١٨٨ برواية: قال: تزوّجت امرأةً وعندي أخرى، فما زالت بي حتى طلّقتُها وأقبلتُ على بيت فيه كتب، فجاءت المرأة فأخذت بعضادَتي الباب وقالت: لَكُتُبُكَ شرٌّ عليّ من أربع ضرّات.

(٢) تاريخ بغداد ١/ ٣٢٠، ومرآة الزمان (طبعة بغداد) ص ١٥٧، والمنتظم ١٤/ ١٩٢، وأخبار الظرفاء ص ٢٢، وتاريخ الإسلام ٢٦/ ١٦٨، والبداية والنهاية ١١/ ٢٦٦، والعقد المذهب ص ٣٣٨.

شيئاً على العادة، والمحبرة بين يدي، فجاءت أمها فأخذت المحبرة، فضربت بها الأرض فكسرتها. فقلت لها في ذلك.

فقالت: هذه شرٌّ على ابنتي من ثلاث مئة ضَرَّة.

* * *

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب القرشي الزهري[1]:

كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوماً: والله لهذه الكتب أشد عليَّ من ثلاث ضرائر.

* * *

الليث بن رافع بن نصر بن سيَّار وزوجته وكتاب العين[2]:

حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ فِي كِتَابِ الشُّعَرَاءِ عَنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْمُهَلَّبِيِّ قَالَ: كَانَ الْخَلِيلُ مُنْقَطِعاً إِلَى اللَّيْثِ بْنِ رَافِعِ بْنِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، وكَانَ اللَّيْثُ مِنْ أَكْتَبِ النَّاس في زَمَانِهِ، بَارِعَ الأَدَبِ بَصِيراً بِالشِّعْرِ وَالْغَرِيبِ وَالنَّحْوِ، وَكَانَ كَاتِباً لِلْبَرَامِكَةِ وكَانُوا مُعْجَبِينَ بِهِ، فَارْتَحَلَ إِلَيْهِ الْخَلِيلُ وَعَاشَرَهُ فَوَجَدَهُ بَحْراً فَأَغْنَاهُ.

---

(١) مرآة الجنان ١/ ٢٦٠، ووفيات الأعيان ٤/ ١٧٨، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٤٩، وشذرات الذهب ٢/ ١٠٠، ونزهة الجليس ٢/ ٤٠٣، وروضات الجنات ٧/ ٢٣٢، والضاحكون ص ٢٤٢.

(٢) طبقات الشعراء ص ٩٧، ومعجم الأدباء ٩/ ٤٥، والوافي ٢٤/ ٤١٥، وبغية الوعاة ١/ ٥٦٠، ونور القبس ص ٥٩، وروضات الجنات ٣/ ٢٧٩، وإنباه الرواة ٣/ ٤٢، وإشارة التعيين ص ٢٧٨، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ص ٧١٩.

وَأَحبَّ الْخَلِيلُ أَنْ يُهْدِي إِلَيْهِ هَدِيَّةً تُشْبِهُهُ، فَاجْتَهَدَ الْخَلِيلُ فِي تَصْنِيفِ كِتَابِ الْعَيْنِ فَصنَّفَهُ لَهُ، وَخَصَّهُ بِهِ دُونَ النَّاسِ وَحَبَّرَهُ وَأَهْدَاهُ إِلَيْهِ، فَوَقَعَ مِنْهُ مَوْقِعاً عَظِيماً وَسُرَّ بِهِ، وَعَوَّضَهُ عَنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ.

وَأَقْبَلَ اللَّيْثُ يَنْظُرُ فِيهِ لَيْلاً وَنَهَاراً لاَ يَمَلُّ النَّظَرَ فِيهِ حَتَّى حَفِظَ نِصْفَهُ، وَكَانَتِ ابْنَةُ عَمِّهِ تَحْتَهُ، فَاشْتَرَى اللَّيْثُ جَارِيَةً نَفِيسَةً بِمَالٍ جَلِيلٍ، فَبَلَغَهَا ذَلِكَ فَغَارَتْ غَيْرَةً شَدِيدَةً فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لأَغِيظَنَّهُ وَلاَ أُبْقِي غَايَةً، فَقَالَتْ: إِنْ غِظْتُهُ فِي الْمَالِ فَذَاكَ مَا لاَ يُبَالِي بِهِ، وَلَكِنِّي أَرَاهُ مُكِبًّا لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ عَلَى هَذَا الدَّفْتَرِ، وَاللَّهِ لأَفْجَعَنَّهُ بِهِ.

فَأَخَذَتِ الْكِتَابَ وَأَضْرَمَتْ نَاراً وَأَلْقَتْهُ فِيهَا، وَأَقْبَلَ اللَّيْثُ إِلى مَنْزِلِهِ وَدَخَلَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْكِتَابُ فَصَاحَ بِخَدَمِهِ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْكِتَابِ فَقَالُوا: أَخَذَتْهُ الحُرَّةُ، فَبَادَرَ إِلَيْهَا وَقَدْ عَلِمَ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا ضَحِكَ فِي وَجْهِهَا وَقَالَ لَهَا: رُدِّي الكِتَابَ فَقَدْ وَهَبْتُ لَكِ الْجَارِيَةَ وَحَرَّمْتُهَا على نَفْسِي، وَكَانَتْ غَضْبَى فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ وَأَدْخَلَتْهُ رَمَادَهُ، فَسُقِطَ فِي يَدِ اللَّيْثِ، فَكَتَبَ نِصْفَهُ مِنْ حِفْظِهِ، وَجَمَعَ عَلَى الْبَاقِي أُدَبَاءَ زَمَانِهِ وَقَالَ لَهُمْ: مَثِّلُوا عَلَيْهِ وَاجْتَهِدُوا، فَعَمِلُوا هَذَا النِّصْفَ الَّذِي بِأَيْدِي النَّاسِ، فَهُوَ لَيْسَ مِنْ تَصْنِيفِ الْخَلِيلِ وَلا يَشُقُّ غُبَارَهُ، وَكَانَ الْخَلِيلُ قَدْ مَاتَ.

* * *

سيبويه[1]:

حدَّث أبو علي الفارسيُّ قال: تزوج سيبويهِ بالبَصْرَةِ بجاريةٍ عشقَتْه، وهو قد بنى عَقْدَ كتابه، وصنَّفَ أوائل أبوابه، وهي في جُزازاتٍ وقِطَعِ جُلُودٍ،

(١) الفصوص ٥/ ٩.

وخِرَقٍ، وأَشْقَافِ بيض. فلم يَكُن يُقْبِل على الجارية، ولا يشتغل بها، وهي مشغوفة بِحُبِّه. ولم يكن يشغلُه غيرُ النظرِ والسَّهرِ والكتب.

فترصدتْ خروجَه إلى السوق في بعض حوائجه، وأخذتْ جَذْوَةَ نارٍ فَطَرَحَتْها في الكتبِ حتى أُحْرِقَتْ، فرجع سيبويه، فنظر إلى كُتُبِه وهي هَبَاءٌ، فَغُشِيَ عليه أَسَفاً، ثم أفاق فطلَّقها، ثم ابْتَنَى الكتابَ بعد ذلك ثانيةً.

قال أبو علي: وذهب منه علمٌ كبير أخذه على الخليل فيما احترق له، وإنّا لله على ذلك.

* * *

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري[1]:

صحب يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، لتعلّم العلم، على فقر شديد، فكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش، فيعود إلى منزلٍ مختلّ، وأمرٍ قلّ، فطال ذلك، وكانت امرأته تحتال له ما يقتاته يوماً بيوم.

فلما طال ذلك عليها، وكان خرج إلى المجلس، وأقام فيه يومه، وعاد ليلاً فطلب ما يأكل، فجاءته بغضارة مغطّاة، فكشفها، فإذا فيها دفاتر. قال: ما هذا؟ قالت: هذا ما أنت مشغول به نهارك أجمع، فكُلْ منه ليلاً، قال: فبكى، وبات جائعاً، وتأخّر من غدٍ عن المجلس، حتى احتال ما أكلوه.

فلما جاء إلى أبـي حنيفة، سأله عن سْبب تأخّره، فصَدقهُ. فقال: ألا عرّفتني، فكنت أمدّكَ؟ ولا يجب أن تغتمّ، فإنّه إن طال عمرك فستأكل بالفقه اللوزينج بالفستق المقشور.

قال أبو يوسف: فلمَّا خدمت الرشيد، واختصَصْتُ به، قُدِّمَتْ

---

(١) نشوار المحاضرة ١/ ٢٥١.

بحضرته يوماً جامة لوزينج بفستق، فحين أكلت منها، بكيت، وذكرت أبا حنيفة. فسألني الرشيد عن السبب في ذلك، فأخبرته.

* * *

أبو الحسن علي بن الحسن الضرير المقرىء[1]:

تزوج أبو الحسن علي بن الحسن الضرير المقرىء بجارية محتشمة من جواري دار الخلافة وكانت راغبة فيه، فوهبت له تركة ملآة ذهباً، فأنفقه كله في العلم وشراء الكتب النفيسة وتحصيل الأصول الحسنة.

* * *

علاء الدين أبو بكر ابن مسعود بن أحمد الكاساني[2]:

تفقّه على علاء الدين محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي وزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ فاطمة الفقيهة العالمة. قيل: إنَّ سببَ تَزْويجه بابْنَةِ شَيْخِهِ أنها كانتْ مِن حِسَانِ النِّساء، وكانت حَفِظَت «التحفة» تصنيفَ والدِها، وطلبَها جماعةٌ مِن مُلوكِ بلادِ الرُّوم، فامْتَنع والِدُها، فجَاء الكَاسانيُّ، ولَزِمَ والدَها، واشْتغلَ عليه وبَرَع في عِلْمَي الأُصول والفُروع، وصنَّف كتابَ «البدائع» وهو شرح للتُّحْفَة، وعَرضَه على شَيْخه فازْدادَ فَرحاً به، وزَوَّجهُ ابنتَه، وجعل مَهْرَها منه ذلك، فقال الفُقَهاءُ في عصره: شَرَحَ تُحْفَتَهُ وزَوَّجَه ابْنَتَهُ.

* * *

إسحاق بن راهويه[3]:

قال أحمدُ بن سَلَمة النَّيْسَابوريُّ: تزوَّج إسحاقُ بن راهويه بامرأةِ رجلٍ

---

(١) ذيل تاريخ بغداد ٣/ ٢٥٨.

(٢) الجواهر المضيئة ٤/ ٢٦، وتاج التراجم ص ٣٢٨، ومعجم الألقاب ٢/ ٢٩١.

(٣) حلية الأولياء ٩/ ١٠٣، والانتقاء ص ٧٤، وتاريخ دمشق ٥١/ ٣٦٩، وتاريخ الإسلام ١٤/ ٣٣٥، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٠ (وانظر الحاشية).

مات، كان عنده كُتُبُ الشافعي، لم يتزوّج بها إلَّا للكُتُب.

* * *

أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني[1]:

امتلأت البلادُ بـ «مختصره» في الفقه، وَشَرَحَه عدةٌ من الكبار، بحيث يُقال: كانت البِكْر يكون في جهازها نسخةٌ لـ «مختصر» المزني.

* * *

هيوم[2]:

ماذا أريد أن أنال فوق ما نلت؟... زوجة؟؟! فهذه ليست من ضرورات الحياة... أما الكتب فهذه من ضروراتها، وعندي منها فوق ما يكفيني.

* * *

بيرم التونسي[3]:

لكلِّ امرىء عُرْسٌ تهدهِدُ قَلْـ ... ـبهَ وتؤنس مغناه صباحَ مساءَ
وتكفيه ـ إذ ترعاه ـ تدبيرَ عيشه ... وتملأ عطراً قلبه وضياءَ
وإن جرَحتْه الحربُ تأسُ جراحه ... فيُشْفَ، كأن لم يلقَ ـ قبلُ ـ عناءَ
وهأنذا وحدي، وما لي أنيسَةٌ ... سوى الكتْبِ، لكن لا تفيدُ شفاء

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٩٣.
(٢) أنيس الجليس ص ١٧.
(٣) رباعيات بيرم التونسي ص ١٠٣، قصيدة بعنوان «متاعب العُزوبة».

محمود العماد[1] :

تغـــارُ مـــن الكتـــاب إذا رأتنـــي أُطـــالعـــه وأتـــركُ وجنتيهـــا
تضـنّ بفكـرتـي فـي مـا عـداهـا وتُنكـــرُ نظـــرتـــي إلاَّ إليهـــا
وتنفـــر مـــن مقـــالٍ ليـسَ فيهـا ولـــو شمـــلَ الحيـــاةَ وملحقيهـــا
وتحسَـبُ هيكلـي ومحيـطَ نفسـي بقيَّـــة إرْثهـــا مـــن والـــديهـــا
وقـد ظَفِـرَ الكتـابُ ببعـضِ هـذا لـــذلـــك كـــانَ إحـــدى ضـــرَّتيهـــا
فنظـمُ (أبـــي العـــلاء) أحـبُّ منـه حـــديـــثٌ عـــن نظـــامِ ذُؤابتيهـــا
ونثـرُ (ابـــن المقفـــع) لا يـــوازي نثـــارَ الـــورد مـــن إحـــدى يـــديهـــا
وعلـمُ الكـونِ إنْ لـم يـروِ عنهـا فـــذا لا ينطلـــي أبـــداً عليهـــا
ولكـن مـن كتـابـي لـي اعتـذارٌ فهـــل هـــو رائـــجٌ فـــي مسمعيهـــا
أُطـــالعـــه فـــأفهـــمُ مـــا لـــديـــهِ ولـــم أفهـــمْ بجُهْـــدي مـــا لَـــدَيهـــا

* * *

أحمد خير الدين[2] :

إن (الصحائف) للفتاة كـ (ضرة) تلهـي فتـاهـا عـن لـذيـذ حـوارهـا
أمـا (الكتـاب) ببيتهـا فتخـالـه صِـلًّا خبيثـاً دب تحـت إزارهـا
تـدعـو علـى رب[3] اليـراعـة ليتـه شُلَّـتْ يمينـه كـي تفـوز بثـارهـا
ولتستقـــل بحبهـــا فـــي بيتهـــا كاللبوة الشرساء وسط وجارها

* * *

(١) طرائف الشعراء ص ١٣٦ .

(٢) ديوان أحمد خير الدين ص ١٧ ، قصيدة بعنوان «المرأة والصّحف» .

(٣) كلمة رب هنا تعني : سيد، أو صاحب.

لا زوجة بعد الآن:

تزوج أحد عشاق الكتب، فصممت زوجته أن تقلعه عن شراء الكتب. وفي أحد الأيام دخل عليها متأبطاً حزمة من الكتب الجديدة، فثار ثائرها وصاحت به: لا كتب بعد الآن!

فأجابها فوراً: إذاً، لا زوجة الآن[1].

* * *

ليتني كنت كتاباً:

تعوّد أحد الأساتذة في جامعة أكسفورد أن يقضي في مكتبه كل يوم خمس ساعات. واتفق ذات مساء أنه تأخر عن موعد العشاء، فذهبت امرأته إلى المكتبة لتذكره بموعد عشائه. وهناك، وجدته غارقاً بين أكداس من الكتب، فقالت: ليتني كنت كتاباً!

فقال لها زوجها: ولماذا؟

فأجابت: لأنني لو كنت كتاباً، لظفرت بوقتك كله.

فقال: ولكنك أفضل لو كنت تقويماً سنويًا.

قالت: وما تعني بهذا؟

أجابها: إذاً كنت أحظى بتقويم جديد كل سنة[2].



(١) الضاحكون ص ٤٤٢.

(٢) الضاحكون ص ٣٨٧، وظرفاء فرنسا ص ٦٠ «عن المركيز دو بييفر»، واضحك مع آدم وحواء ص ١٢.

١٢ـ فصل في
ما ورد في مقدّمات الكتب في الكتاب

قال أبو الفرج المعافى بن زكريا في مقدمة كتابه الجليس الصالح الكافي[١]:

الكتاب إذا حوى الحكمة وأنواع الفائدة، كان لمقتنيه والناظر فيه بمنزلة جليس كامل وأنيس فاضل، وصاحب أمين عاقل، وقد قيل في الكتاب ما معناه: أنه حاضر نفعه، مأمون ضرّه، ينشط بنشاطك فينبسط إليك، ويمل بملالك فينفض عنك، إن أدنيته دنا، وإن أنأيته نأى، لا يبغيك شراً، ولا يُفشي عليك سراً، ولا ينم عليك، ولا يسعى بنميمة إليك.

* * *

وقال محمد بن الحسن بن حمدون في مقدّمة كتابه «التذكرة الحمدونية»[٢]:

هذا كتاب جمعته حين بُدِّل الصفو بالكدر، وغيَّرتْ بني الأيام الغِيَر، وفسدَ الزمانُ، وخان الإخوان، وأوحشَ الأَنيس، وخيف الجليس، وصار مكروه العزلَةِ مندوباً، ومأثورُ الخلطة محظوراً، وأضاءت آثارُ الوحدة في القلوب فأنارتها، وحكمت العقولُ بفضيلةِ التخلِّي فاختارتها.

فوجدت الكتاب خيرَ صاحبٍ وقرين، وأفضلَ رفيق وخدين، لا يخونُ

---

(١) ١/ ١٦٢، وتقييد العلم ص ١٢٠.

(٢) ١/ ٢٢.

ولا يمين، ولا يماكر ولا يناكر، ولا يعصي ولا ينافر، المفضي إليه بسرِّهِ مستظهرٌ آمن، والمصاحبُ له وادعٌ ساكن، مأمون الهفوة والزلة، محمود الخلوة والخلَّة.

فهو لمن وُفِّقَ للاعتزال أسلمُ خليل، وأكرمُ أخٍ برٍّ وَصول، ولمن سُلِبَ الإيثار، وحكمت عليه غلبةُ الاضطرار، تذكرة للناسي، وتبصرة للساهي.

* * *

وقال محمد بن أحمد الوشاء في مقدّمة كتابه «الفاضل في صفة الأدب الكامل»[1]:

قرأت، متَّعك الله بالسَّلامة، وحباك بالزُّلْفة والكرامة، ما كتبت تشكوه إلينا من قلة الثقة بأصحابك، وما تحمل من معاناة تلون الصديق، وسرعة ملل الرفيق، وأنَفة دالة الحميم، وشراسة خلق النديم.

وسألت أن أختار لك نديماً، متأدباً كريماً، تستعين به على طوارق غمومك، وتنفي به متكاثف همومك، وتفزع إليه من سهرك، وتدعو به عند ضجرك، وتعتمد عليه في أمورك، وتستعده لسرورك.

فرأيت استفراغ المجهود في طلب ذلك عذراً، ووجدان من ارتضى من خلائقه لمنادمتك عسراً، وأحببت أن أحبوك بنديم يروقك منظره، ويسرك مخبره، وتطيب مشاهده، وتكثر محامده، وتقل ذنوبه، وتفتقد عيوبه، إذا دعوته أسرع، وإذا حدثك أمتع، وإذا سألته أجاب، وإذا تكلم أصاب، وإذا استرفقته رفق، وإذا استنطقته نطق، لا يرهقك عُسْراً، ولا يحملك إصْراً، يلقى عنك مؤونة الحشمة، أميناً على المال والحرمة، استدعى به منك دوام الإخاء، وأوجب به عليك جميل الثناء.

---

(١) ص ٣٣.

فصنعت لك كتاباً في البلاغة والإيجاز والبراعة، وترجمته بكتاب «الفاضل»، لفضله على كل كتاب كامل، فأرسلت به إليك، لا ممتناً به عليك، لتجعله بدلاً من الجليس، وخلفاً من الأنيس.

* * *

وقال محمد بن داود الأصبهاني في «كتاب الزهرة»[1] :

وقَدَ عَزَمتُ لِما رأيتُ بكَ من غَلَبات الاشتياق، ومن ميلكَ إلى تعرُّف أحوال المشاقّ، أن أوجِّهَ إليكَ نديماً يُشاهد بك أحوال المتقدِّمين، ويُحضِرُكَ أخبار الغائبين، ينشَطُ بنشاطِكَ، ويَمَلُّ بمَلالِكَ، إنْ أدنَيتَه دَنَا، وإن أقصَيتَه نَأَى، لا يُزهَى عليكَ عند حاجتِكَ إليه، ولا يرغَبُ عنكَ عند رغبتك عنه وحَيْفِكَ عليه، لا يحفظ أسرارُكَ فضلاً عن أن يُفشيَها، ولا تخطُرُ ببالِه فيحتاجَ أن يُخفيَها، ولا تمنعُكَ حِشمتُه من سُؤالِه، ولا يُغضِبُكَ عند خوفِكَ من قلالِه.

انتزَعتُه لكَ من خواطري، واخترتُه من غريبِ ما اتَّصَلَ بمَسامعي، إن اختَصَصْتَ به من تحبُّ من إخوانِكَ لم تفتقده من ديوانِكَ، واستبدَدْتَ به دونَ أوليائكَ، فَضُلْتَ به على نُظَرائِكَ، وهو كتاب سَمَّيتُه «كتاب الزهرة».



(١) ١/٤٠.

١٣ـ فصل في
الذكر الحسن من الكتب

شاعر[١]:

إن التشاغل بالدفاتر والمحا ... بر والكتابة والدراسة
أصل التعبّد والتز ... هُدِ والرّئاسة والسّياسة

* * *

علي بن محمد بن محمد بن شعيب الأشوني[٢]:

له في التنبيه على طلب الأدب واقتناءِ الكتب:

عليكَ بصحبة الأُدباءِ يا مَنْ ... يحاولُ أنْ يسودَ على الصحابِ
فما في الناسِ أرفعُ من أديبٍ ... ولا في الأَرضِ أرفعُ من كتاب

* * *

عبد الملك بن إدريس الوزير المعروف بابن الجزيري الكاتب[٣]:

واعلم بأن العلم أرفع رتبة ... وأجل مكتسب وأسنى مفخر
فاسلك سبيل المقتنين له تسد ... إن السيادة تقتنى بالدفتر

---

(١) ذيل تاريخ بغداد ٣/ ٢.

(٢) الذيل والتكملة ٥/ ١، ٣٨٩.

(٣) تقييد العلم ص ١٣٠ (دون البيت الرابع)، والأربع الأول في جامع بيان العلم ص ٥٨٣.

والعـالـم المـدعـو حبـراً إنمـا ... سماه باسم الحبر حمل المحبر
وبضمـر الأقـلام يبلـغ أهلهـا ... مـا ليس يبلـغ بـالجيـاد الضُّمَّر
والعلـم ليـس بنـافـع أربـابـه ... مـا لـم يفـد عمـلاً وحسـن تبصُّر
فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها ... لا تـرض بـالتضييع دون المخسر
سيان عنديَ علم من لم يستفد ... عمـلاً بـه وصـلاة مـن لـم يطهـر

* * *

شـاعـر[1]:

تميـز بعلمـك عـن عصبـة ... إذا ذكـر النـاس لـم يـذكـروا
وحـيّ الطـروس وروّ النفـوس ... بلفـظ ينظـم أو ينثـر
فعلمـك ذا جـوهـرٌ نـافـق ... ويـا ربمـا كسـد الجـوهـر
وذكـرك بـاقٍ بـه مـا بـدا ... لمبصـره كـوكـب أزهـر

* * *

محمد العيد[2]:

مات الأَئِمَّةُ أَهلُ العِلْمِ ـ لا بَلِيتْ ... أَوْصَالُهُمْ ـ ولهمْ في الكون آثَار
هُمْ خلَّفوا العِلمَ تَذكَاراً لأَنفسهِم ... ومـا يُـؤثِّـرُ فـي السَّـالِيـنَ تَـذْكَـار
قد أَفعَموا الكُتْب أخباراً وما لبثوا ... أَن أَصْبحوا وهمُ في الكُتُبِ أَخبار

* * *

شـاعـر[3]:

أَرى العلمـاء أَطـولنـا حيـاة ... وإن أضحـوا رفـاتـاً فـي القبـور

---

(1) تقييد العلم ص ١٤٥ .
(2) ديوان محمد العيد ص ٩ .
(3) تقييد العلم ص ١١٩ .

أنــاس غيّبــوا وهــم شهــود ... بمـا ابتـدعـوه مـن علـم خطيـر
كـأنهــم حضـور حيـن تجـري ... محـاسـن ذكـرهـم عنـد الحضـور
لئـن ملئـت قبـورهـم ظـلامـاً ... فـإنِ ضيـاءهـم مِـلء الصـدور

* * *

بعض الشعراء[1] :

صنف الكتب يبق ذكرك واحرص ... أن تصـون العلـوم والآدابـا
إن فـي جـوهـر الخـواطـر علمـاً ... يُلقـح العقـل حكمـة وصـوابـا

* * *

بعض الشعراء[2] :

لولا العلوم لما سمعت لهالك ... ذكـراً ولا خبـراً مـن الأخبـار
كـم مـن أَديب حاضـر في مصـره ... وحـديثـه المشهـور فـي الأَمصـار
يُنسـى الأَنـام وذو العلـوم مخلَّـد ... فـي النـاس مـن بـاقٍ هنـاك وسـار

* * *

السري بن أحمد الكندي[3] :

لا تُخـدعـن عـن العلـوم فـإنهـا ... سُرُجٌ يزيد على الزمان ضياؤها
تُنسَى القرون فلا يشيد بذكرها ... أحـد ويُـذكـر دائبـاً علمـاؤهـا
فاحرص على جمع العلوم فإنها ... ريُّ القلوب من الصدى وشفاؤها

* * *

(١) تقييد العلم ص ١١٩ .
(٢) تقييد العلم ص ١٢٦ .
(٣) تقييد العلم ص ١٣٧ ، مما يعزى إليه وليست في ديوانه .

وله فيما يقال[1] :

كـن للعلـوم مصنفـاً أَو جـامعـاً ... يبقى لـك الـذكـر الجميـل مخلـدا

كـم مـن أَديـب ذكـره بيـن الـورى ... غَضٌّ وقد أَودى به صرف الردى

وأرى الأَديـب يهـابـه أَعـداؤه ... وَيعـدُّه السـادات فيهـم سيـدا

ينسـى أَواخـرنـا الأوائـل كلهـم ... إلاَّ أَخا العلم الذي جاز المدى

* * *

ناصيف اليازجي[2] :

لعَمْـرُكَ ليسَ فـوقَ الأَرضِ بـاقِ ... ولا ممَّـا قَضـاهُ اللَّـهُ واقِ

ومـا لِلمَـرْءِ حَـظٌّ غيـرُ قُـوتٍ ... وثَـوْبٍ فَـوقَـهُ عَقْـدُ النِطـاقِ

ومـا للمَيْـتِ إلاَّ قِيـدُ بـاعٍ ... ولـو كـانَـتْ لـهُ أَرضُ العِـراقِ

وكـم يَمضِـي الفِراقُ بـلا لقـاءٍ ... ولكـنْ لا لقـاءَ بِـلا فـراقِ

أَضَـلُّ النـاسِ فـي الـدُنيا سَبيلاً ... مُحِـبٌّ بـاتَ منهـا فـي وثـاقِ

وأَخسَـرُ مـا يَضيـعُ العُمـرُ فيـهِ ... فُضـولُ المـالِ تُجمَـعُ لِلـرفـاقِ

وأَفضـلُ مـا اشتَغَلـتَ بـهِ كِتـابٌ ... جَليـلٌ نفعُـهُ حُلـوُ المَـذاقِ

وعِشـرةُ حـاذقٍ فَطِـنٍ حكيـمٍ ... يُفيـدُكَ مـن مَعـانيـهِ الـدِقـاقِ

هنُـاكَ المجـدُ يَنهَضُ مـن خُمُـولٍ ... بِصـاحِبِـهِ إلـى أَعلَـى الطِبـاقِ

ويُنشـي الـذِكـرَ بيـنَ الناس حَتَّـى ... يقـومَ بـهِ علـى قَـدَمٍ وسـاقِ

---

(١) تقييد العلم ص ١١٩ ، وليست في ديوانه .

(٢) ديوان ناصيف اليازجي ص ٢٤٥ ، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٢٩ ، وكلمات من ذهب ص ٦٦٣ ، ومعجم حكمة العرب ص ٣٣٨ ، وموسوعة روائع الحكمة ص ٥٠٩ .

مضَى ذِكرُ المُلوكِ بِكُلِّ عَصرٍ ... وذِكرُ السُوقةِ العُلَماءِ باقِ
وكم عِلمٍ جَنَى مالاً وَجاهاً ... وكم مالٍ جَنَى حربَ السِباقِ
وما نَفعُ الدَراهمِ مع جَهُولٍ ... يُباعُ بدِرهمٍ وقتَ النَّفاقِ
إذا حُمِلَ النُّضارُ على نِياقٍ ... فأَيُّ الفخرِ يُحسَبُ للنِّياقِ
وأَقبَحُ ما يَكونُ غِنَى بخيلٍ ... يَغَصُّ وماؤُهُ ملءُ الزِّقاقِ
إذا مَلَكت يداهُ الفَلسَ أَمسَى ... رقيقاً ليسَ يطمَعُ في العَتاقِ
أَلا يا جامعَ الأَموالِ هَلاَّ ... جَمَعْتَ لها زَماناً لافتِراق
رأَيتُكَ تَطلُبُ الأَبحارَ جَهْلاً ... وأَنتَ تكادُ تَغرَقُ في السَّواقي
إذا أَحرَزتَ مالَ الأَرضِ طُرًّا ... فما لك فوقَ عَيْشِكَ من تَراقِ
أَتأْكُلُ كُلَّ يومٍ أَلْفَ كَبْشٍ ... وتَلبَسُ أَلفَ طاقٍ فوقَ طاقِ
فُضولُ المال ذاهبةٌ جُزافاً ... كماءٍ صُبَّ في كأْسٍ دِهاقِ
يَفيضُ سُدًى وقد يسطو عليها ... فيُنقِصُ مِلأَها عِند ٱندِفاقِ
مَضَت دُوَلُ العُلومِ الزُهرِ قِدْماً ... وقامَتْ دولةُ الصُفرِ الرِقاقِ
وأَبرَزَتِ الخَلاَعَةُ مِعصمَيْهَا ... وَباتَ الجَهْلُ ممدُودَ الرِّواقِ
فأَصبَحَ يَدَّعي بالسَبْقِ جهلاً ... زَعانِفُ يَعجِزُونَ عَنِ اللَّحاقِ
إذا هَلَكَتْ رِجالُ الحَيِّ أَضحَى ... صَبِيُّ القوم يَحلِفُ بالطَّلاَقِ
أَسَرُّ الناسِ في الدُنيا جَهُولٌ ... يُفَكِّرُ في ٱصطِباحٍ وٱغتِباقِ
وأَتعبَهُم رئيسٌ كلَّ يومٍ ... يكونُ لكلِّ ملسوعٍ كراقِ
وأَيسَرُ كلِّ موتٍ موتُ عبدٍ ... فقيرٍ زاهدٍ حَسَنِ السِياقِ
فليسَ له على ما فاتَ حُزنٌ ... وليسَ بخائفٍ مِمَّا يُلاقي

* * *

أبو سليمان جليس ثعلب[1]:

لقد ضلَّت حُلوم من أُناس ... يَرَوْن العلم إفلاساً وشوما

كسانا علمنا فخراً وجوداً ... وبالجهل اكتسبوا عجزاً ولوما

هم الثيران إن فكرت فيهم ... فكيف بأن ترى ثوراً عليما

فجانبهم ولا تعتب عليهم ... وكن للكتب دونهم نديما

* * *

العتابي[2]:

كان العتابي جالساً ذات يوم ينظر في كتاب، فمر به بعض جيرانه فقال: أي شيء ينفع العلم والأدب من لا مال له؟! فقال العتابي:

يا قاتَل اللّهُ أقواماً إذا ثَقِفُوا ... ذا اللب ينظر في الآداب والحِكَم

قالوا ـ وليس بهم إلاَّ نفاسته: ... أنافعٌ ذا من الأَقتار والعدم؟

وليس يدرون أن الحظ ما حرموا ... لحاهم الله من علم ومن فهم

* * *

معتمر بن سليمان وأبوه[3]:

حدث أحمد بن سعيد قال: قال معتمر بن سليمان: كتب إلي أبي وأنا بالكوفة: يا بني اشتر الكتب واكتب العلم، فإن العلم يبقى والدنانير تذهب.

---

(١) جامع بيان العلم ص ٩٩.

(٢) تاريخ بغداد ١١/ ٤٣٩، والأبيات ١ و ٢ في جامع بيان العلم ص ٩٩ بلا عزو.

(٣) جامع بيان العلم ص ٩٩، والخبر دون الشعر في تقييد العلم ص ١١٢، وروضة العقلاء ص ٣٩.

وقال أحمد: وأنشدني غير واحد في هذا المعنى لبعض المحدثين:

العلـم زيـن وكنـز لا نفـاد لـه ... نِعْمَ القرين إذا ما عاقلاً صحبا

قـد يجمـع المرء مـالاً ثـم يسلبـه ... عمـا قليـل فيلـق الـذل والحـربـا

وجـامـع العلـم مغبـوط بـه أبـداً ... فـلا يحـاذر فَـوتـاً لا ولا هـربـا

يا جامع العلم نِعم الذخر تجمعه ... لا تعـدلـن بـه دُرًّا ولا ذهبـا

❑ ❑ ❑

١٤ـ فصل في
حسراتهم على الكتب ومصيرها بعد موتهم

عبد الله بن علي الحنبلي[١]:

نَشِحُّ على الكُتب من لَمْسَةٍ   بمَسٍّ، ومن نظرة تُنظَرُ
وتُبْصَرُ مجهولةً بَعدَنا   بأيدي الجهول ومن يخبُرُ
كذا سِيرَةُ الكُتْبِ، يا ذا الّذِي   لها من جميع الورَى يَذْخَرُ

* * *

الحسن بن علي ابن مقلة[٢]:

رأيتُ كتاباً بأيدي النِّساء   فقلتُ عزيزٌ علَى مَنْ ثَرَى
يقلِّبه الناس جَهْلاً به   يُراد به البَيْعُ ما يُشْتَرَى
فقلتُ كذا كُتُبُنَا بعدنا   إذا ما أهالوا علينا الثَّرَى

* * *

عسكر بن القاسم بن محمد المخرمي:

كان إذا حصل له كتاب أنشد[٣]:

كم من كتابٍ سهرتُ في طَلَبهْ   وكنت من أبخل الخلائق بِهْ

---

(١) خريدة القصر (العراق) ٣/ ٢٧، وملء العيبة ٥/ ١٩٣.

(٢) الوافي ١٢/ ١٤٥.

(٣) ذيل تاريخ بغداد ٢/ ٢٥٩، والمخلاة ص ٣٠٧، والكنز المدفون ص ٤٠٦.

حتى إذا متّ وانقضى أجلي ... صار لغيري وَعُدّ من كتبهْ

* * *

أبو الفضل يوسف بن سلمان القرشي[1]:

أرى كُتُباً قد طال في جمعها جُهْدِي ... وزادَ إليها قَبْلَ تحصيلها وَجْدِي

تمنيتُ فيها نظرةً فَحُرِمْتُهَا ... وجاءَتْ عَقيبَ المنع عَفْواً بلا كَدِّ

فأصبحتُ فيها ناظراً مُتَحَكِّماً ... جواداً بما فيها على الصادقِ الوُدِّ

أُقَلِّبُهَا من بَعْدِ غيري مُحَكَّماً ... فيا ليت شعري مَنْ يُقَلِّبُهَا بَعْدي

* * *

وللفقيه نصر بن عبد الرحمن الإسكندري الفزاري في معناه[2]:

أُقَلِّبُ كُتْباً طالما قد جَمَعْتُهَا ... وأَفْنَيْتُ فيها العَيْنَ والعَيْنَ واليدا

وأصبحتُ ذا ضنٍّ بها وتمسّكٍ ... لِعلْمِي بما قد صُغْتُ فيها مُنَضَّدَا

وأَحْذَر جَهْدي أن تُنَالَ بنائلٍ ... مُبيرٍ وأن يغتالَها غائلُ الرَّدَى

وأعلمُ حقّاً أنني لستُ باقياً ... فيا ليت شعري من يُقَلِّبُهَا غدا

* * *

درويش محمد بن علي[3]:

وذكر البوريني في ترجمة درويش محمَّد بن علي وقيل اسمه محمد أبو المعالي الطّالوي: أنه كان قبل موته بأيام عمّر في داخل بيته بمحلة التعديل بيتاً صغيراً وكان يقول: هذا البيت بيت الفتاوى وموضع الكتب.

---

(١) خريدة القصر (مصر) ٢/ ٢٢٥، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٢٨.

(٢) خريدة القصر (مصر) ٢/ ٢٢٥ (والشام) ٢/ ٨٦، والوافي ٢٧/ ٧١، ومعجم الحكم والأمثال ص ٤٢٨.

(٣) خلاصة الأثر ٢/ ١٥٥.

ومن العجب أنه نقل كتبه إلى البيت المذكور، فكان يصفُّها ويرتبها وينظر فيها ويقلبها وهو ينشد هذا البيت وأظنه من نظمه ونتائج فهمه وهو:

أقلبهــا حفظــاً لهــا وصيــانــة فيا ليتَ شعري من يقلبها بعدي

مات بعد ذلك بعشرين يوماً رحمه الله تعالى.

* * *

محمد بن سلامة بن الحسين المقرىء[1] :

إنّـي لِمَـا أنـا فيـه مـن مُنـافستـي فيما شُغِفْتُ به من هذه الكتبِ

لقد علمتُ بأنّ الموتَ يُدْرِكُني مِنْ قبلُ أن ينقضي من جمعها أربـي

وليـس ينفعنـي ممـا حـوتـه يـدي شيءٌ من الفِضّةِ البيضاء والذهبِ

ولا أُؤمِّــل زاداً للمعــاد ســوى علـم عَمِلْـتُ بـه أو رأفتـي بـأَبـي

❑ ❑ ❑

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٧٧، ومعجم الأدباء ١/ ٥٩، وتاريخ إربل ١/ ٣٢١، وتاريخ حوادث الزمان ١/ ١٢٩، ودون نسبة في معجم الألقاب ٥/ ٢٨٢، ومرآة الزمان ٢/ ٥٣٢، وتاريخ الإسلام ٣٥/ ٨٥.

المصادر والمراجع

[حرف الألف]

١ ــ الآداب الشرعية: محمد بن مفلح المقدسي، (توفي ٧٦٣هـ)، بيروت ــ مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

٢ ــ الأجوبة المسكتة: ابن أبي عون إبراهيم بن محمد، (توفي ٣٢٢)، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، مصر ــ مكتبة النهضة، ١٩٨٥م.

٣ ــ الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب، (توفي ٧٧٦)، تحقيق محمد عبد الله عنان، مصر ــ مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.

٤ ــ إحكام صنعة الكلام: محمد عبد الغفور الكلاعي، (توفي ٥٤٥ أو ٥٥٠)، تحقيق محمد رضوان الداية، بيروت ــ عالم الكتب، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

٥ ــ أخبار الدولة العباسية: (مؤلف من القرن الثالث الهجري)، تحقيق عبد العزيز الدوّري وعبد الجبار المطّلبي، بيروت ــ دار الطليعة، ١٩٧١م.

٦ ــ أخبار الظراف والمتماجنين: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد أنيس مهرات، دمشق ــ دار الحكمة، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٧ ــ أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، (توفي ٥٧٦)، تحقيق إحسان عباس، بيروت ــ دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٦٣م.

٨ ــ اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى: ابن سعيد علي بن موسى، (توفي ٦٨٥)، تحقيق إبراهيم الأبياري، مصر ــ دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

٩ ــ أدب الإملاء والاستملاء: عبد الكريم بن محمد السمعاني، (توفي ٥٦٢)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

١٠ ــ أدب الدنيا والدين: علي بن محمد بن حبيب الماوردي، (توفي ٤٥٠)، تحقيق ياسين محمد السواس، دمشق ــ دار ابن كثير، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

١١ ــ الأدب اليمني: عبد الله محمد الحبيشي، الدار اليمنية، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

١٢ ــ الأذكياء: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، بيروت ــ مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
١٣ ــ أسرار الحكماء: ياقوت بن عبد الله المستعصمي، (توفي ٦٩٨)، تحقيق إبراهيم صالح، دمشق ــ دار البشائر، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
١٤ ــ إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين: عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، (توفي ٧٤٣)، تحقيق عبد المجيد دياب، السعودية ــ مركز الملك فيصل، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.
١٥ ــ أشعة ملونة (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧م)، بيروت ــ مكتبة المعارف، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.
١٦ ــ أصداء النيل (شعر): عبد الله الطيّب.
١٧ ــ اضحك: مجدي صابر، بيروت ــ دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
١٨ ــ اضحك مع آدم وحواء: نضال وشذى الحميداوي، بغداد ــ مكتبة النهضة، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
١٩ ــ اضحك مع الحمقى والمجانين: نبيه الداموري، بيروت ــ العالمية للكتاب، ١٩٨٩م.
٢٠ ــ أبو العتاهية أشعاره وأخباره: إسماعيل بن القاسم، (توفي ٢١١)، تحقيق شكري فيصل، دمشق ــ دار الملاّح، (د. ت).
٢١ ــ الإعجاز والإيجاز: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق محمد التونجي، بيروت ــ دار النفائس، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
٢٢ ــ أعلام مالقة: أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، (توفي ٦٣٦)، تحقيق عبد الله المرابط، بيروت ــ دار الغرب، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
٢٣ ــ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ، (توفي ١٩٧٠)، تحقيق محمد كمال، حلب ــ دار الفكر العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.
٢٤ ــ الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم طوقان، (توفي ١٩٤١)، بيروت ــ دار النهضة العربية، (د. ت).
٢٥ ــ الأعمال الشعرية الكاملة: صالح جودت، (توفي ١٩٧٦)، بيروت ــ دار العودة، ١٩٨٧م.

٢٦ ـ الأعمال الشعرية الكاملة: محمد حسين آل ياسين، (توفي   )، بيروت ـ دار مكتبة الحياة، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٢٧ ـ الأعمال الشعرية الكاملة: نزار قباني، (توفي ١٩٩٨)، دمشق ـ منشورات نزار قباني، الطبعة الثانية عشر ١٩٨٣م.

٢٨ ـ الأعمال الكاملة: للشاعر محمد بن علي السنوسي، (توفي ١٩٨٧)، السعودية ـ نادي جازان الأدبي، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٢٩ ـ أعيان العصر وأعوان النصر: خليل بن أيبك الصفدي، (توفي ٦٧٤)، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دمشق ـ دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٣٠ ـ أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلّاد ـ (توفي ٢٨٢)، تحقيق أنور أبو سويلم، الأردن ـ دار عمّار، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٣١ ـ أغاريد السّحر (شعر): طاهر الزمخشري، (توفي ١٩٨٧)، مصر ـ مطبعة مصر، ١٩٥٨م.

٣٢ ـ أغاريد الطيور (شعر): إسماعيل أبو شقرة، الكويت ـ مكتبة شركة كاظمة، الطبعة الأولى ١٩٨٥م

٣٣ ـ الأغاني: علي بن الحسين الأصبهاني، (توفي ٣٥٦)، مصر ـ مصوّرة دار الكتب، (د. ت).

٣٤ ـ الأغوار (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، بيروت ـ دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٩٦١م.

٣٥ ـ أبو الفتح البستي حياته وشعره: علي بن محمد بن الحسين، (توفي ٤٠٠)، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت ـ دار الأندلس، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٣٦ ـ أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب: حسين عبد الساتر الدّعيبي، بيروت ـ دار الراتب الجامعية، ١٩٩٣م.

٣٧ ـ الأمالي الخميسيّة: يحيى بن الحسين الشجري، (توفي ٤٩٩)، بيروت ـ عالم الكتب، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

٣٨ ـ أمالي القالي: إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، (توفي ٣٥٦)، مصر ـ مطبعة دار الكتب، الطبعة الثانية ١٩٢٦م.

٣٩ ــ أمالي المرتضى: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، (توفي ٤٣٦)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت ــ دار الكتاب العربـي، (د. ت).
٤٠ ــ إنباء الغمر بأبناء العمر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (توفي ٨٥٢)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.
٤١ ــ إنباه الرواة على أنباه النّحاة: علي بن يوسف القفطي، (توفي ٦٢٤)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ــ دار الفكر العربـي، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.
٤٢ ــ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: يوسف بن عبد البر القرطبـي، (توفي ٤٦٣)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، (د. ت).
٤٣ ــ الأنس: سمير شيخاني، بيروت ــ مؤسسة عز الدين، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.
٤٤ ــ أنوار الربيع في أنواع البديع: علي صدر الدين بن معصوم، (توفي ١١٢٠)، تحقيق شاكر هادي شكر، النجف ــ مطبعة النعمان، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.
٤٥ ــ أنيس الجليس: محمود العابدي، الأردن ــ مطبعة جمعية عمال المطابع، (د. ت).
٤٦ ــ أوراق عمر (شعر): غادة سلهوب.
٤٧ ــ أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، (توفي ٧٩٥)، تحقيق خالد عبد اللطيف السّبع، بيروت ــ دار الكتاب العربـي، الطبعة الثانية ١٩٩١م.

[حرف الباء]

٤٨ ــ البخلاء: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق طه الحاجري، مصر ــ دار المعارف، الطبعة الخامسة ١٩٩٠م.
٤٩ ــ بدائع البدائه: علي بن ظافر الأزدي، (توفي ٦١٣)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ــ مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م.
٥٠ ــ البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير، (توفي ٧٧٤)، بيروت ــ مكتبة المعارف، الطبعة السادسة ١٩٨٥م.
٥١ ــ البصائر والذخائر: علي بن محمد بن العباس التوحيدي، (توفي ٤١٤)، تحقيق وداد القاضي، بيروت ــ دار صادر، الطبعة الأولى (د. ت).
٥٢ ــ بغية الطلب في تاريخ حلب: عمر بن أحمد بن أبـي جرادة بن العديم، (توفي ٦٦٠)، تحقيق سهيل زكّار، دمشق ــ مطابع دار البعث، ١٩٨٨م.

٥٣ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن بن أبـي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت ـ المكتبة العصرية، (د. ت).
٥٤ ـ البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، (توفي ٨١٧)، تحقيق محمد المصري، الكويت ـ مركز المخطوطات، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
٥٥ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس: يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبـي، (توفي ٤٦٣)، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت ـ دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية (د. ت).
٥٦ ـ البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة (د. ت).
٥٧ ـ بين الأعاصير (شعر): محمد الأسمر، (توفي ١٩٥٦)، مصر ـ دار الفكر العربـي، (د. ت).

[حرف التاء]

٥٨ ـ تاج التراجم: قاسم بن قطلوبغا السودوني، (توفي ٨٧٩)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دمشق ـ دار القلم، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
٥٩ ـ تاريخ ابن الوردي: عمر بن المظفر بن الوردي، (توفي ٧٤٩)، تحقيق محمد مهدي الخرسان، النجف ـ المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية ١٩٦٩م.
٦٠ ـ تاريخ إربل: المبارك ابن أحمد ابن المستوفي، (توفي ٦٣٧)، تحقيق سامي بن السيد خماس الصّقار، العراق ـ وزارة الثقافة، ١٩٨٠م.
٦١ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: محمد بن أحمد الذهبـي، (توفي ٧٤٨)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت ـ دار الكتاب العربـي، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
٦٢ ـ تاريخ بغداد: أحمد بن علي بن ثابت بن الخطيب البغدادي، (توفي ٤٦٣)، بيروت ـ دار الكتب العلمية، (د. ت).
٦٣ ـ تاريخ ثغر عدن: عبد الله الطيب بن أبـي مخرمة، (توفي ٩٤٧)، مصر ـ مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية ١٩٩١م.
٦٤ ـ تاريخ حوادث الزمان وأبنائه: محمد بن إبراهيم الجزري، (توفي ٦٩٩)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت ـ المكتبة العصرية، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٦٥ ــ تاريخ الخلفاء: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ــ المكتبة العصرية، ١٩٨٩م.

٦٦ ــ تاريخ قضاة الأندلس: علي بن عبد الله بن الحسن النباهي، (توفي بعد ٧٩٢)، بيروت ــ دار الآفاق الجديدة، الطبعة الخامسة ١٩٨٣م.

٦٧ ــ تاريخ مدينة دمشق: علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، (توفي ٥٧١)، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي، بيروت ــ دار الفكر، ١٩٩٥م.

٦٨ ــ تبصرة الغافل وتذكرة العاقل: محمد الطيب المريني، (توفي ١١٤٥)، تحقيق بسام محمد بارود، الإمارات ــ المجمع الثقافي، ١٩٩٩م.

٦٩ ــ تحسين القبيح: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق شاكر العاشور، العراق ــ وزارة الأوقاف، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

٧٠ ــ تحفة أهل الفكاهة في المنادمة والنزاهة: محمد أفندي سعيد، المطبعة الشرقية، الطبعة الثانية ١٣٢٦هـ.

٧١ ــ تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب: خليل بن أيبك الصفدي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق إحسان خلوصي وزهير حميدان، دمشق ــ وزارة الثقافة، ١٩٩١م.

٧٢ ــ تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد الذهبي، (توفي ٧٤٨)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، (د. ت).

٧٣ ــ التذكرة الحمدونية: محمد بن الحسن بن حمدون، (توفي ٥٦٢)، تحقيق إحسان عباس، بيروت ــ دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٧٤ ــ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، (توفي ٧٣٣)، تحقيق السيد محمد هاشم الندوي، بيروت ــ دار الكتب العلمية، (د. ت).

٧٥ ــ تذكرة النبيه في أيام المنصور ونبيه: الحسن بن عمر بن حبيب، (توفي ٧٧٩)، تحقيق محمد محمد أمين، مصر ــ دار الكتب، ١٩٧٦.

٧٦ ــ تراجم مغربية من مصادر مشرقية: تحقيق محمد بن شريفة، المغرب ــ مطبعة النجاح، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٧٧ ــ ترتيب المدارك في تقريب المسالك: القاضي عياض بن عياض اليحصبي، (توفي ٥٤٤)، تحقيق أحمد بكيه محمود، بيروت ــ دار مكتبة الحياة، ١٩٦٧م.

٧٨ ـ تعليم المتعلم في طريق التعلّم: برهان الدين الزرنوجي، (كان حيّاً قبل ٦٠٠)، تحقيق صلاح محمد ونذير حمدان، دمشق ـ دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
٧٩ ـ تقييد العلم: أحمد بن علي بن ثابت بن الخطيب البغدادي، (توفي ٤٦٣)، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، الطبعة الثانية ١٩٧٤م.
٨٠ ـ التكملة لكتاب الصِّلة: محمد بن عبد الله بن الأبّار، (توفي ٦٥٨)، تحقيق عبد السلام الهراس، بيروت ـ دار الفكر، ١٩٩٥م.
٨١ ـ تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: جمال الدين محمد بن نباتة المصري، (توفي ٧٦٨)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت ـ المكتبة العصرية، ١٩٨٦م.
٨٢ ـ التمثيل والمحاضرة: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ليبيا ـ الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م.
٨٣ ـ تهذيب الأسرار: عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الخركوشي، (توفي ٤٠٧)، تحقيق بسام محمد بارود، أبو ظبي ـ المجمع الثقافي، ١٩٩٩م.
٨٤ ـ توشيح الديباج وحلية الابتهاج: بدر الدين محمد بن يحيى القرافي، (توفي ٩٤٦)، تحقيق أحمد الشتيوي، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
٨٥ ـ التيّار (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، دمشق ـ مطبعة اليقظة العربية، (د. ت).

[حرف الثاء]

٨٦ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ـ دار المعارف، (د. ت).

[حرف الجيم]

٨٧ ـ جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد البر القرطبي، (توفي ٤٦٣)، تحقيق عبد الكريم الخطيب، مصر ـ دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية ١٩٨٢م.
٨٨ ـ جامع العلوم والحكم: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، (توفي ٧٩٥)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، بيروت ـ مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٩٩٥م.

٨٩ ــ الجامع في الحث على حفظ العلم: تحقيق محمود بن محمد الحدّاد، مصر ــ مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٩٠ ــ الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السامع: أحمد بن علي بن ثابت بن الخطيب البغدادي، (توفي ٤٦٣)، تحقيق محمد عجاج الخطيب، بيروت ــ مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م.

٩١ ــ الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي: معافى بن زكريا النهرواني، (توفي ٣٩٠)، تحقيق محمد مرسي الخولي وإحسان عباس، بيروت ــ عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

٩٢ ــ جمع الجواهر في الملح والنوادر: إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، (توفي ٤٥٣)، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت ــ دار الجيل، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

٩٣ ــ الجواهر المضيّة في طبقات الحنفيّة: عبد القادر بن محمد القرشي، (توفي ٧٧٥)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، بيروت ــ مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

٩٤ ــ الجوهر المنضَّد في طبقات متأخري أصحاب أحمد: يوسف بن الحسن بن عبد الهادي، (توفي ٩٠٩)، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مصر ــ مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

[حرف الحاء]

٩٥ ــ الحث على طلب العلم والاجتهاد في طلبه: الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، (توفي بعد ٣٩٥)، تحقيق يوسف محمد فتحي، مصر ــ دار الصحابة للتراث، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٩٦ ــ حسن التوسل إلى صناعة الترسّل: شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي، (توفي ٧٢٥)، تحقيق أكرم عثمان يوسف، العراق ــ وزارة الثقافة، ١٩٨٠م.

٩٧ ــ الحكمة الخالدة: أحمد بن محمد مسكويه، (توفي ٤٢١)، تحقيق عبد الرحمن بدوي، بيروت ــ دار الأندلس، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

٩٨ ــ الحلّة السيراء: محمد بن عبد الله ابن الأبار القضاعي، (توفي ٦٥٨)، تحقيق حسين مؤنس، مصر ــ دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

٩٩ ــ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصبهاني، (توفي ٤٣٠)، بيروت ــ دار الكتاب العربـي، الطبعة الخامسة ١٩٨٧م.
١٠٠ ــ حماس ونشوة (شعر): جمال عبد اللطيف، مصر ــ مكتبة الكليات الأزهرية (د. ت).
١٠١ ــ الحماسة الشجرية: هبة الله بن علي بن حمزة العلوي، (توفي ٥٤٢)، تحقيق عبد المعين الموبلحي وأسماء الحمصي، دمشق ــ وزارة الثقافة، ١٩٧٠م.
١٠٢ ــ حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء: عبد الله بن محمد العبدلكاني الزوزني، (توفي ٤٣١)، تحقيق محمد بهي الدين سالم، مصر ــ دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
١٠٣ ــ حياة الحيوان الكبرىٰ: محمد بن موسى الدميري، (توفي ٨٠٨)، بيروت ــ دار الفكر، (د. ت).
١٠٤ ــ الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت ــ المجلس العلمي الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٩٦٩م.

[حرف الخاء]

١٠٥ ــ خاص الخاص: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبـي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق حسن الأمين، بيروت ــ دار مكتبة الحياة، (د. ت).
١٠٦ ــ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم أصفهان): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق عدنان محمد آل طعمة، إيران ــ مرآة التراث، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
١٠٧ ــ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم الشام): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق شكري فيصل، دمشق ــ المطبعة الهاشمية، ١٩٥٥م.
١٠٨ ــ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم مصر): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، (د. ت).
١٠٩ ــ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم العراق): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد بهجة الأثري، العراق ــ المجمع العلمي، ١٩٥٥م.

١١٠ ـ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، مصر ـ دار نهضة مصر، (د. ت).

١١١ ـ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب): عماد الدين محمد الأصبهاني، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العمروسي، الدار التونسية، ١٩٦٦م.

١١٢ ـ خزانة الأدب وغاية الأرب: علي بن محمد بن حجة الحموي، (توفي ٨٣٧)، تحقيق عصام شعيتو، بيروت ـ دار ومكتبة الهلال، الطبعة الثانية ١٩٩١م.

١١٣ ـ خطط المقريزي: أحمد بن علي المقريزي، (توفي ٨٤٥)، مصر ـ دار التحرير، (د. ت).

١١٤ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين بن فضل فضل الله المحبّي، (توفي ١١١١)، بيروت ـ دار صادر، (د. ت).

[حرف الدال]

١١٥ ـ درّة الحجال في أسماء الرجال (ذيل وفيات الأعيان): أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، (توفي ١٠٢٥)، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مصر ـ دار التراث، الطبعة الأولى ١٩٧٠م.

١١٦ ـ الدرّة الخطيرة في شعراء الجزيرة: علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع الصقلي، (توفي ٥١٥)، تحقيق بشير البكوش، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

١١٧ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، (توفي ٨٥٢)، تحقيق محمد سيد جاد الحق، مصر ـ أم القرى للنشر، (د. ت).

١١٨ ـ دمية القصر وعصرة أهل العصر: علي بن الحسن بن علي الباخرزي، (توفي ٤٦٧)، تحقيق محمد التونجي، بيروت ـ دار الجيل، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

١١٩ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون المالكي، (توفي ٧٩٩)، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مصر ـ دار التراث، ١٩٧٢م.

١٢٠ ـ ديوان أحمد خير الدين: (ولد سنة ١٩٠٩)، تونس ـ الدار التونسية، ١٩٧٥م.

١٢١ ـ ديوان أحمد الزّين: (توفي ١٩٤٧)، مصر ـ مطبعة لجنة التأليف والنشر، الطبعة الأولى ١٩٥٢م.

١٢٢ ـ ديوان أزهار الرّبا في شعر الصّبا: علي أحمد باكثير، (توفي ١٩٦٩)، تحقيق محمد أبو بكر حميد، اليمن ـ الدار اليمنية، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

١٢٣ ـ ديوان إسماعيل صبري: (توفي ١٩٥٣)، تحقيق محمد القصاص وعامر محمد وأحمد كمال زكي، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

١٢٤ ـ ديوان الأسمر: محمد الأسمر، (توفي ١٩٥٦)، مصر ـ مطبعة البابي الحلبي، (د. ت).

١٢٥ ـ ديوان أشعار الأمير أبي العباس: عبد الله بن محمد المعتز بالله، (توفي ٢٩٦هـ)، تحقيق محمد بديع شريف، مصر ـ دار المعارف، ١٩٧٧م.

١٢٦ ـ ديوان الإمام الشافعي: محمد بن إدريس بن العباس الشافعي، (توفي ٢٠٤)، تحقيق إميل بديع يعقوب، بيروت ـ دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

١٢٧ ـ ديوان الإمام عبد الله بن المبارك: (توفي ١٨١)، تحقيق مجاهد مصطفى بهجت، مصر ـ دار الوفاء، الطبعة الثانية ١٩٨٩م.

١٢٨ ـ ديوان بدر شاكر السيّاب: (توفي ١٩٦٤)، بيروت ـ دار العودة، ١٩٨٦م.

١٢٩ ـ ديوان جحظة البرمكي: أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي، (توفي ٣٢٤)، تحقيق جان عبد الله توما، بيروت ـ دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

١٣٠ ـ ديوان جميل صدقي الزهاوي: (توفي ١٩٣٦)، بيروت ـ دار العودة، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

١٣١ ـ ديوان الحاج عبد الحسين الأزري: (توفي ١٩٥٤)، تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، بيروت ـ مؤسسة النعمان، (د. ت).

١٣٢ ـ ديوان حسن عبد الله القرشي: ، (مولود سنة ١٩٢٧)، بيروت ـ دار العودة، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

١٣٣ ـ ديوان الحكيم أبي الصّلت: أمية بن عبد العزيز الدّاني، (توفي ٥٢٩)، تحقيق محمد المرزوقي، تونس ـ دار بو سلامة، ١٩٧٩م.

١٣٤ ــ ديوان خليل مردم بك: (توفي ١٩٥٩)، تحقيق عدنان مردم بك، بيروت ــ دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
١٣٥ ــ ديوان الرّصافي: معروف الرّصافي، (توفي ١٩٤٥)، بيروت ــ دار مكتبة الحياة، (د. ت).
١٣٦ ــ ديوان الزّركلي: خير الدين محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، (توفي ١٣٩٦)، بيروت ــ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
١٣٧ ــ ديوان السّري الرّفاء: السري بن أحمد بن السري الكندي الرّفّاء، (توفي ٥٢٧)، تحقيق حبيب حسين الحسيني، العراق ــ وزارة الثقافة، ١٩٨١م.
١٣٨ ــ ديوان الشريف المرتضى: علي بن الحسين بن موسى المعروف بالمرتضى، (توفي ٤٣٦)، تحقيق رشيد الصفار، مصر ــ مطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٨م.
١٣٩ ــ ديوان الصاحب بن عبّاد: إسماعيل بن عبّاد بن العباس، (توفي ٣٨٥)، تحقيق محمد حسن آل ياسين، إيران ــ مؤسسة قائم آل محمد، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ.
١٤٠ ــ ديوان صفي الدين الحلّي: عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي، (توفي ٧٥٢)، بيروت ــ دار صادر، (د. ت).
١٤١ ــ ديوان صقر الشبيب: (توفي ١٩٦٣)، تحقيق أحمد البشر الرومي، الكويت ــ مكتبة الأمل، (د. ت).
١٤٢ ــ ديوان صلاح عبد الصبور: (توفي ١٩٨١)، بيروت ــ دار العودة، ١٩٨٨م.
١٤٣ ــ ديوان عامر: عامر البحيري، مصر ــ الهيئة المصرية، ١٩٨٢م.
١٤٤ ــ ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي: عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي، (توفي أواخر القرن التاسع)، تحقيق جمعة شيخة ومحمد الهادي، بيت الحكمة، الطبعة ١٩٨٨م.
١٤٥ ــ ديوان العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، (توفي بعد ٤٠٠)، تحقيق جورج قنازع، دمشق ــ مجمع اللغة العربية، ١٩٧٩م.
١٤٦ ــ ديوان العقاد: عباس محمود العقاد، (توفي ١٩٦٤)، بيروت ــ المكتبة العصرية، (د. ت).
١٤٧ ــ ديوان علي الجارم: (توفي ١٩٤٩)، مصر ــ دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٩٠م.

١٤٨ ــ ديوان علي بن الجهم: (توفي ٢٤٩)، تحقيق خليل مردم بك، بيروت ــ دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

١٤٩ ــ ديوان كشاجم: محمود بن الحسين بن إبراهيم بن السندي بن شاهك، (توفي ٣٦٠)، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، مصر ــ مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

١٥٠ ــ ديوان لزوم ما لا يلزم: أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرّي، (توفي ٤٤٩)، تحقيق وحيد كبابة وحسن حمد، بيروت ــ دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

١٥١ ــ ديوان لسان الدين ابن الخطيب السّلماني: محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، (توفي ٧٧٦)، تحقيق محمد مفتاح، الدار البيضاء، دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

١٥٢ ــ ديوان مجير الدين ابن تميم: محمد بن يعقوب بن علي الأسعردي، (توفي ٦٨٤)، تحقيق هلال ناجي وناظم رشيد، بيروت ــ عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

١٥٣ ــ ديوان محمد العيد محمد علي خليفة: (توفي ١٩٠٤)، الجزائر ــ الشركة الوطنية، ١٩٦٧م.

١٥٤ ــ ديوان المعاني: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، (توفي بعد ٤٠٠)، بيروت ــ دار الأضواء، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

١٥٥ ــ ديوان ناصيف اليازجي: (توفي ١٨٧١)، بيروت ــ دار مارون عبّود، ١٩٨٣م.

١٥٦ ــ ديوان ولي الدين يكن: (توفي ١٩٢١)، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

١٥٧ ــ ديوان ابن الحدّاد الأندلسي: محمد بن أحمد بن خلف المعروف بالحدّاد، (توفي ٤٨٠)، تحقيق يوسف علي طويل، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

١٥٨ ــ ديوان ابن حمديس: عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصّقلي، (توفي ٥٢٧)، تحقيق إحسان عباس، بيروت ــ دار صادر (د. ت).

١٥٩ ــ ديوان ابن دريد: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، (توفي ٣٢١)، تحقيق عمر ابن سالم، الدار التونسية، ١٩٧٣م.

١٦٠ ــ ديوان ابن زيدون ورسائله: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، (توفي ٤٦٣)، تحقيق علي عبد العظيم، مصر ــ نهضة مصر، (د. ت).

١٦١ ــ ديوان ابن عبد ربّه الأندلسي: أحمد بن محمد بن عبد ربه، (توفي ٣٢٨)، تحقيق محمد التونجي، دمشق ــ مؤسسة الخافقين، الطبعة الأولى ١٩٧٧م.

١٦٢ ــ ديوان ابن قلاقس: نصر بن عبد الله بن عبد القوي اللّخمي، (توفي ٥٦٧)، تحقيق سهام الفريح، الكويت ــ مكتبة المعلاّ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

١٦٣ ــ ديوان ابن نباتة المصري: جمال الدين محمد بن نباتة المصري، (توفي ٧٦٨)، بيروت ــ دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

١٦٤ ــ ديوان ابن الوردي: محمد بن المظفر بن عمر الوردي، (توفي ٧٤٩)، تحقيق أحمد فوزي الهيب، الكويت ــ دار القلم، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

١٦٥ ــ ديوان أبي بكر الخوارزمي: محمد بن العباس الخوارزمي، (توفي ٣٨٣)، تحقيق حامد صدقي، إيران ــ وزارة الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

١٦٦ ــ ديوان أبي سلمى: عبد الكريم الكرمي، (توفي ١٩٨٠)، بيروت ــ دار العودة، ١٩٨٩م.

[حرف الذال]

١٦٧ ــ الذخائر والتحف: القاضي أحمد بن الرشيد بن الزبير، (توفي القرن الخامس)، تحقيق محمد حميد الله، الكويت ــ وزارة الأعلام، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

١٦٨ ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: علي بن بسام الشنتريني، (توفي ٥٤٢)، تحقيق إحسان عباس، بيروت ــ دار الثقافة، ١٩٧٩م.

١٦٩ ــ ذم الهوى: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق أحمد سلام عطا، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

١٧٠ ــ ذيل تاريخ بغداد: محمد بن محمود بن الحسن بن النجار البغدادي، (توفي ٦٤٣)، تحقيق قيصر فرح، بيروت ــ دار الكتب العلمية، (د. ت).

١٧١ ــ ذيل ابن عبد الهادي على طبقات ابن رجب: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، (توفي ٩٠٩)، تحقيق محمود بن محمد الحمّاد، الرياض ــ دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٧٢ ـ الذيل على طبقات الحنابلة: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، (توفي ٧٩٥)، بيروت ـ دار المعرفة، (د. ت).

١٧٣ ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، (توفي ٧٠٣)، تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة، بيروت ـ دار الثقافة، (د. ت).

١٧٤ ـ ذيل وفيات الأعيان: (انظر: درّة الحجال في أسماء الرجال).

[حرف الراء]

١٧٥ ـ رباعيات التونسي: محمد خليفة التونسي، (توفي ١٩٨٨)، مصر ـ مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى (د. ت).

١٧٦ ـ ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: محمد بن عمر الزمخشري، (توفي ٥٣٨)، تحقيق سليم النعيّمي، (د. ت).

١٧٧ ـ رحلة ابن معصوم: علي صدر الدين ابن معصوم المدني، (توفي ١١٢٠)، تحقيق شاكر هادي شكر، بيروت ـ عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

١٧٨ ـ رسائل الجاحظ: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، مصر ـ مكتبة الخانجي، (د. ت).

١٧٩ ـ رسائل ابن المعتز: عبد الله بن محمد المعتز بالله، (توفي ٢٩٦)، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مصر ـ مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٤٦م.

١٨٠ ـ رسالة في الحث على طلب العلم: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق عمرو عبد المنعم، مصر ـ دار السلام، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

١٨١ ـ الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوازن القشيري، (توفي ٤٦٥)، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد، دمشق ـ دار الخير، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

١٨٢ ـ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات: محمد باقر الموسوي الخوانساري، (توفي ١٣١٣)، بيروت ـ الدار الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

١٨٣ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: أبو حاتم محمد بن حبّان البستي، (توفي ٣٥٤)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ـ دار الكتب العلمية، ١٩٧٧م.

١٨٤ ــ روضة المحبين ونزهة المشتاقين: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (توفي ٧٥١)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، (د. ت).
١٨٥ ــ الروضتين في أخبار الدولتين: عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي، (توفي ٦٦٥)، بيروت ــ دار الجيل، (د. ت).
١٨٦ ــ رياض النفوس: أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، (توفي بعد ٤٦٠)، تحقيق بشير البكوش، بيروت ــ دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م.
١٨٧ ــ ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا: أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، (توفي ١٠٦٩)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، مصر ــ مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

[حرف الزاي]

١٨٨ ــ الزهد الكبير: أحمد بن الحسين البيهقي، (توفي ٤٥٨)، تحقيق عامر أحمد حيدر، بيروت ــ مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
١٨٩ ــ الزهد والرقائق: عبد الله بن المبارك، (توفي ١٨١)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت ــ دار الكتب العلمية، (د. ت).
١٩٠ ــ زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، (توفي ٤٥٣)، تحقيق زكي مبارك، بيروت ــ دار الجيل، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م.
١٩١ ــ زهر الربيع: نعمة الله الجزائري، (توفي ١١١٢)، بيروت ــ دار الجنان، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
١٩٢ ــ الزهرة: محمد بن داود الأَصْبَهاني، (توفي ٢٩٧)، تحقيق إبراهيم السامرائي، الأردن ــ مكتبة المنار، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

[حرف السين]

١٩٣ ــ سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر: درويش محمد بن أحمد الطالوي، (توفي ١٠١٤)، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت ــ عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
١٩٤ ــ السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة: محمد بن عبد الله بن حميد، (توفي ١٢٩٥)، تحقيق بكر أبو زيد وعبد الرحمن العثيمين، بيروت ــ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

١٩٥ ـ سراج الملوك: محمد بن الوليد الطرطوشي، (توفي ٥٢٠)، تحقيق جعفر البياتي، لندن ـ رياض الريس، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
١٩٦ ـ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: جمال الدين بن نباتة المصري، (توفي ٧٦٧)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت ـ المكتبة العصرية، ١٩٨٦م.
١٩٧ ـ سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر: علي صدر الدين بن معصوم المدني، (توفي ١١٢٠)، إيران ـ المكتبة المرتضوية، (د. ت).
١٩٨ ـ سلوة الأحزان: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق شهيد محمد وآمنة محمد، مصر ـ منشأة المعارف، ١٩٧٠م.
١٩٩ ـ سمط اللآلىء في شرح آمالي القالي: أبو عبيد عبد العزيز بن محمد البكري، (توفي ٤٨٧)، تحقيق عبد العزيز الميمني، بيروت ـ دار الحديث، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
٢٠٠ ـ سنابل الزمن: محمد قرة علي، بيروت ـ مؤسسة نوفل، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.
٢٠١ ـ سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي، (توفي ٧٤٨)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، بيروت ـ مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة ١٩٨٦م.

[حرف الشين]

٢٠٢ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن أحمد بن العماد، (توفي ١٠٨٩)، تحقيق محمد الأرناؤوط، دمشق ـ دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.
٢٠٣ ـ شرح ديوان المتنبي: أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي، (توفي ٣٥٤)، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، بيروت ـ دار الكتاب العربي، ١٩٨٠م.
٢٠٤ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، تحقيق محمد حسن الحمصي، دمشق ـ دار الرشيد، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.
٢٠٥ ـ شرح المضنون به على غير أهله: عبد الوهاب بن إبراهيم الخزرجي، (توفي ٦٥٥)، تحقيق عبيد الله بن الكافي العبيدي، بيروت ـ دار صعب، (د. ت).
٢٠٦ ـ الشّرر (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، بيروت ـ دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٩٦٣م.

٢٠٧ ــ شعر عاتكة الخزرجي: (توفيت ١٩٩٧)، الكويت ــ مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٦م.
٢٠٨ ــ شعر عبد الحميد السنوسي: تحقيق محمد مفيد ومصطفى عبد اللطيف، مصر ــ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤م.
٢٠٩ ــ شعراء الغري: علي الخاقاني، (توفي ١٩٧٨)، إيران ــ منشورات دار البيان، ١٩٥٤م.
٢١٠ ــ شعر اليزيدين: تحقيق محسن غياض، النجف ــ مطبعة النعمان، ١٩٧٣م.
٢١١ ــ شمّامة العنبر والزّهر المعنبر: محمد بن مصطفى الغلامي، (توفي ١١٨٦)، تحقيق سليم النعيمي، العراق ــ مطبعة المجمع العلمي، ١٩٧٧م.
٢١٢ ــ الشّلال (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، بيروت ــ دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٦٢م.

[حرف الصاد]

٢١٣ ــ صفة الصفوة: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد فاخوري، بيروت ــ دار المعرفة، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.
٢١٤ ــ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل: عبد الفتاح أبو غدّة، (توفي ١٩٩٧)، حلب ــ مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الرابعة ١٩٩٤م.
٢١٥ ــ صلة الصّلة: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، (توفي ٧٠٨)، تحقيق عبد السلام وسعيد أعراب، المغرب ــ وزارة الأوقاف، ١٩٩٣م.
٢١٦ ــ صيد الخاطر: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق عامر علي ياسين، السعودية ــ دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

[حرف الضاد]

٢١٧ ــ الضاحكون: محمد قرة علي، بيروت ــ مؤسسة نوفل، الطبعة الخامسة ١٩٨٨م.
٢١٨ ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، (توفي ٩٠٢)، بيروت ــ دار مكتبة الحياة، (د. ت).

[حرف الطاء]

٢١٩ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد: جعفر بن ثعلب الإدفوي، (توفي ٧٤٨)، تحقيق سعد محمد حسن، مصر ـ الدار المصرية، ١٩٦٦م.

٢٢٠ ـ طبقات الأولياء: عمر بن علي بن أحمد ابن المقلن، (توفي ٨٠٤)، تحقيق نور الدين شريبة، مصر ـ مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

٢٢١ ـ طبقات الحنابلة: محمد بن أبي يعلى، (توفي ٥٢٦)، بيروت ـ دار المعرفة، (د. ت).

٢٢٢ ـ طبقات الشافعية: أحمد بن محمد بن قاضي شهبة، (توفي ٨٥١)، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، بيروت ـ دار الندوة الجديدة، ١٩٨٧م.

٢٢٣ ـ طبقات الشافعية (بذيل طبقات الفقهاء): أبو بكر بن هداية الله الحسيني، (توفي ١٠١٤)، تحقيق خليل الميس، بيروت ـ دار القلم، (د. ت).

٢٢٤ ـ طبقات النحويين واللغويين: محمد بن الحسن الزبيدي، (توفي ٣٧٩)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ـ دار المعارف، ١٩٨٤م.

٢٢٥ ـ طرائف الأدباء: جميل جبر، بيروت ـ دار جروس برس، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٢٢٦ ـ طرائف الشعراء في مجالس الأدباء: نجيب البعيني، بيروت ـ دار المناهل، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٢٢٧ ـ طرائف الطرف: الحسين بن محمد البارع البغدادي، (توفي ٥٢٤)، تحقيق هلال ناجي، بيروت ـ عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٢٢٨ ـ طراز المجالس: أحمد بن محمد الخفاجي، (توفي ١٠٦٩)، مصر ـ المطبعة الشرفية، (د. ت).

٢٢٩ ـ طيب السّمر في أوقات السّحر: أحمد بن محمد بن الحسن الكوكباني، (توفي ١١٥١)، تحقيق عبد الله الحبشي، صنعاء ـ مكتبة الإرشاد، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

[حرف الظاء]

٢٣٠ ـ ظرفاء الفرنسيين: سمير شيخاني، بيروت ـ مؤسسة عزّ الدين، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

٢٣١ ــ ظرفاء ولكن حكماء: محمد كمال عبد الصمد، الدار المصرية اللّبنانية، الطبعة الثالثة ١٩٩٥م.

[حرف العين]

٢٣٢ ــ العبر في خبر من غبر: محمد بن أحمد الذهبـي، (توفي ٧٤٨)، تحقيق محمد بسيوني زغلول، بيروت ــ دار الكتب العلمية، (د. ت).

٢٣٣ ــ عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام: محمد خليل المرادي، (توفي ١٢٠٦)، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحميد، دمشق ــ دار ابن كثير، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

٢٣٤ ــ العزلة: حمد بن محمد الخطّابـي البستي، (توفي ٣٨٨)، تحقيق ياسين محمد السواس، دمشق ــ دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٢٣٥ ــ العزلة والانفراد: عبد الله بن محمد بن أبـي الدنيا، (توفي ٢٨١)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، الرياض ــ دار الوطن، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٢٣٦ ــ العقد الثمين في تأريخ البلد الأمين: محمد بن أحمد الحسيني الفاسي، (توفي ٨٣٢)، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت ــ مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

٢٣٧ ــ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: بدر الدين محمود العيني، (توفي ٨٥٥)، تحقيق محمد أحمد أمين، مصر ــ الهيئة المصرية، ١٩٨٧م.

٢٣٨ ــ العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي، (توفي ٣٢٧)، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مصر ــ لجنة التأليف، ١٩٤٨م.

٢٣٩ ــ العقد المذهب في طبقات حملة المذهب: عمر بن علي بن أحمد بن الملقن، (توفي ٨٠٤)، تحقيق أيمن نصر وسيد مهنى، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٢٤٠ ــ العلماء العزّاب الذين آثروا العلم على الزواج: عبد الفتاح أبو غدّة، (توفي ١٩٩٧)، حلب ــ مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٢٤١ ــ العمدة في محاسن الشعر وآدابه: الحسن بن رشيق القيرواني، (توفي ٤٥٦)، تحقيق محمد قرقزان، بيروت ــ دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

٢٤٢ ــ عمري ألف عام (شعر): عبد الله الأخطل، بيروت ــ دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م.
٢٤٣ ــ عن الحب ومنى الحلم: (شعر) علي أحمد.
٢٤٤ ــ عود على بدء: (شعر) محمود عماد.
٢٤٥ ــ عين الأدب والسياسة: علي بن عبد الرحمن بن هذيل، (توفي بعد ٧٦٣)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.
٢٤٦ ــ عيون الأخبار: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (توفي ٢٧٦)، مصر ــ مصوّرة دار الكتب، (د. ت).
٢٤٧ ــ عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء: أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، (توفي ٦٦٨)، تحقيق نزار رضا، بيروت ــ دار مكتبة الحياة، (د. ت).
٢٤٨ ــ عيون التواريخ: محمد بن شاكر الكتبي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق نبيلة عبد المنعم وفيصل السامر، العراق ــ وزارة الثقافة، ١٩٨٤م.
٢٤٩ ــ عيون التواريخ: محمد بن شاكر الكتبي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق عفيف نايف حاطوم، بيروت ــ دار الثقافة، ١٩٩٦م.

[حرف الغين]

٢٥٠ ــ غرر الخصائص الواضحة وغرر النفائس الفاضحة: الوطواط محمد بن إبراهيم بن يحيى، (توفي ٧١٨)، بيروت ــ دار صعب، (د. ت).
٢٥١ ــ الغيث المسجم: خليل بن أيبك الصفدي، (توفي ٧٦٤)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٩٩٠م.

[حرف الفاء]

٢٥٢ ــ الفاضل في صفة الأدب الكامل: محمد بن أحمد الوشّاء، (توفي ٣٢٥)، تحقيق يحيى الجبوري، بيروت ــ دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٢٥٣ ــ الفانيد في حلاوة الأسانيد: السوطي، (توفي ٩١١)، من ضمن مجموعة «لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام»، بعناية رمزي دمشقية، بيروت ــ دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
٢٥٤ ــ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، (توفي ٧٠٩)، بيروت ــ دار صادر، (د. ت).

٢٥٥ ــ الفصوص: صاعد بن الحسن البغدادي، (توفي ٣٣٩ أو ٤١٧)، تحقيق عبد الوهاب التازي سعود، المغرب ــ مطبعة الفضالة، ١٩٩٣م.

٢٥٦ ــ فصول التماثيل في تباشير السرور: عبد الله بن المعتز، (توفي ٢٩٦)، تحقيق جورج قنازع وفهد أبو خضرة، دمشق ــ مجمع اللغة العربية، ١٩٨٩م.

٢٥٧ ــ الفلاكة والمفلوكين: أحمد بن علي الدّلجي، (توفي ٨٣٨)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٢٥٨ ــ الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها: أحمد محمد الحوفي، (توفي ١٩٨٢)، مصر ــ مكتبة نهضة مصر، (د. ت).

٢٥٩ ــ الفهرست: محمد بن إسحاق النديم، (توفي ٣٨٠)، تحقيق ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

٢٦٠ ــ فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق إحسان عباس، بيروت ــ دار صادر، (د. ت).

[حرف القاف]

٢٦١ ــ قاموس الحكم والأمثال والأقوال المأثورة: سمير شيخاني، بيروت، مؤسسة عز الدين، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٢٦٢ ــ القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي: عمر بن أحمد بن علي الشماع الحلبي، (توفي ٩٣٦)، تحقيق حسن إسماعيل مروة وخلدون حسن مروة، بيروت ــ دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٢٦٣ ــ قطر الغيث المسجم على لاميّة العجم (بذيل كتاب نفحات الأزهار): عبد الرحمن الشافعي العلواني الطبيب، بيروت ــ عالم الكتب، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م.

٢٦٤ ــ قلائد الجمان في فرائد شعراء أهل الزمان: كمال الدين أبي البركات المبارك بن الشعّار، (توفي ٦٥٤)، تحقيق نوري القيسي ومحمد نايف، العراق ــ جامعة الموصل، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٢٦٥ ــ قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: الفتح بن محمد بن عبيد الله ابن خاقان، (توفي ٥٢٩)، تحقيق حسين يوسف خريوش، الأردن ــ مكتبة المنار، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

٢٦٦ ـ قيمة الزَّمن عند العلماء: عبد الفتاح أبو غدّة، (توفي ١٩٩٧)، حلب ـ مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م.

[حرفُ الكاف]

٢٦٧ ـ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: لسان الدين محمد بن الخطيب، (توفي ٧٧٦)، تحقيق إحسان عباس، بيروت ـ دار الثقافة، (د. ت).

٢٦٨ ـ الكشكول: بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، (توفي ١٠٠٣)، بيروت ـ دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٢٦٩ ـ الكشكول: السيد مهدي الويج، بيروت ـ مؤسسة البلاغ، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

٢٧٠ ـ الكشكول: يوسف البحراني، (توفي ١١٨٦)، إيران ـ منشورات الشريف الرّضي، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ.

٢٧١ ـ كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج: أحمد بن بابا التنبكتي، (توفي ١٠٣٦)، تحقيق محمد مطيع، المغرب ـ وزارة الأوقاف، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٢٧٢ ـ كلمات من ذهب: ناديا الجردي نويهض، بيروت ـ دار الحداثة، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.

٢٧٣ ـ الكنز المدفون والفلك المشحون: عبد الرحمن بن أبـي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، مصر ـ مطبعة البابـي الحلبـي، ١٩٣٩م.

٢٧٤ ـ كنوز الحكمة: راجي الأسمر، بيروت ـ دار الجيل، (د. ت).

[حرف اللام]

٢٧٥ ـ لباب الآداب: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبـي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق أحمد حسن بسج، بيروت ـ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٢٧٦ ـ لباب الآداب: أسامة بن منقذ، (توفي ٥٨٤)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مصر ـ دار الكتب السلفية، ١٩٨٧م.

٢٧٧ ـ لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبـي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق عدنان كريم الرجب، بيروت ـ الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٢٧٨ ـ لطائف اللطف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق عمر الأسعد، بيروت ـ دار المسيرة، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

٢٧٩ ـ اللطائف والظرائف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، بيروت ـ دار المناهل، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٢٨٠ ـ لطف السّمر وقطف الثمر: نجم الدين محمد بن محمد الغزّي، (توفي ١٠٦١)، تحقيق محمود الشيخ، دمشق ـ وزارة الثقافة، (د. ت).

٢٨١ ـ اللطف واللطائف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق محمود عبد الله الجادر، الكويت ـ دار العروبة، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

٢٨٢ ـ اللَّفحات (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧م)، بيروت ـ مكتبة المعارف، الطبعة الثانية ١٩٦٥م.

٢٨٣ ـ اللهب المقفى (شعر): حافظ جميل، العراق ـ وزارة الثقافة ١٩٦٦م.

[حرف الميم]

٢٨٤ ـ مجالس ثعلب: أحمد بن يحيى ثعلب، (توفي ٢٩١)، تحقيق عبد السلام هارون، مصر ـ دار المعارف، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.

٢٨٥ ـ المجالسة وجواهر العلم: أحمد بن مروان بن محمد الدينوري، (توفي ٣٣٣)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، بيروت ـ دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٢٨٦ ـ المجتنى: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، (توفي ٣٢١)، بيروت ـ دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

٢٨٧ ـ مجلة الأحرار المصوّرة (لصاحبها): جبران تويني، (توفي ١٩٤٧)، بيروت ـ دار النهار للنشر.

٢٨٨ ـ مجلس من أمالي ابن الأنباري: محمد بن القاسم بن بشار، (توفي ٣٢٨)، تحقيق إبراهيم صالح، دمشق ـ دار البشائر، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٢٨٩ ـ مجلّة الرسالة (لصاحبها): أحمد حسن الزيات، (توفي ١٩٦٨)، مصر.

٢٩٠ ـ مجمع الآداب في معجم الألقاب: عبد الرزاق بن أحمد ابن الغوطي، (توفي ٧٢٣)، تحقيق محمد الكاظم، إيران ـ وزارة الثقافة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٢٩١ ــ مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربـي: أحمد قبش، دمشق ــ دار الرشيد، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

٢٩٢ ــ مجموعة المعاني: لمؤلف مجهول، القسطنطينية ــ مطبعة الجوائب، الطبعة الأولى ١٣٠١هـ.

٢٩٣ ــ المحاسن والأضداد: عمرو بن بحر الجاحظ، (توفي ٢٥٥)، تحقيق فوزي عطوي، بيروت ــ دار صعب، ١٩٦٩م.

٢٩٤ ــ المحاسن والمساوىء: إبراهيم بن محمد البيهقي (توفي بعد ٣٨٥)، بيروت ــ دار بيروت، ١٩٧٩م.

٢٩٥ ــ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء: حسين بن محمد الرّاغب الأصبهاني، (توفي ٥٠٢)، بيروت ــ مكتبة الحياة، (د. ت).

٢٩٦ ــ المحاضرات في اللغة والأدب: الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي، (توفي ١١٠٢)، تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي، بيروت ــ دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م.

٢٩٧ ــ محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار: محيي الدين بن عربـي، (توفي ٦٣٨)، بيروت ــ دار صادر، (د. ت).

٢٩٨ ــ المحدث الفاصل بين الرّاوي والواعي: الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، (توفي ٣٦٠)، تحقيق محمد عجاج الخطيب، دمشق ــ دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م.

٢٩٩ ــ محمود أبو الوفا، دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه: (توفي ١٩٧٩)، مصر ــ الهيئة المصرية، ١٩٧٧م.

٣٠٠ ــ المحمدون من الشعراء وأشعارهم: علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي، (توفي ٦٤٦)، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، دمشق ــ دار ابن كثير، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

٣٠١ ــ المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبـي عبد الله محمد الدبيثي: محمد بن أحمد الذهبي، (توفي ٧٤٨)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

٣٠٢ ــ مختصر طبقات الحنابلة: محمد جميل الشطي، (توفي ١٣٧٩)، تحقيق فواز أحمد زمرلي، بيروت ــ دار الكتاب العربـي، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

٣٠٣ ـ المختار من شعر بشار: محمد وسعيد ابني هاشم الخالديين، (توفي ٣٨٠ و ٣٩٠)، تحقيق إسماعيل بن أحمد التجيبي، بيروت ـ دار المدينة، (د. ت).

٣٠٤ ـ المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور: إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، (توفي تقريباً ٤٢٥)، تحقيق عبد الحفيظ منصور، تونس ـ مؤسسة عبد الكريم وعبد الله، ١٩٧٦م.

٣٠٥ ـ المخلاة: بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، (توفي ١٠٠٣)، تحقيق محمد خليل الباشا، بيروت ـ عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

٣٠٦ ـ المدهش: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق مروان قباني، بيروت ـ دار الكتب العلمية، (د. ت).

٣٠٧ ـ مدينة بلا قلب (شعر): أحمد عبد المعطي حجازي، (ولد ١٩٣٥)، بيروت ـ دار الأدب، الطبعة الأولى ١٩٥٩م.

٣٠٨ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان: عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، (توفي ٧٦٨)، بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الثانية ١٩٧٠م.

٣٠٩ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي يوسف بن قزاوغلي، (توفي ٦٥٤)، تحقيق مسفر بن سالم الغامدي، السعودية ـ جامعة أم القرى، ١٩٨٧م.

٣١٠ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي يوسف بن قزاوغلي، (توفي ٦٥٤)، تحقيق جنان جليل محمد الهموندي، العراق ـ وزارة الثقافة، ١٩٩٠م.

٣١١ ـ المركب التائه (شعر): جمال الملاّح، (توفي ١٩٤٩)، (د. ت).

٣١٢ ـ مروج الذهب: علي بن الحسين المسعودي، (توفي ٣٤٦)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دمشق ـ دار الفكر، الطبعة الخامسة ١٩٧٣م.

٣١٣ ـ المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: أحمد بن أيبك الحسامي الدمياطي، (توفي ٧٤٩)، تحقيق محمد مولود خلف، بيروت ـ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

٣١٤ ـ المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل: محمد الإفراني، (مولود سنة ١٠٨٠)، تحقيق محمد العمري، المغرب ـ وزارة الثقافة، ١٩٩٧م.

٣١٥ ــ مشاعل الدرب (شعر): محمد سعيد جرادة.

٣١٦ ــ مطالع البدور في منازل السرور: علاء الدين علي بن عبد الله الغزولي، (توفي ٨٩٥)، مصر ــ مطبعة إدارة الوطن، الطبعة الأولى ١٢٩٩هـ.

٣١٧ ــ مطمح الأنفس ومسرح التأنس: الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان، (توفي ٥٢٩)، تحقيق محمد علي شوابكة، بيروت ــ دار عمّار ومؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٣١٨ ــ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: عبد الرحيم بن أحمد العباسي، (توفي ٩٦٣)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر ــ مطبعة السعادة، ١٩٤٧م.

٣١٩ ــ معجم حكمة العرب: أمل شلق، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

٣٢٠ ــ معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الحموي، (توفي ٦٢٦)، تحقيق مرجليوث، بيروت ــ دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م.

٣٢١ ــ معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، (توفي ٦٢٦)، بيروت ــ دار صادر، ١٩٧٧.

٣٢٢ ــ معجم السفر: أحمد بن محمد السلفي، (توفي ٥٧٦)، تحقيق عبد الله عمر البارودي، بيروت ــ دار الفكر، ١٩٩٣م.

٣٢٣ ــ المغرب في حلي المغرب (قسم مصر): ابن سعيد علي بن موسى الأندلسي، (توفي ٦٨٥)، تحقيق زكي محمد وشوقي ضيف وسيدة كاشف ــ مصر، مطبعة جامعة فؤاد، ١٩٥٣م.

٣٢٤ ــ المغرب في حلي المغرب (قسم القاهرة): ابن سعيد علي بن موسى الأندلسي، (توفي ٦٨٥)، تحقيق حسين نصّار، مصر ــ مطبعة الكتب المصرية، ١٩٧٠م.

٣٢٥ ــ المغرب في حلي المغرب: ابن سعيد علي بن موسى الأندلسي (توفي ٦٨٥)، تحقيق شوقي ضيف، مصر ــ دار المعارف، الطبعة الثالثة (د. ت).

٣٢٦ ــ مفرج الكروب في أخبار أيوب: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، (توفي ٦٩٧)، تحقيق جمال الدين الشّيال، (د. ت).

٣٢٧ ــ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد: إبراهيم بن محمد بن مفلح، (توفي ٨٨٤)، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الرياض ــ مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
٣٢٨ ــ المقفّى الكبير: أحمد بن علي المقريزي، (توفي ٨٤٥)، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت ــ دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٣٢٩ ــ المكافأة وحسن العقبى: أحمد بن يوسف الكاتب، (توفي ٣٤٠)، تحقيق محمود محمد شاكر، بيروت ــ دار الكتب العلمية، (د. ت).
٣٣٠ ــ المكتبة الأندلسية: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري اللبناني، الطبعة الثانية ١٩٨٩م.
٣٣١ ــ ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة: محمد بن عمر بن رشيد الفهري، (توفي ٧٢١)، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت ــ دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، (د. ت).
٣٣٢ ــ من حصاد الفكر العالمي: سمير شيخاني، بيروت ــ دار الآفاق الجديدة، (د. ت).
٣٣٣ ــ من شعرائنا المنسيين: عبد الله الجبوري، العراق ــ وزارة الثقافة، ١٩٦٦م.
٣٣٤ ــ من الكويت (شعر): عبد الله النوري، (توفي ١٩٨١).
٣٣٥ ــ المنازل والديار: أسامة بن منقذ، (توفي ٥٨٤)، بيروت ــ المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٦٥م.
٣٣٦ ــ المناقب والمثالب: ريحان بن عبد الواحد الخوارزمي، (توفي تقريباً سنة ٤٣٠)، تحقيق إبراهيم صالح، دمشق ــ دار البشاير، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
٣٣٧ ــ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (توفي ٥٩٧)، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
٣٣٨ ــ المنتخب من كنايات الأدباء: أحمد بن محمد الجرجاني، (توفي ٤٨٢)، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
٣٣٩ ــ المنتخب من معجم شيوخ الإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني: ، (توفي ٥٦٢)، تحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٣٤٠ ـ المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد: عبد الرحمن بن محمد العليمي، (توفي ٩٢٨)، تحقيق محمد الأرناؤوط وآخرون، بيروت ـ دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٣٤١ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: يوسف بن تغري بردي، (توفي ٨٧٤)، تحقيق محمد محمد أمين ونبيل محمد)، مصر ـ الهيئة المصرية، ١٩٨٤م.

٣٤٢ ـ موسوعة الأدب الضاحك: علي مروة، لندن ـ رياض الريس، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٣٤٣ ـ موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة: روحي البعلبكي، بيروت ـ دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.

٣٤٤ ـ الموسوعة الشوقية: أحمد شوقي، (توفي ١٩٣٢)، تحقيق إبراهيم الإبياري، بيروت ـ دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٣٤٥ ـ موسوعة الكنايات العامية البغدادية: عبود الشالجي، (توفي ١٩٩٦)، بيروت ـ دار الكتب، الطبعة الأولى ١٩٨٢.

[حرف النون]

٣٤٦ ـ النّبع (شعر): حسن كامل الصيرفي، (توفي ١٩٨٤م)، مصر ـ دار المعارف ١٩٨٢م.

٣٤٧ ـ نثر الدرّ: منصور بن الحسين الآبي، (توفي ٤٢١)، تحقيق محمد علي قرنة وآخرون، مصر ـ الهيئة المصرية، (د. ت).

٣٤٨ ـ النجوم الزاهرة في ولاة مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردي، (توفي ٨٧٤)، مصر ـ الهيئة المصرية، ١٩٧٢م.

٣٤٩ ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء: عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري، (توفي ٥٧٧)، تحقيق إبراهيم السامرائي، الأردن ـ مكتبة المنار، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

٣٥٠ ـ نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس: العباس بن علي الموسوي، (توفي ١١٨٠)، تحقيق محمد مهدي الخرسان، النجف ـ المطبعة الحيدرية، ١٩٦٧م.

٣٥١ ـ نزهة النظار في قضاة الأمصار: عمر بن علي بن أحمد بن الملقن، (توفي ٨٠٤)، تحقيق مديحة محمد الشرقاوي، مصر ـ مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٦م.

٣٥٢ ـ نسمة السّحر بذكر من تشيّع وشعر: ضياء الدين يوسف بن يحيى الصنعاني، (توفي ١١٢١)، تحقيق كامل سلمان الجبوري، بيروت ـ دار المؤرخ العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٣٥٣ ـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: علي المحسن بن علي التنوخي، (توفي ٣٨٤)، تحقيق عبود الشالجي، ١٩٧١م.

٣٥٤ ـ نظم العقيان في أعيان الأعيان: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (توفي ٩١١)، تحقيق فيليب حتّي، بيروت ـ دار الكتب العلمية، (د. ت).

٣٥٥ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب: أحمد بن محمد المقري التلمساني، (توفي ١٠٤١)، تحقيق إحسان عباس، بيروت ـ دار صادر، ١٩٦٨م.

٣٥٦ ـ نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة: محمد أمين بن فضل الله المحبّي، (توفي ١١١١)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، مصر ـ مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

٣٥٧ ـ نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن: أحمد بن محمد الشرواني، (توفي ١٢٥٣)، بيروت ـ دار آزال، ١٩٨٥م.

٣٥٨ ـ نكت الهميان في نكتب العميان: خليل بن أيبك الصفدي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق أحمد زكي باشا، مصر ـ المطبعة الجمالية ١٩١١م.

٣٥٩ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد النويري، (توفي ٧٣٣)، مصر ـ دار الكتب، (د. ت).

٣٦٠ ـ نور القبس المختصر من المقتبس (تأليف): محمد بن عمران المرزباني (اختصار) يوسف بن أحمد اليغموري، تحقيق رودلف زلهايم، دار فرانس شتاينر، ١٩٦٤م.

٣٦١ ـ نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج: أحمد بابا التنكبتي، (توفي ١٠٣٦)، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس ـ كلية الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

[حرف الهاء]

٣٦٢ ــ هتاف الوجدان (شعر): سعيد فيّاض، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٣٦٣ ــ هواجس (شعر): أحمد الصافي النجفي، (توفي ١٩٧٧)، بيروت ــ المطبعة العصرية، (د. ت).

[حرف الواو]

٣٦٤ ــ الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي، (توفي ٧٦٤)، تحقيق مجموعة من المحققين، دار فرانس شتاينر.

٣٦٥ ــ وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، (توفي ٩٠٢)، تحقيق بشار معروف وعصام فارس وأحمد الخطيمي، بيروت ــ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٣٦٦ ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن خلكان، (توفي ٦٨١)، تحقيق إحسان عباس، بيروت ــ دار صادر، (د. ت).

[حرف الياء]

٣٦٧ ــ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، (توفي ٤٢٩)، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت ــ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.



فهرس الموضوعات

❑ ❑ ❑